الفصل الرابع
المواجهة والاتصال الثقافي
وجهان متلازمان

تتلخص استراتيجية المواجهة في تحقيق الأمن الثقافي، ولتحقيق ذلك الأمن الثقافي فإن المواجهة تعني مواجهتين. الأولى: كيفية مقاومة الغزو الثقافي. والثانية كيفية التفاعل والاتصال الثقافي. فالغزو الثقافي، والاتصال الثقافي لا يمكن الفصل بينهما في عالمنا المعاصر فصلا قاطعا، ولم يعد في مقدور أمة في عالمنا المعاصر أن تقيم ستارا حديديا بينها وبين العالم، فتستغني عن الاتصال الثقافي، وتتفرغ لمواجهة الغزو الثقافي وحسب. إن طبيعة العصر جعلت لهذين المفهومين المتناقضين: الغزو الثقافي، والاتصال الحضاري تلازما وثيقا في المجال والتأثير.

ويدور مفهوم الأمن الثقافي الذي تبناه وزراء الثقافة العرب في اجتماعهم الرابع في الجزائر عام ١٩٨٣م الذي خصصوه لبحث هذا الموضوع حول ثلاثة محاور رئيسة: الأول يتعلق بالإطار القومي، ذلك أن الثقافة العربية وأداتها التعبيرية اللغة العربية تحملت رسالة الوحدة عضويا ووظيفيا وثقافيا، وأصبحت المنطلق الحقيقي لمواجهة القضايا القومية من التجزئة القطرية، والتخلف الاجتماعي، والتسلط الأجنبي، والعدوان الصهيوني، وصولا إلى الوحدة والتحرر والتقدم، تلك الغايات التي يصنعها الإنسان القادر الذي لا تتهيأ له القدرة إلا عن طريق الثقافة، فهي التي تتعهد قابليات الإنسان بالإعداد الاجتماعي والسياسي والفكري والعلمي والفني.

ويدور المحور الثاني: حول الثقافة العربية في الإطار العالمي أو ما يعرف الآن بالغزو الثقافي، وهو يستند إلى الحقيقة التاريخية التي يعيشها العالم المعاصر في عصر ثورة المعلومات والحاسبات الإلكترونية، وتقنيات الاتصال الجماهيرية العملاقة وعصر الأقمار المصنوعة والتوابع الفضائية المسخرة للاتصالات المختلفة، وفي مقدمتها البث الإذاعي والتلفزيوني، وأن هذه التقنيات المتطورة بقدر ما هي عون لوعي لتقدم الثقافة الإنسانية، وإثراء للمعرفة البشرية تشكل في الوقت نفسه خطرا متزايدا على المجتمعات المتلقية التي

لا تملك حرية الاختيار، أمام هذا الاقتحام الضارى، وهو أمر يفضى إلى نتائج سلبية بالنسبة للثقافات القومية. وتتعاظم هذه النتائج بمقدار عزلة تلك الثقافات وضعفها، فهى تؤدى في المقام الأول إلى عملية إحلال لثقافات أخرى حتى على مستوى القواعد الجماهيرية، ابتداء من العادات والممارسات والسلوك اليومى إلى سلم القيم ونمط الحياة، مما يغير شخصية تلك المجتمعات بإعادة صياغتها على نمط كونى معين، هدفه في عاقبة الأمر، هدف اقتصادى وسياسى.

ويدور المحور الثالث: حول الصناعات الضرورية للثقافة أو ما يمكن تسميته بالمقومات المادية للإنتاج الثقافي، والمقصود منه أنه في إطار مفهوم الأمن الثقافي، فإن تأمين الموارد الأولية الضرورية للإنتاج الثقافي كالورق والأفلام والأحبار، وأدوات ذلك الإنتاج مثل الطباعة وصناعة المحابر، وأجهزة الاتصال والتسجيل والعرض وغير ذلك من متطلبات البحوث العلمية والوسائل التعليمية وما شابه ذلك، يتخذ أولوية عالية اقتصاديا واجتماعياً.

ويشير خبراء منظمة اليونسكو كما يؤكد خبراء الإعلام العرب[٩٠] العلاقة الوثيقة بين الإعلام والثقافة التي تكاد تشكل منهما كيانا واحدا، يتأثر كل جزء منه بالجزء الآخر والثقافة في كل الأحوال تشكل مضمون المواد التي تنشرها وسائل الإعلام المختلفة. ومن ثم فإن مفهوم الأمن الثقافي لا يقف عند المؤسسات التربوية والثقافية بل يمتد إلى الأنشطة التي تتولاها وسائل الإعلام في عصرنا الحاضر.

وتناولت الخطة الشاملة للثقافة العربية[٩١] الأمن الثقافي مصطلحا ومضمونا فقالت: "الأمن الثقافي ليس مجرد تعبير لغوى سلبى، ولكنه مصطلح أو مفهوم مشتق من الأمان، ومن ضرورة الحفاظ على مقومات الثقافة العربية في أبعادها ومجالاتها ومظاهرها لتتابع دورها القومى، ومضمونها الإنسانى، ومسئوليتها الحضارية في سياق المعاصرة،

---

(٩٠) سعد لبيب ــ الأمن الثقافي والعمل الإذاعي ــ الدراسات الإعلامية ــ العدد ٤٩، أكتوبر ونوفمبر١٩٨٧م

(٩١) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ــ الخطة الشاملة للثقافة العربية ــ المجلد الأول ــ الكويت ــ ١٩٨٦م ص ١٤٢، ص ١٤٣.

وبالمشاركة الفاعلة على المستويين القومي والعالمي. وبالرغم من النكبات التي حلت بهذه الأمه في العصر الحديث، فقد ظلت الثقافة العربية حصن وحدها، ودفعت بلغتها لتصبح إحدى لغات المعترك الدولي. على أن هجمة وسائل الاتصال الحديثة، بالشكل الكثيف، والاقتحام الضارى الذي يتم الآن، لا يهدد التمازج الثقافي الذي ترحب به الثقافة العربية، ولكن يهدد بإحلال ثقافة أخرى محلها، حتى على مستوى القواعد الجماهيرية، بدءا من العادات والممارسات اليومية وانتهاء بسلم القيم. يضاف إلى ذلك الهجمة الصهيونية الاستيطانية التي تعمل على تدمير الثقافة العربية؛ لأن ذلك هو وسيلتها لإلغاء المقاومة العربية. إن هذا كله إنما يدعو إلى التحرك لضمان ما نسميه بالأمن الثقافي. ويقوم هذا الأمن على أمرين:

١ــ استكمال المقومات الأساسية للثقافة العربية وتجديد قدراتها الذاتية.

٢ــ أن تكون الثقافة العربية قادرة في إبداعها وعطائها، على تحويل علاقاتها مع الثقافات الأخرى من الاستيلاب إلى الحوار والمشاركة. ومن الاستسلام إلى إبراز الخصوصية والتفاعل المشترك". ويمكننا أن نوجز استراتيجية مواجهة الغزو الثقافي لعالمنا العربي المعاصر في مبحثين رئيسن:

أ ــ الأساس الفلسفي أو الفكرى أو العقدى.

ب ــ الأساس التخطيطي والتطبيقي والتنفيذي.

أ ــ الأساس الفلسفي أو الفكري أو العقدي:

يقول الله تعالى: (وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً) (النساء: ٨٣).

علينا أن نطرق باب القرآن الكريم بترتيب المصحف لنرى صورتنا في مقاومة الغزو الثقافي، أو بمعنى أدق لنرى كيف تكون صورتنا، مقاومين لهذا الغزو من جوانبها المختلفة.

سورة البقرة:

غشاوة الغزو الثقافي:

* (خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ) (البقرة: ٧).

الكذب والتلفيق في مضامين الغزو الثقافي:

* (وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) (البقرة: ٤٢)

كشف سلوك المصدر في الغزو الثقافي:

* (أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) (البقرة ٧٥ ــ ٧٦).

الارتباط بين القتال والفتنة:

* (وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ) (البقرة: ١٩١).

* (وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ) (البقرة: ٢١٧).

صرعى الغزو الثقافي:

* (اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (البقرة: ٢٥٧).

أهداف الغزو الثقافي:

* (ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ) "سورة آل عمران ــ الآية ٧".

* (وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ) "ثم بقية الآيات ٦٩،٧٠،٧١،٧٢،٧٣ من آل عمران"

* (وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ) " آل عمران ــ الآية ٧٨".

* (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ) " آل عمران ــ الآية ١٠٠".

التحذير من الارتماء في أحضان الغزاة:

* (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ

بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ) " آل عمران ــ الآيات ١١٨،١١٩"

الثقة بالنفس في مواجهة الغزو الثقافي:

* (وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) " آل عمران ــ الآية ١٣٩"

التحذير من الانسياق في طاعة الغزاة:

* (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ) " آل عمران ــ الآية ١٤٩".

قوة الإرادة والعزم في مواجهة الغزو الثقافي:

* (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ) " آل عمران ــ الآية ١٨٦"

أهداف الغزو الثقافي:

* (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيراً مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً) " النساء الآية ٤٤– ٤٦".

* (وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء..) " النساء ــ الآية٨٩".

التحذير من اتباع سلوك الغزاة:

* (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً) " النساء ــ الآية ١٤٠".

التحذير من اتخاذ الغزاة قدوة ومثلا عليا:

* (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً) " النساء ــ الآية ١٤٤".

التحذير من سلوك الغزاة في عدم الوفاء بالعهود، والتحريف، والخيانة: * (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) " المائدة ــ الآية ١٣".

التحذير من الإحباط بسبب تفشي ظاهرة الغزو الثقافي:

* (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ...) " المائدة ــ الآية ٤١، ٤٢".

تكرار التحذير من فتنة الغزاة:

(وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ) " المائدة ــ الآية ٤٩"

تصوير الصراع بين معسكر الإيمان، وقوى الغزو الثقافي وتحليل موقف رواد التغريب:

* (وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ) "سورة المائدة ــ من الآية ٤٩ إلى الآية ٥٢"

تحذير مباشر من اتخاذ قوى الغزو الثقافي أولياء ومثلا عليا وقدوة:

* (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) " المائدة ــ الآية ٥٧"

كشف موقف الغرب من الإسلام والمسلمين:

* (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ

مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ) " المائدة ــ الآية ٥٩".

التحذير من التطرف:

* (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ) " المائدة ــ الآية ٧٧".

تحليل فصائل الغزو الثقافي وعدم التعميم:

* (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ) " المائدة ــ الآية ٨٢"

الالتزام في مقاومة الغزو الثقافي وعدم الإسفاف:

* (وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) " الأنعام الآية ١٠٨"

المراحل التي يمر بها صرعى الغزو الثقافي: الإصغاء الانتقائي، الرضا به، الاقتراف:

* (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) " الأنعام ــ الآية ١١٣"

التحذير من الانسياق وراء أكاذيب مصدر الغزو الثقافي:

* (وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ) " الأنعام ــ الآية ١١٦".

مجافاة مضامين الغزو الثقافي لقواعد العلم وإغراقها في الميول والأهواء:

* (...وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ...) " الأنعام ــ الآية ١١٩"

دمغ رواد التغريب بصفة أعداء الإسلام:

* (...وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) " الأنعام ــ الآية ١٢١".

ضيق مصادر الغزو الثقافي بالحوار ونفورهم من المناقشة:

* (فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ) "الأنعام ــ الآية ١٢٥"

حجر الزاوية في مواجهة الغزو الثقافي الالتزام الكامل بالهوية العقدية والثقافية:

* (اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ) "الأعراف ــ الآية ٣".

سلوك أعداء الإسلام في عدم التعرض للفكر الإسلامي وحجبه عن العقول والقلوب:

* (أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) "هود ــ الآية ٥".

تحصين المجتمع المسلم بتفسير التقدم عند الكافرين لأنهم يأخذون بالأسباب ولكن ذلك لا ينفي أخفاقهم عقديا وروحيا:

* (مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) "سورة هود ــ الآية ١٥ ــ ١٦"

إدعاء الغزاة بتفوق أيدلوجياتهم وادعائهم بتحقيق نظمهم خير البشرية:

* (وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى...) "النحل ــ الآية ٦٢"

التحذير من تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله بالتفلسف الكاذب والحذلقة الخاطئة:

* (وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ) "النحل ــ الآية ١١٦".

صورة للأيدلوجيات الضالة مثل النازية:

* (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً) "سورة الكهف ــ الآيتان:١٠٣،١٠٤".

صورة لتخبط مقولات صرعي الغزو الثقافي وانتقالهم من الشيوعية إلى التطرف العلماني:

* (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ) "الحج ــ الآية ٣"

صورة للاستكبار والتشبث بالخطأ الذي يسلكه صرعي الغزو الثقافي:

* (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ...) " الحج ــ الآية ٨، ٩".

صفات وخصائص معسكر العملاء:

* (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) " الحج – الآية ١١".

الذين يروجون للغزو الثقافي:

*(يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ) " الحج ــ الآية ١٣"

خصائص وصفات وملامح معسكر الغزو:

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا...) " الحج ــ الآية ٧٢".

خصائص وسمات صرعي الغزو الثقافي:

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً) "سورة الفرقان ــ الآية ٤٣،٤٤"

إغراق صرعي الغزو الثقافي في اللهو والسخرية والاستكبار والاستعلاء:

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) "سورة لقمان ــ الآية ٧".

هل توجد صورة للجواسيس أو العملاء أو الطابور الخامس أو الثورة المضادة أو القوى المتربصة في الداخل مثل هذه الصورة:

* (أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً) " الأحزاب ــ الآية ١٩".

صورة الدهماء المنساقين وراء رواد التغريب والغزو الثقافي:

* (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً) " الأحزاب ــ الآية ٦٧، ٦٨".

جسامة المسئولية في مواجهة الغزو الثقافي:

* (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً) " الأحزاب ــ الآية ٧٢".

صورة للنرجسة البشرية في العقائد والأيدلوجيات ومدى ضلالها وانغلاقها:

* (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) " الجاثية ــ الآية ٢٣".

انغلاق قلوب المعكسر المعادي للإسلام وانغلاق عقولهم ونفوسهم وأرواحهم:

* (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) " محمد ــ الآية ٢٤".

تظهر المضامين المستترة في الغزو الثقافي التناقض والكذب فيها. وهي انعكاس لأحقاد الغازي:

* (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ) " محمد ــ الآية ٢٩، ٣٠"

تكرار التحذير من اتخاذ مصدر الغزو حليفا وصديقا مهما كانت الأواصر والروابط:

* (لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ...) " المجادلة ــ من الآية ٢٢"

تكرار التحذير في القرآن الكريم من اتخاذ مصدر الغزو الثقافي وليا ومثلا أعلى وقدوة:

* (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ) " الممتحنة ــ الآيتان ١، ٢"

صورة الوحدة الوطنية في المجتمعات العربية والإسلامية:

* (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ

فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) " الممتحنة ــ الآيتان ٨، ٩".

تحذير متكرر من الانقياد والولاء تحت راية مصدر الغزو الثقافي:

* (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ) " الممتحنة ــ الآية ١٣".

العزم والتصميم والإرادة الصارمة في مواجهة الغزو الثقافي:

* (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ..) " الكافرون ــ الآية ١،٢".

تصوير لعملية الغزو الثقافي في العقول والقلوب والصدور والأرواح:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ).

هذه الآيات القرآنية وغيرها تضع لنا إطارا عاما نبنى داخله الأساس الفلسفي أو الفكري أو العقدي لاستراتيجية مواجهة الغزو الثقافي. إن تدبر هذه الآيات وتفسيرها يجعلنا نطل على سوق الغزو الثقافي من شرفة مطلة على كافة زوايا ومواقع السوق.

أورد صاحب[٩٢] المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ستين آية من آيات القرآن الكريم تحدثت عن الفتنة بجوانبها المختلفة. اخترت منها ثمانية وثلاثين آية يمكن أن تشير إلى مفهوم الفتنة[٩٣] الذي يوضح لنا الغزو الثقافي. وهى على النحو التالي:

* وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ (الأنعام ــ الآية ٥٣).

---

(٩٢) محمد فؤاد عبد الباقي ــ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ــ دار الحديث خلف الجامع الأزهر، ودار الريان للتراث ــ القاهرة ــ ١٩٨٧ ص ٥١١، ٥١٢.

(٩٣) في لسان العرب لابن منظور يبدأ فصل الفاء بشروح معاني الفتنة. فهي الابتلاء والاختبار، وأصلها مأخوذ من قولك فتنت الفضة إذا أذبتها بالنار لتميز الرديء من الجيد، والفَتْنُ: الإحراق، ويقول ابن الأعرابي: الفتنة الاختبار، والمحنة، والكفر، واختلاف الناس بالآراء. ويقال فلان مفتون بطلب الدنيا قد غلا في طلبها. والفتنة: إعجابك بالشيء، والمفتون: المجنون. والفاتن: الشيطان لأنه يضل العباد. وفي حديث قَيْلَة: "المسلم أخو المسلم يسعهما الماء والشجر ويتعاونان على الفتان": الشيطان الذي يفتن الناس بخداعه وغروره وتزيينه المعاصي، فإذا نهى الرجل عن ذلك فقد أعانه على الشيطان، وفتن الرجل أي أزاله عما كان عليه، ومنه قول الله عز وجل (وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا) أي يميلونك ويزيلونك، والفتنة: الإضلال.

* قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (طه ــ الآية ٨٥).
* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ (العنكبوت ــ الآية ٣).
* وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (الدخان ــ الآية ١٧).
* وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ (الحديد ــ الآية ١٤)
* إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (البروج ــ الآية ١٠).
* يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ (الأعراف ــ الآية ٢٧).
* عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ (يونس ــ الآية ٨٣).
* وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ (المائدة ــ الآية ٤٩).
* وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا (الإسراء ــ الآية ٧٣).
* وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ (طه ــ الآية ٩٠).
* ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ (النحل ــ الآية ١١٠)
* قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (النمل ــ الآية ٤٧).
* أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ (التوبة ــ الآية ١٢٦)
* أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (العنكبوت ــ الآية ٢)
* فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (الصافات ــ ا لآية ١٦٢)
* فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (القلم ــ الآيتان ٥، ٦).
* وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ (البقرة ــ الآية ١٩١)
* وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ (البقرة ــ الآية ١٩٣).
* وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ (البقرة ــ الآية ٢١٧).
* فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ (آل عمران ــ الآية ٧).
* كُلَّ مَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا (النساء ــ الآية ٩١).
* وَحَسِبُواْ أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ (المائدة ــ الآية ٧١)
* وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً (الأنفال ــ الآية ٢٥)
* وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ (الأنفال ــ الآية ٣٩).

* إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (الأنفال ــ الآية ٧٣)
* وَلأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ (التوبة ــ الآية ٤٧).
* لَقَدِ ابْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاء الْحَقُّ (التوبة ــ الآية ٤٨)
* رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (يونس ــ الآية ٨٥).
* وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (الأنبياء ــ الآية ١١١).
* وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ (الحج ــ الآية ١١).
* لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ (الحج ــ الآية ٥٣)
* فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ (النور ــ الآية ٦٣).
* وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ (الفرقان ــ الآية ٢٠).
* فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ (العنكبوت ــ الآية ١٠)
* وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا (الأحزاب ــ الآية ١٤)
* بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (الزمر ــ الآية ٤٩).
* رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا (الممتحنة ــ الآية٦٠).

وهذه الآيات القرآنية تساند الآيات التي سبق أن استخلصتها من المصحف وفق ترتيب السور، ورأيت فيها صلة رابطة بموضوع الغزو الثقافي كما نعرفه في حياتنا المعاصرة. وإذا كانت الآيات الأولى تمثل في تصوري إطاراً عاماً نستطيع أن نبني داخله الأساس الفلسفي أو الفكري أو العقدي لاستراتيجية مواجهة الغزو الثقافي فإن الآيات الثانية تعمق وتثري مفهوما وجدت أنه أقرب ما يكون إلى مفهوم الغزو الثقافي. ومن ثم فإن الآيات المتعلقة بالفتنة في معناها القريب من الغزو الثقافي تدلنا على تفريعات الغزو وتضيف تراكما في أذهاننا يثري عقولنا في وضع الأساس الفلسفي أو الفكري أو العقدي الذي نسعى إليه لصوغ استراتيجية المواجهة. ولم أشأ أن ألجأ للتحليل الكمي بذكر تكرارات لفئات المعاني المتعلقة بمدلول جوانب الغزو الثقافي. ثم أضعها في جداول تحصى لنا تكرار المعاني، وما شابه ذلك. لأنني أرى أن مثل هذه الجداول والنسب تبعدنا في مثل هذا المقام عن الواقع، إلى جانب أنها تفضي بنا إلى نظرة جزئية أو أحادية أو غير شاملة.

وإذا انتقلنا إلى أحاديث رسول الله ﷺ فإننا نتساءل: هل تناولت السنة النبوية

موضوع الغزو الثقافي؟ إن حديثا نبويا شريفا عن رسول الله ﷺ يكاد يجمل جوهر التحذير من الوقوع في حفرة الغزو الثقافي. يشرحه الدكتور يوسف القرضاوى[٩٤] قائلا: وصدق في ذلك ما أخبر به من لا ينطق عن الهوى حين قال " لتتبعن سنن من قبلكم، شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟ ".

وفي بعض الروايات: التعبير بـ "فارس والروم" بدل "اليهود والنصارى".

والحديث ينكر على الأمة أن تفقد هويتها وأصالتها، إلى حد تغدو فيه ذيلا تابعا للآخرين من أصحاب الديانات السابقة، أو أصحاب الحضارات السائدة.

وفارس والروم لا توجد اليوم بهذا الاسم والعنوان. ولكن معناهما موجود في الساحة الدولية في توالى العصور، كما كانت فارس والروم عند ظهور الإسلام.

ويعبر الحديث عن مدى هذه التبعية الذيلية بقوله "شبرا بشبر"، "وذراعا بذراع"... ويضرب "جحر الضب" مثلا لهذا التنوع من الاتباع الأعمى فجحر الضب! يعتبر أسوأ صورة للالتواء والضيق والظلمة وسوء الرائحة، ومع هذا لو دخل أولئك "المقلدون" هذا الجحر الكريه لدخله وراءهم المقلدون. وبتعبير عصرنا: تظهر "مودة" جديدة جذابة تعلن عنها الصحافة والإذاعة والتلفاز، تسمى "مودة جحر الضب" هذا مع حرص الإسلام البالغ في تشريعاته وتوجيهاته، على أن تظل الشخصية المسلمة مستقلة ومتميزة في مخبرها وفي مظهرها، حتى لا يسهل ذوبانها في غيرها، وبالتالي تفقد خصائصها ومشخصاتها. وهذا معنى الدعاء اليومى المتكرر للمسلم في صلاته، سبع عشرة مرة على الأقل (اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين). وفي هذا ألف شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه القيم " اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم ".

وهكذا يتمثل في القرآن الكريم والسنة المطهرة الركن الأول من أركان الأساس الفلسفي والفكرى والعقدى لاستراتيجية المواجهة.

---

(٩٤) د. يوسف القرضاوي ـ نحن والغزو الثقافي ـ جريدة الشعب القاهرية ـ بتاريخ ١١-٢-١٩٨٦م.

أما الركن الثاني فهو هوية استراتيجية المواجهة، والتي تتمثل في هوية الثقافة ذاتها ويلخص الدكتور يوسف القرضاوى[٩٥] الحوار والجدل حول ماهية الثقافة العربية والحضارة العربية: أهي عربية أم إسلامية؟ وما الصلة بين العروبة والإسلام؟ أهي صلة تكامل أو صلة تناقض؟ فيقول: "لا غنى للعروبة عن الإسلام، ولا معنى للإسلام بدون العروبة". ويلخص حيثيات حكمه على ماهية هذه الثقافة بأنها عربية إسلامية معا بالأدلة التالية:

* هى ثقافة عربية بحكم اللغة الأساسية. التي كتبت بها، وعبرت عنها.
* بحكم روح القرآن العربي السارية في جنباتها، والمؤثرة في أعماقها.
* بحكم تأثير البيان النبوى العربي والأسوة المحمدية في مسيرتها.
* بحكم أن العنصر العربي كان هو العنصر الأول في تكوينها.
* بحكم أن جزيرة العرب كانت مهبط وحيها، ومنطلق دعوتها.
* هى مع ذلك، وقبل ذلك، ثقافة إسلامية بلا ريب.
* بحكم الأهداف التي تتوخاها، والحوافز التي تدفعها.
* بحكم الفلسفة والتصورات التي تحركها وتفجر طاقاتها.
* بحكم الأجناس والعناصر الإسلامية المختلفة التي شاركت فيها عربا وعجما.
* بحكم الرقعة الواسعة التي كانت مجالا لها من الصين شرقا إلى شواطئ الأطلسى غربا.

وبذلك يقرر الدكتور القرضاوى بأنه من الأصوب أن نقول ثقافة عربية إسلامية وحضارة عربية إسلامية، ويزداد في رأيه هذا الأمر وضوحا عندما نبين مكونات هذه الثقافة. وهى الإسلام، والعربية، والقيم والمفاهيم المتوارثة والمتراكمة على مدار التاريخ.

ويحلل تأثير الدين على أبنائه وسلطانه المتغلغل في نفوسهم، ويؤكد القول بأن نصارى العرب ثقافتهم عربية وعقيدتهم نصرانية ولا تعارض في ذلك. ويقول بأن صلة الدين

---

(٩٥) د. يوسف القرضاوي ــ الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة ــ ندوة الثقافة العربية، الواقع وآفاق المستقبل، ١٢ ــ ١٥ أبريل ١٩٩٣م ــ كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية ــ جامعة قطر ــ الدوحة.

بالثقافة ليست خاصة بالثقافة الإسلامية، فكل الثقافات مدينة للأديان في تكوينها وتوجيهها، سواء كان هذا الدين سماويا أو وضعيا، حقا أم باطلا، كما هو واضح في ثقافات الشرق والغرب. والثقافة الغربية على سبيل المثال -كما يرى القرضاوى- هى نبت الديانة المسيحية، بعقائدها وتصوراتها ومواريثها وتقاليدها المختلفة. ويستشهد القرضاوى بقول "ت.س.إليوت" في تأثير العقيدة المسيحية في الثقافة والحضارة الأوروبية حيث يقول "إليوت": في المسيحية نمت فنوننا، وفي المسيحية تأصلت -إلى عهد قريب- قوانين أوروبا. وليس لتفكيرنا كله معنى أو دلالة خارج الإطار المسيحى. وقد لا يؤمن فرد أوروبى بأن العقيدة المسيحية صحيحة، ولكن كل ما يقوله ويفعله ويأتيه من تراثه في الثقافة المسيحية، ويعتمد في معناه على تلك الثقافة. وما كان يمكن أن تخرج "فولتير" أو "نيتشة" إلا ثقافة مسيحية. وما أظن أن ثقافة أوروبا يمكن أن تبقى حية إذا اختفي الإيمان المسيحى اختفاء تاما، ويؤكد "إليوت" بأن اقتناعه بذلك ليس إلى كونه مسيحيا بل إنه مقتنع به أيضا بوصفه دارسا لعلم الاجتماع. ويقول: إذا ذهبت المسيحية فستذهب كل ثقافتنا، وعندئذ يكون عليك أن تبدأ البداية المؤلمة من جديد، ولن تستطيع أن تلبس ثقافة جديدة جاهزة. يجب أن تنتظر حتى ينمو العشب ليغدو الضأن ليعطى الصوف الذي سيصنع منه رداؤك الجديد. ويعقب القرضاوى على قول "إليوت" بأن مثل ذلك يقال في تأثير الهندوسية في ثقافة الهند، والبوذية في ثقافة الصين وكوريا وغيرهما؛ بل يذهب القرضاوى إلى القول بأنه لا ثقافة بغير دين، أيا كان هذا الدين. حتى الذين جحدوا الدين وحاربوه نظريا وعمليا، كالماركسيين، لم يسعهم إلا أن يضعوا للناس دينا جديدا، يقوم مقام الدين القديم، إلهه المادة ونبيه ماركس، وجنته الشيوعية الموعودة، وشيطانه الرأسمالية، إلى آخر ما نعرف من مبادئ وطقوس لهذه الديانة التي أطلق عليها في أحيان كثيرة عبارة أديان بغير وحى. أما عن المكون الثاني للثقافة العربية الإسلامية وهو اللغة العربية عند القرضاوى فإنه يرى أن اللغة العربية ممزوجة بالقرآن مزجا. ومن هنا نجد محاولات أعداء الإسلام تفريغ اللغة من هذه الظاهرة الأصيلة فيها وعزلها عن القرآن والسنة. كما ترى ذلك واضحا في المعجم المعروف باسم "المنجد" الذي تعمد حذف كل استشهاد بالقرآن أو الحديث في أية مادة لغوية. وكذلك كانت الدعوة إلى العامية بذرة بذرها أعداء الأمة العربية من المستشرقين والمبشرين والأجانب ومن تبعهم ليعزلوها عن لغة القرآن والسنة والتراث الإسلامي كله. كانت محاربة العربية هدفا. فعل ذلك

"دنلوب" في نظام التعليم في مصر. وكان أكبر همهم في البلدان الإسلامية التي تكتب لغتها بالحرف العربي إلغاء الحرف العربي من الكتابة، وإحلال الحرف اللاتيني محله، كما فعلوا ذلك في "تركيا" وفي "ماليزيا" وفي بعض البلاد الإفريقية. وكان هَمُّ الحلم العلماني في "تركيا" تفريغ اللغة التركية من الكلمات العربية التي تشغل منها حيزا كبيرا، لتوضع موضعها كلمات لاتينية، بدعوى أنها كلمات عالمية! وما ذاك إلا لأن الكلمات العربية لها تأثيرها وإيحاؤها في نفس كل مسلم، كما أنها تذكر أبدا بالقرآن والإسلام، وتؤكد دائما روابط الإخوة الإسلامية. ويستعرض الدكتور القرضاوى خصائص الثقافة العربية فيما يلي:

١ الربانية: بمعنى أن الوحدانية الخالصة والتوحيد الخالص نجدهما في شعرها ونثرها وعلمها وفلسفتها ومختلف أوجه فكرها وفنها.

٢ الأخلاقية: كانت الأخلاق النبيلة مثل الكرم والشجاعة وما شابه ذلك من القيم القديمة عند العرب قبل الإسلام. ثم جاء الإسلام فعمق هذه القيم ووسع دائرتها وربطها بأهداف أرحب وأرقى. ووصلها بفكرة الإلزام والجزاء في الدنيا والآخرة. ولا تعترف الثقافة العربية الإسلامية بتجزئة الأخلاق. أخلاق لمعاملة المسلمين، وأخرى لغير المسلمين. فالخير خير للجميع والشر شر على الجميع. ولا تعترف بأن الغاية تبرر الوسيلة.

٣ الإنسانية: من خصائص هذه الثقافة احترام الانسان ورعايته ورعاية كرامته وحقوق الانسان، فهى تقوم على اعتبار أن الانسان مخلوق مكرم من ربه لقوله تعالى في القرآن الكريم: (ولقد كرمنا بنى آدم) "سورة الإسراء آية ٧." لذلك فالثقافة العربية الإسلامية تقوم على تكريم الإنسان من حيث هو إنسان بغض النظر عن جنسه أو لونه لغته أو موطنه أو طبقته.

٤ العالمية: ومادامت ثقافة لكل إنسان فهى ثقافة عالمية المنزع والوجهة، وهذا ما حدث في بناء الحضارة الإسلامية لقد اشترك فيها عرب وعجم ومسلمون ونصارى ويهود.

٥ التسامح: من أهم وأقوى دلائل التسامح هو الاعتراف بالآخر، بمعنى أن اختلاف البشر في الأديان وغيرها واقع بمشيئة الله تعالى وبحكمته.

٦ التنوع: من خصائص هذه الثقافة (التنوع)، فهي ليست ثقافة دينية " لاهوتية"، بل هي ثقافة واسعة متنوعة فيها الدين بفروعه وعلومه واللغة والأدب والفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضية والإنسانية والفنون المختلفة.

٧ الوسطية: يكمل خصيصة التنوع خصيصة أخرى هي الوسطية أو التوازن. فهذه الثقافة تمثل المنهج الوسط للأمة، بين إفراط الأمم المختلفة وتفريطها.

٨ التكامل: التكامل فيما بين جوانبها والتكامل مع الثقافات الأخرى. فهي لا تدعي أنها تنشئ كل شيء من الصفر، بل إن النصوص القرآنية تبين أن المؤمن هو كل من آمن بالرسالات السابقة على محمد وأن شرط إسلامه هو الإيمان بالرسالات السابقة؛ لذلك كان طبيعيا أن يقتبس المسلم الحكمة والعلم النافع من أي وعاء خرجت وحيثما كانت.

ومن صور تكامل جوانبها المختلفة أن الثقافة اللغوية تخدم الثقافة الدينية. وهي تغذى الثقافة الإنسانية. وكل ذلك تستفيد منه الثقافة العلمية. وعندما تناولت الخطة الشاملة للثقافة العربية تحديد الأهداف، والمبادئ الأساسة لها، استقت هذه الأهداف والمبادئ في طابعها المثالي من خمس منابع هي التي أملتها:

* الإسلام بوصفه دين الله القويم، ودين الحياة للناس تشريعا وقيما وفكرا.
* الهوية الحضارية في قيمتها الثابتة وتراثها عبر التاريخ: بوصفها عنصر التميز للثقافة العربية بين الثقافات العالمية.
* حاجات المجتمع العربي المعاصر والمقبل بوصفها أكثر الضرورات إلحاحا في التنمية وأقوى الدواعي إلى التجديد الثقافي والتحديث.
* تحديات المستقبل المتمثل في التطورات العالمية معارف وعلما وتقنية ومشاركة في العطاء الإنساني.
* دفع الجمود والعدوان سواء جاء من قوى محلية أم من الاستعمار والصهيونية.

وترتبط الأهداف مع المبادئ من جهة، ومع هذه المنابع من جهة أخرى ارتباطا عميقا متينا لتشكل مجموعة أيدلوجية واحدة متماسكة العرى، وليترتب عليها عدد من

المنطلقات والسياسات الثقافية والقطاعية[٩٦].

وهكذا نرى أن الركن الثاني من أركان الأساس الفلسفي والفكرى والعقدى لاستراتيجية المواجهة هو التحديد الواضح لهوية الثقافة العربية.

أما الركن الثالث فهو الوحدة الوطنية.وما أكثر الشواهد التي تؤكد العلاقة العضوية بين الوحدة الوطنية والأساس الاستراتيجي لمواجهة الغزو الثقافي. ولو تأملنا ذلك التحليل التاريخي لتبين لنا عمق الرابطة. يقول الدكتور يونان لبيب رزق:

إن المصريين استقبلوا انتشار النشاط التبشيرى الذي واكب الاحتكاك الأوروبي بمصر في أواخر القرن الثامن عشر بمنتهى الحساسية، وبرغم ذلك كان اتهام الغرب للمصريين بالتعصب. ويمضى الدكتور يونان[٩٧] قائلا:

"ومعلوم أن لبنان ومصر كانتا أولى البلاد العربية التي عرفت النشاط التبشيرى، غير أنه لما كان قد حدث في الأولى بالأساس داخل المجتمع الماروني. ذى العلاقة الضاربة مع أوروبا فإنه لم يثر من ردود ما أثاره في مصر.

ويلفت النظر هنا أن رد الفعل لم يقتصر على المسلمين بل امتد أيضا إلى الأقباط، ويروى لنا القس واطسون أحد رجال الإرسالية الأمريكية في مصر، واقعتين تدللان على هذه الحقيقة في كتابه تحت عنوان "الإرسالية الأمريكية في مصر ١٨٥٤ – ١٨٩٦".

الواقعة الأولى اتهم فيها الأقباط بالتعصب والذي تطور، كما قال، إلى "صدام مكشوف عام ١٨٦٥ عندما أرسل جون هوج (مبشر أمريكى) لإنشاء مركز دائم في أسيوط، فذهب أحد المطارنة الأقباط إلى المدينة محذرا من الهراطقة أصحاب البدع وتعاليمهم".

الواقعة الثانية اتهم فيها المسلمين حين أشار إلى حادثة جرت عام ١٨٦١ قال عنها إن "المتعصبين المسلمين" قد قبضوا على وكيل الإرسالية الأمريكية في أسيوط بتهمة محاولة إغراء سيدة مسلمة على اعتناق المسيحية، ولم يطلق سراحه إلا بعد تدخل القنصل الأمريكي".

---

(٩٦) الخطة الشاملة للثقافة العربية (مرجع سابق) ــ المجلد الثاني ــ ص ٢١.

(٩٧) د. يونان لبيب رزق ــ ملف الإرهاب ــ قراءة عربية ــ المتعصبون ــ مجلة المصور بتاريخ ١٩٩٢/٥/١٥م ص ٢٨.

هذه الوقائع التاريخية الثابتة تبين لنا أن الغزو الثقافي الأمريكى والأوروبى لمجتمعاتنا العربية كان شاملا للمسلمين والمسيحيين، وهذا ما يؤكد أساس استراتيجية المواجهة في كونها تحشد وحدتها الوطنية والقومية. وتبقى حوادث التاريخ شاهدا على أن الغزو الغربى لا يصيب طائفة منهم خاصة سواء كان عسكريا أو ثقافيا.

ب ـ **الأساس التخطيطي والتطبيقي والتنفيذي:**

في هذا الأساس تقوم الأعمدة الثلاثة –التخطيط والتطبيق والتنفيذ – متلاحمة ومترابطة، ولكن يستقل كل عمود من الأعمدة الثلاثة بشيء من الاستقلال، وهى تختلف في طبيعتها عن التوازى الذي يشكل طبيعة الأساس الفلسفي أو الفكرى أو العقدى، فهذه الثلاثية متوازية ومتحدة وأي منها يعنى الآخر أو يعنى الآخرين.

ومفهوم الخطة يشير إلى التنظيمات والترتيبات التي سبق تحديدها والتي تسعى إلى تحقيق أهداف معينة ومحددة. ومن هذا المفهوم لمصطلح الخطة نجد أنه يتضمن عنصرين أساسيين:العنصر الأول هو وجود أهداف معينة محددة تسعى الخطة لتحقيقها والعنصر الثاني هو وجود تنظيمات وترتيبات تم اختيارها وتقررت لتحقيق الهدف.

والتخطيط الثقافي لمواجهة الغزو الثقافي وتنمية الاتصال الثقافي يعنى حصر الواقع القومى ومعرفته ثم تحديد الأهداف ثم اختيار أنسب الوسائل لتحقيقها ثم متابعة ذلك وتقييمه بين الحين والآخر، حتى يمكن التأكد من سلامة تحقيق الخطة لأهدافها. وحتى يمكن إجراء التعديل إذا لزم الأمر واستجدت ظروف لم تكن في الحسبان، وحتى يمكن وضع خطط جديدة متتابعة مستمرة.

في المجال الثقافي العربي يحدث التخطيط على مستويات متعددة. فردية، ومحلية، ووطنية، وقومية. وفي مجال الغزو الثقافي تعد الخطط القومية الأولى بالرعاية والاستبصار والأخذ منها للخطط المحلية وخطط المؤسسات بل وخطط الأفراد.

وعندما ننتقل إلى الجهود القومية لتحديد الأساس التخطيطى والتطبيقى والتنفيذى لاستراتيجية مواجهة الغزو الثقافي بصفة خاصة لحماية الثقافة العربية بصفة عامة، نجد جهود جامعة الدول العربية تمثل جهودا متوالية متصلة الحلقات عبر ما يقرب من نصف قرن من الزمان هو عمر الجامعة. منذ تأسيس جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥ ودور

الثقافة حاضر في أروقتها. وكانت إدارة الثقافة من أبرز إداراتها منذ التأسيس. بل إن الاتفاق الثقافي العربي كان أول اتفاق وقع في تاريخ جامعة الدول العربية. وعقدت عشرة مؤتمرات للثقافة العربية فيما بين عامي ١٩٤٧م و١٩٧٠م. وأنشأت الجامعة مؤسسات ثقافية على المستوى القومي أهمها معهد المخطوطات العربية عام ١٩٥١م، ومعهد الدراسات العربية العليا عام ١٩٥٤م.

وفي عام ١٩٦٤م وقع ميثاق الوحدة الثقافية العربية. وفي عام١٩٧٠ م أنشأت الجامعة العربية منظمة متخصصة للثقافة هي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وضمت إليها المؤسسات المرتبطة بالعمل الثقافي في جامعة الدول العربية.وهي الإدارة الثقافية،ومعهد المخطوطات العربية، ومعهد الدراسات العربية العليا،وأوكلت إلى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم مهمة العمل على تنفيذ ميثاق الوحدة الثقافية العربية.

وكان مؤتمر الوزراء العرب المسئولين عن الثقافة في الدول العربية عام ١٩٧٦م والذي تضمن بيانه مسلمات ومبادئ وتوصيات تتعلق بالثقافة العربية، خطوة متقدمة للنشاط الثقافي لجامعة الدول العربية. وكان هذا المؤتمر تمهيدا لظهور الخطة الشاملة للثقافة العربية عام ١٩٨٦م.

والخطة الشاملة للثقافة العربية التي صدرت في عدة مجلدات تحوى التقرير النهائى للجهد الجماعى الذي قامت به لجنة مختارة للإعداد، كما تحوى البحوث التي كتبها متخصصون في جوانب الثقافة العربية المعاصرة، وتحوى أيضا الندوات والحلقات البحثية حول الجوانب المعاصرة للثقافة العربية.

اختص المجلد الأول من الخطة بدراسة شاملة حول مبررات الخطة، ومنهجها. وتبويبها، وأسس عملها ووسائله. والهوية الثقافية العربية، باعتبار الثقافة مستودع الهوية والأصالة القومية. والقيم العربية الإسلامية التي تتميز بها الثقافة العربية. والهوية الثقافية العربية في العصر الحديث. وكان المجلد الثاني عن التوصيات وعن المبادئ الأساسة للخطة. أما المجلد الثالث فهو أضخم مجلدات الخطة، وقد طبع في ثلاثة أقسام، كل قسم منها يزيد عن المجلد الأول أو المجلد الثاني. وفي الأجزاء الثلاثة من المجلد الثالث طبعت البحوث والندوات.

والخطة الشاملة للثقافة العربية مصدر للمشتغلين بالثقافة العربية فياضا وموحياً ومباشرا برغم التحفظات والنقد الذي لا بد منه في مثل هذا العمل الجماعي الكبير، وحبذا لو نشرت المقالات التي تناولت الخطة بالنقد في طبعاتها القادمة. وأهم ما يمكن الإشارة إليه في هذا الأساس هو أهداف الخطة، فقد حددت الخطة الشاملة للثقافة العربية أهدافها في ستة أهداف رئيسة هي:

* إغناء شخصية المواطن العربي لتأكيد وعيه بعقيدته وبذاته وبحريته وكرامته، وقدرته على مواكبة التطور الإنساني المعاصر، والمشاركة الفعالة فيه. إن الإنسان يأخذ من الثقافة ويفيد منها بقدر غناه الداخلي بعناصرها، ويعطي منها بقدر قواه الإبداعية، وهذان الأخذ والعطاء هما أساس الحيوية الثقافية للأمة.
* تطوير البنى الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في الوطن العربي بوصفها ركن البناء الحضاري، فالثقافة ليست كيانا مغلقا على ذاته بل هي تفاعل دائم مع ما يحيط بها. والعلاقة بين الثقافة والاقتصاد والاجتماع تجعل الثقافة مؤثرة في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع، متأثرة بها، في دورة متصلة من التأثر والتأثير.
* إبراز الهوية الحضارية العربية الاسلامية، وتنميتها والمحافظة عليها بوصف الثقافة مستودع الأصالة. فالتراث الثقافي العربي الإسلامي كنز واسع من الخبرات والقيم والعطاء الحضاري والمادي والمعنوي المكتوب والشفوي، كما أنه الأساس الذي تقوم عليه الهوية الثقافية للأمة، والجذر الذي يغطي طاقاتها الإبداعية، وثقتها بنفسها، ويلهم تطورات المستقبل. إن الشخصية الأساسية للأمة إنما تكمن وترتسم كل خطوطها في التراث الذي يجب أن يكون واقعا متفاعلا لا ماضيا متحجرا، وقوة دفع لا قوة جذب، ومصدر ثقة لا نموذج تقليد.
* تأكيد الوحدة بين أقاليم الوطن العربي، وزيادة أواصرها. فالثقافة العربية هي النسيج المكون لرابطة التآخي بين العرب، وهي السند المرجعي فيها، ولولاها دينا ولغة وتاريخا وآمالا لكان الوطن العربي أجزاء متفرقة وكان له مصير آخر.

* التحرر القومي بوصف الثقافة عنصرا للتبعية والاستيلاب والتشويه، بقدر ما هي عنصر بناء وإبداع وتأكيد للهوية، فالكوارث التي أخذت تنهال على الأمة العربية وبخاصة في العقود الأخيرة مع الغزو الصهيوني جعلت من الثقافة الحصن الأخير للدفاع وجعلت الأمن الثقافي بين الأوليات الأساسة في الاهتمام.
* تنمية العطاء الحضاري قوميا وإنسانيا بوصف الثقافة مصدر إبداع وعطاء وسبيل تعاون مع مختلف الثقافات العالمية. وما من أمة تستطيع العيش في هذا العصر في عزلة حضارية والأخذ والعطاء هما سمة هذا العصر الحديث وقانونه أكثر من أي عصر مضى، لاتساع وسائلهما وقيام الحاجة إليهما.

هذه الأهداف الرئيسية للخطة لحقت بها المبادئ الأساسة التي توجه هذه الخطة. وهي على النحو التالي:

١ – تقوم الخطة الشاملة للثقافة العربية على مجموعة من المبادئ تعتبر بمثابة الأسس والأركان لها، وهي رغم تشعبها وشمولها مناحي شتى من الحياة مبادئ متلازمة بعضها مع بعض تشكل في مجموعها إطارا فكريا للخطة المقترحة.

أولا: إن الثقافة هي من إبداع الشعب الذي ترتبط به وتعود إليه. وحياة الشعب هي المنبع الأساس لكل إبداع ثقافي ولكل استمتاع، وهي تستمد قوتها وإبداعها، وتطورها المستمر، من الحياة النابضة بالحيوية للمبدعين فيها، كما تستمدها من إدراك المستفيدين والمتمتعين بها. وكلما زاد التجاوب بين الطرفين عمقا وسعة وتفاعلا كان ذلك من دلائل الأصالة، والارتباط بالثروة الثقافية الموروثة، وبالهوية الثقافية وبنموها وتجددها.

ثانيا: إن الثقافة هي ما يميز أمة من غيرها؛ لذا فإن تنمية الثقافة العربية تنمية تميز أبناءها والعاملين عليها وتعطيها دورها الخاص في النشاط القومي والإنساني، هو أحد المبادئ التي تقوم عليها الخطة.

ثالثا: حق الإنسان في اكتساب الثقافة، وفي حرية التعبير عنها والتمتع بها. وهذا يعني تفتيح الآفاق للمبدعين، والالتزام بنشر إنتاجهم للجماهير الواسعة، فلا منة في العملية الأولى ولا تكرم المتفضل في الثانية.

رابعا: إن عملية التخطيط التنموي عملية متكاملة شاملة. وهذا يعني ان الثقافة بعد

أساسى من أبعاد التنمية، وعلى علاقة تأثير متبادل وعضوى مع نواحى التنمية الأخرى. ولا يتم تطوير البنى الاجتماعية والاقتصادية إلا بالاستناد إلى تخطيط ثقافي جذرى يحـــدد طرق العمل ووسائله، كما يحدد الأهداف المستقبلية للأمة.

خامسا: إن التراث الحضاري الإسلامي هو الركن الأساس في تكوين الثقافة العربية والنبع الأصيل فيها عقدة وقيمة وتشريعاً، وهو الذي يميزها عن غيرها مـــن الثقافـــات الانسانية. وإذا كان تراث الإسلام هو أهم ما تمخضت عنه العبقرية العربية وأعظمهـــا، فالإسلام بدوره قد منح العروبة وجهها الخاص بين الثقافات الأخرى، ومكنها من العطاء ومن العالمية في السمات.

سادسا: إن الصلة بين اللغة العربية والفكر الإسلامي تفوق كل صلة بين أية لغة وأي تفكير تعبر عنه تلك اللغة. ذلك أن الجزء الأساس في الدين الإسلامي لا يقع سليما دينيا إلا إذا أدى باللغة العربية. وفي مقدمة ذلك العبادات. والقرآن الذي أنزل بلسان عربى مبين، والذي لا يمكن أن تكون ترجمته هى القرآن المتعبد بكلماته. وهكذا فـــإن الفكـــر الإسلامي هو قوام رئيس للثقافة العربية، أثر في كل اتجاهاتها الفكرية مـــن الفلـــسفة إلى الطب والفلك، وفي ألوانها الفنية من العمارة إلى الزخرفة وفي أنواعها الأدبية من الشعر إلى المقامة.

وقد كان للعلماء المسلمين، من كل الجنسيات، وما يزال عطاؤهم في أركان المعمورة في كل المجالات. وهذا العطاء يصب في النهاية في الثقافة العربيـــة، ويزيـــد في خـــصبها وعالميتها.

وتراث الإسلام، وإن كان تراثا مشتركا لعدد من الشعوب الإســـلامية، إلا أنـــه في الدرجة الأولى تراث عربى مشترك لكل من آمن به، أو أسهم فيه، أو تبناه مـــن أبنـــاء العروبة، أيا كان أصله، أو انتماؤه الديني، أو تعبيره اللغوى المحلى.

٢ــ يبقى بعد هذا أن نضيف خمسة مبادئ أساس أخرى:

أولها : ديموقراطية الثقافة، وتعنى الحق الإنسانى في المشاركة الفرديـــة والجماهيريـــة الواسعة على السواء، في مجال إنتاج الثقافة والإفادة منها، باعتبار أنها إمكان في الإبداع مفتوح للجميع وغذاء مباح للجميع. وفي تراث المجتمع العربي وتقاليده ما يؤكد حرصه

على أن تكون الثقافة جهدا يقوم على المشاركة الجماعية، في مجالي إنتاجها، والإفادة منها ولا يكفي إيصال الإنتاج الثقافي إلى المواطنين، بل من الخير تمكينهم من إبداء رأيهم فيما يقدم إليهم منه، إغناء للثقافة ذاتها.

إن ديموقراطية الثقافة شرط أساس من شروطها سواء في الإبداع الذي لا تضمنه إلا الحرية الكاملة في التعبير، أم في الاستمتاع الذي تتساوى فيه فرص التمتع بالثقافة دون تميز في العرق أو الجنس أو اللغة أو المكانة الاجتماعية، غير أن ديموقراطية الثقافة وحريتها تحتملان الكثير من التعقيد عند التطبيق؛ لأن رسم الحدود بينها وبين القيود التي لا بد من وجودها حولها، أي الجمع بين مبدأ الحرية وبين التقنين لها مشكلة تعترض كل الأنظمة العالمية، وتشكل واحدا من همومها، ومازال تدخل الدولة في الثقافة يساء استغلاله بدرجات متفاوتة من بلد إلى آخر، وإذا كانت أنظمة الهيمنة الجماعية تسيطر على المبدعين الثقافيين بحجة الحفاظ على أهداف المجتمع وتيسر للجماهير ما ترى أنه يخدم تلك الأهداف، فالأمر في النظم الأخرى قد ينتهي إلى ترك الثقافة للتسلط التجارى والربح، والوصول إلى الصيغة التي تجمع بين مزايا الحرية والقيد، أمر لازال الاختلاف حوله قائما، ويصعب الحسم فيه، إلا أن تحديد ما هو أساس وجوهرى في ثقافتنا يسهم في حل هذه المعضلة وفي ضمان الحرية الثقافية.

٣ــ ومن ناحية أخرى فإن ديموقراطية الثقافة تعنى ديموقراطية المجتمع كله. وتتطلب التفاعل الحر بين مختلف القوى الاجتماعية، ويظل الأساس هو تشجيع العملية الإبداعية وتغذيتها على أوسع نطاق ممكن، وتشجيع عملية الانتفاع بأفضل الأنشطة الثقافية لأكبر عدد، والمشاركة الجماهيرية في اتخاذ القرارات بشأن الحياة الثقافية، والتوسع المستمر دون انقطاع في هذه العمليات الثلاث، وهذا يتطلب ارتياد سبل جديدة للديموقراطية عن طريق تكافؤ الفرص في مجال التربية والتعليم والثقافة، واللامركزية في النشاطات الثقافية جغرافيا وإداريا.

ثم إن من العقبات في مجال ديموقراطية الثقافة ما يكمن في النزعة البيروقراطية التي قد تسيطر على العمل الثقافي فتعزله عن اهتمام الجماهير، كما تكمن في احتكاره.

٤ــ المبدأ الثاني الأساس هو: قومية الثقافة: فالثقافة تراث قومى قبل أن يكون إنسانياً، وإبداعها عطاء قومى بالإضافة إلى أنه إنسانى، وقومية الثقافة تعنى أولا

العطاء على المستوى القومي والنشر الثقافي على المستوى نفسه أيضا، كما تعنى ثانيا التكامل بين الأقطار العربية فالتكامل يسمح بالتنوع، وتعدد الألوان الثقافية وتساندها، كما أن التكافل يفتح آفاقا لنقل الخبرات وإغنائها، وللتعاون في البناء الثقافي الموحد، وأخيرا فإن قومية الثقافة تعني أن الثقافة العربية واحدة موحدة، وأن لغتها هي العربية. وإن تراثها هو ذلك التراث العريق الأصيل الموروث الذي يجده كل عربي في داخل ذاته بشكل عفوي.

٥ــ على أن قومية المعرفة والثقافة لا تكون كاملة إلا بالتكافل القومي العربي، أخذا وعطاء، لتنمية الثروة البشرية العربية، وتكوين القدرة العربية العامة، ويبرز ذلك بخاصة في ثلاثة مجالات ذات شأن خاص بالنسبة للثقافة العربية:

أ) في مجال حقوق المواطنة القومية وواجباتها، وهو حق يتصل بحق الأطفال العرب وواجبهم في التعليم الأساس، وحق الأميين في أبجديتهم، وتأهيلهم وتحويلهم من أرقام سكانية، إلى قوى اجتماعية منتجة ومشاركة، وهذا يعني مشاركة رأس المال العربي المادي في إعداد رأس المال العربي البشري، باستكمال القدرات القطرية العربية على مواجهة استيعاب المستحقين للتعليم.

ب) في مجال إعداد القدرات العلمية والفكرية: بتأمين الدراسات العليا وتكوين الباحثين العلميين في إطار قومي، لإيجاد القدرات العربية الذاتية في مجال العلوم والتقنيات، وتأصيل القيم وإبداعها. وذلك:

– بتكوين القياديين ضمن المناخ العربي في جامعة عربية للدراسات العليا والبحوث، فإنشاؤها تجسيد لقومية المعرفة.

– بتدريس التعليم العالي بالعربية فإن ذلك يؤصل العلم والتقنية في هذه اللغة تعليما وفهما وإنتاجا وبحثا ويسمح لها بالتطور.

– بتدبير الأسباب الدافعة لهجرة الكفايات وإدماجها ضمن تيار التنمية القومية الشاملة.

جـ) في مجال دعم اللغة العربية ونشر الثقافة الإسلامية: ومع أن هذا التوجيه القائم على مستويات مختلفة في المشاريع القطرية وفي الممارسات العلمية إلا أنه يحتاج إلى إرادة

جماعية تتمثل في خطة قومية شاملة. ويحمد للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أنها أنشأت جهازا متخصصا لهذه المهمة القومية، هو "جهاز التعاون الدولى لتنمية الثقافة العربية الإسلامية" وأقامت له صندوقا خاصا، وجعلت له مجلس أمناء ومجلس إدارة يسهران على وضع مشروعات نشر اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية خارج الوطن العربي، يتم تمويلها بإسهام عربى طوعى من كل حكومة أو هيئة أو مؤسسة أو شخص قادر على ذلك، كما يحمد للمنظمة العربية أنها أنشأت مؤسسة الموسوعة العربية التي ستصدر موسوعة تتيح للقارئ أن يطلع على ما توصل إليه الفكر الإنسانى في جميع حقول المعرفة، قديمها وحديثها، بلغة عربية مبينة.

٦ــ ولا تعنى قومية الثقافة في كل هذا أي مفهوم عربى، أو تعصب أعمى، أو تعال على الشعوب الأخرى، وإنما تعنى العنصر الثقافي التعبيرى المميز لهذه الثقافة والذي كان وما يزال، يجمع شتات الأمة، ويحدد ذاتيتها، ويشكل هويتها الحضارية التي تميزها عن غيرها من الأمم.

إن قومية الثقافة لا تنفي تعدد الأصول المكونة للأمة. أو تنويع اللهجات اللغوية، أو طرق التعبير للمشاركين فيها. ولكن تعنى أن الدائرة الثقافية العربية هى التي تجمع الجميع وتوحدهم، كما تعنى أنها تعتبر أصحاب هذه الأصول أو اللهجات بعضا من مصادر الغني والخصب فيها، وتعتبر نفسها المعبر عن إنتاجهم تجاه الثقافات الأخرى.

٧ــ المبدأ الثالث هو:

تحديث الثقافة: بمعنى الارتباط بتطورات اليوم والغد، واستيعاب تيارات العصر ومواكبة تحولاته عربيا وعالميا في التحديث والانفتاح مع الحفاظ على الأصالة والهوية الحضارية العربية والقيم الروحية والفكرية للأمة. بمعنى أن التراث لا يجب أن يكون قيدا، ولا يمكن أن يكون. وثمة ثوابت في التراث الثقافي وثمة متغيرات. وتحديد الثابت والمتغير وإن كان مهمة صعبة إلا أنه مهمة دائمة عبر العصور لكل ثقافة، كما أنه مهمة واجهتها جميع الثقافات المتجددة وانتصرت عليها. إن ذلك وحده يثبت حيوية الأمة وأصالة إبداعها الثقافي. ومن جهة أخرى، فإن التراث نفسه في تغير دائم مستمر ولاسيما التراث الشفهي منه والتصويري والموسيقى والحرفي واللهجات اللغوية وأساليب الأدب والفكر وأذواق الجمال.

٨ــ والتحديث ليس صفة تلصق بالثقافة، ولا مجرد نقل للأشياء أو الطرائق أو لتيارات الحديثة، ولكنه دخول بها في ضمير العصر، وتجاوب مع مده وجزره وأجوائه، وإبداع يأخذ الزمن بعين الاعتبار، كما يستفيد من تراكم المعرفة الهائل في توسيع الآفاق، ومن تقدم التقنية في الوسائل الإبداعية.

٩ــ ومشكلة التحديث تثير أمام الثقافة العربية (والثقافات العريقة الأخرى مثلها) مسألة إثراء ذاتها بالعلم والتقنية، دون التضحية بشخصيتها الخاصة، فثمة فجوة تزداد اتساعاً وعمقاً باطراد بين وتيرة التسارع التحديثي في هذه الثقافات، وبين وتيرة التقدم العلمي والتقني المتزايدة في السرعة، وردم هذه الفجوة اليوم من أكثر الحاجات إلحاحا على الثقافات العريقة، كما أن التخطيط لردمها هو من أبرز مشاكل العصر الحديث، لأن هذا التخطيط يجب أن يتصدى للمهمة الصعبة في إقامة التوازن بين التأثر والأصالة، بالعمل على استيعاب التطورات التقنية جميعا على أسس إبداعية لا تقليدية، وبأن يحقق التحولات الثقافية، من خلال السمات القومية المميزة، وأن يأخذ بعين الاعتبار الحدود الحرجة القائمة بين الاقتباس والتبعية، وبين اكتساب الأسس المعينة والحفاظ على الهوية الثقافية.

١٠ــ المبدأ الرابع هو:

عالمية الثقافة: بمعنى أن الثقافة العربية متفاعلة مع الثقافات الأخرى وتشارك المشاركة الإيجابية المتفتحة أخذا وعطاء في تقدم الحضارة الإنسانية. فالشعوب كانت ولا تزال تستعير بعضها من بعض، ويغنى بعضها بعضا بالتبادل، وقد كان ذلك على الدوام من تقاليد الفكر العربي. وثقافة الغد لأية أمة لا يمكن أن تكون إلا ثقافة مولدة تستمد عناصر كثيرة فيها من الثقافات الأخرى في الوقت الذي تحتفظ بسماتها الخاصة وهذا هو المعنى الجديد للعالمية الثقافية، فهي لا تعني الثقافة الواحدية النمطية ولكن عالمية الأفكار،

والأسس، وتنوع السمات والتعبير والوسائل.

وقبول عالمية التأثر والتأثير لا يعني التبعية الفكرية، كما يرفض الاستلاب، والاحتواء، والتغريب، ومظاهر الخنق الثقافي، التي تقوم بها القوى الاستعمارية الحديثة أو الصهيونية في فلسطين.

١١ــ أما المبدأ الخامس هو:

إنسانية الثقافة: بمعنى أن للثقافة العربية خصائص ومثلاً وقيماً وآفاقاً إنسانية متفردة، تجرى فيها مجرى العناصر المكونة، فالأخوة، والعدل، والمساواة، والسلام، والحرية، وحق العلم، والتسامح، والتكافل، واحترام العقل، وكرامة الإنسان والتفكير في الكون، ورفض الظلم والعدوان، بديهيات أساسة في ذاتيتنا الثقافية، وفي تراثنا الروحي والفكري. وهذه العناصر الإنسانية، قادرة على الإسهام في إقامة نظام ثقافي دولى جديد. ذلك أن التحديات التي تشكل أزمة العالم المعاصر، وتثير الكثير من قلقه ليست اقتصادية أو سياسية فحسب ولكنها إلى جانب ذلك تحديات ثقافية، ولأن التوترات والحروب تنشأ أولا في الأفكار والرؤوس، وتزول أو ما تزول منها، ولأن الأزمة في داخلنا، فإن باستطاعتنا وضع حد لها، وتحويل قيمنا الفكرية إلى مذهب إنساني شامل رشيد، يقوم على الإقرار بوحدة البشرية، في إطار تعدد شعوبها وثقافاتها، وعلى مبادئ المساواة والحرية والتكافل، وعلى إرادة التعايش المشترك، والتضافر لصياغة المصير البشرى الواحد. من مجمل أهداف الخطة ومجمل المبادئ العامة التي توجهها يمكن على المستوى القطري تحديد أهداف الخطط الوطنية للبلدان العربية، كما يمكن وضع إطار لمناقشة الخطط الثقافية المحلية، والسياسات الثقافية القطرية. ولقد نظر الباحث المصري السيد يسين[٩٨] نظرة إيجابية إلى الجهد الجماعي العربي في الخطة الشاملة للثقافة العربية، واجتهد في أن يصوغ للواقع الثقافي المصري نظرة تخطيطية للسياسة الثقافية، قائلا: إن مهمة الدولة في مجال صياغة نظرية لتخطيط السياسة الثقافية ليست هينة ولا ميسورة، فنحن

---

(٩٨) السيد يسين ــ نحو نظرية لتخطيط السياسة الثقافية ــ جريدة الأهرام ــ بتاريخ ٢٧-١١-١٩٨٧م.

نحتاج ــ من خلال حوار فكرى واسع المدى ــ إلى صياغة إجماع قومي حول طبيعة الدولة وأهداف المجتمع وهذا الحوار ينبغي في تقديرنا أن ينطلق من مجموعة مسلمات تكاد تكون هي المنطلقات التي بنيت عليها الخطة الشاملة للثقافة العربية:

١- حق الإنسان في اكتساب الثقافة وفي حرية التعبير عنها والتمتع بها.

٢- عملية التخطيط التنموي عملية شاملة والثقافة بعد أساسي من أبعاد التنمية الشاملة.

٣- التراث الحضاري الإسلامي هو الركن الأساسي في تكوين الثقافة العربية غير أن ذلك لا يعنى إهمال جوانب التراث المصري الأخرى فالتراث الفرعوني والتراث القبطي من المكونات الأساسية للتراث المصري.

٤- ديموقراطية الثقافة أي المشاركة الجماهيرية الواسعة في مجالي إنتاج الثقافة والإفادة منها.

٥- قومية الثقافة ونعنى بذلك أن الثقافة العربية واحدة وموحدة.

٦- عصرية الثقافة بمعنى تحديد الثابت والمتغير في الثقافة العربية الحالية واستيعاب تيارات العصر.

٧- إنسانية الثقافة بمعنى أن للثقافة العربية خصائص ومثلا وقيما وآفاقا قادرة على الإسهام في إقامة نظام ثقافي دولي جديد.

٨- عالمية الثقافة وهذا يعنى متابعة تقاليد الفكر العربي في التفاعل مع الثقافات الأخرى والمشاركة الإيجابية المتفتحة أخذا وعطاء في تقدم الحضارة الإنسانية.

٩- مسئولية الدولة والمؤسسات الشعبية في التخطيط الثقافي الشامل وفي توفير جميع الوسائل للتفتح الثقافي الحر.

ولم تقصر الجامعة العربية في مجال الثقافة الإسلامية، ولا في مجال الإعلام الإسلامي بإسهامها المتواصل. لقد قدمت جامعة الدول العربية ورقة عمل للمؤتمر الأول للإعلام الإسلامي بمكة المكرمة (شوال ١٤٠٠هـ سبتمبر ١٩٨٠م) ذكرت فيها أن الإعلام

الإسلامي ينبغي أن يتناول ثلاثة محاور أساسية وهي:

١- التعريف بالقيم والمبادئ الأساسية التي يقوم عليها الإسلام، وتقديم النماذج الإسلامية في الحياة الإنسانية ووجوه عطائه الحضاري، وما يميزه بشكل واضح يعين على الفهم والرؤية، والمساهمة الفعالة في مسيرة الحضارة الإنسانية على ضوء الإسلام ويهَدْي من تعاليمه السمحة.

٢- دراسة واقعنا الإسلامي بصورة موضوعية، وتحليل العوامل التي أدت بالمجتمعات الإسلامية إلى القعود والضعف والتخلف، وتحديد منطلقات الدفع لتصحيح مسار الأمة الإسلامية إلى الأصالة والتجديد والقوة والعطاء.

٣- التعمق في دراسة التحديات الحضارية المعاصرة للإسلام وللأمة الإسلامية، والتصدى في منهجية للحملات الإعلامية المعادية والمغرضة وبالخصوص في القضايا السياسية والدينية.

كما قدمت مقترحات للنهوض بالإعلام الإسلامي على النحو التالى:

- شمول النظرة في العناية بالإعلام المقروء من صحف ونشرات ومجلات وكتب، وبالإعلام المرئى والمسموع من إذاعة وتلفزيون وسينما ومسرح ورسوم، ونشرها في العالم الإسلامي على أوسع نطاق.
- شمول الإعلام الإسلامي للأقليات الإسلامية في مختلف الأقطار غير الإسلامية وبمختلف اللغات الحية ولغات العالم الإسلامي، ومزيد العناية بهم، وإعداد برامج إذاعية لهم، وإمدادهم بما يحتاجون إليه من كتب دينية ملائمة.
- تكوين مراكز ومعاهد عليا للإعلام الإسلامي يتخرج فيها متخصصون إعلاميون في أعلى مستوى علمى وفنى وتكنولوجى، وتشجيع البحوث والدراسات في رسائل الدرجات العلمية بالجامعات في مجال الإعلام الإسلامي، وذلك بالتعاون مع وزارات الإعلام والثقافة والتعليم.
- رصد الجوائز المشجعة للإنتاج الإعلامي المتفوق في مختلف فروع الثقافة الإسلامية توفيرا للمادة الإسلامية الإعلامية المتفتحة في مختلف المجالات بما في ذلك مجال الترفيه.

- إنشاء منظمة علمية للإعلام الإسلامي تكون مصدر إشعاع وتشريع وتوجيه، وتنبثق منها مؤسسات إعلامية مع دعم الوكالات الإسلامية للأنباء.
- نشر الإعلام الإسلامي في العالم على أوسع نطاق ممكن، حتى لا يبقى منغلقا على نفسه، وحتى لا يوسم بالتزمت والانعزالية وتطعيمه دوما بالثقافات المعاصرة التي لا تصادم مبادئ الإسلام ولا تخالف أصوله.
- وضع ميثاق الشرف للإعلام الإسلامي على أسس قومية، وفي مرونة تساعد على التطبيق، وتسمح باجتلاب أكبر عدد ممكن من الأقطار الإسلامية، وإن اختلفت مذاهبها، ونظمها السياسية والاجتماعية عملا بمبدأ التقريب بين المسلمين، وضمانا لنجاح الميثاق في أهدافه العليا وغاياته الأساسية.

ولقد وضعت منظمة إذاعات الدول الإسلامية تصورا للقضايا والموضوعات التي يمكن للإستراتيجية الإعلامية الإسلامية أن تطرحها على النحو التالي:

١- تحديد الأهداف الكبرى الرئيسية لأجهزة الإعلام الإسلامية.

٢- تصحيح النظرة إلى الإسلام وتنقية الفكر الإسلامي مما علق به من شوائب.

٣- المساهمة مع الأجهزة والمؤسسات المعنية في العمل على إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، والتعريف به بعد تخليصه من التشويه والتحريف.

٤- تسليط الأضواء على المعطيات الحضارية والثقافية والإنسانية للإسلام، وتوظيف قيمه في بناء الإنسان المسلم.

٥- إبراز عطاء الإسلام للحضارة الإنسانية واستمرارية قدرته على ذلك.

٦- كشف إفلاس الحضارة الغربية بشقيها الغربي والشرقي.

٧- إظهار إمكانات الإسلام على قيادة حركة الإنسان المسلم وترشيد مسيرة الإنسان المعاصر في عصر المعاناة والقلق والتمزق والذي لا مخرج منه - رغم التقدم المادى المذهل - إلا في ظل قيم الإسلام ومثله الإنسانية الرفيعة والواقعية، وفي ظل التوازن أو التعادلية التي تمثل سمة الإسلام، ومبادئ وتشريعات الإسلام.

٨- تعريف الشعوب الإسلامية ببعضها وتقوية وسائل الاتصال فيما بينها، من خلال منظمة إذاعات الدول الإسلامية ووكالة الأنباء وكافة وسائل الاتصال، فليس من المعقول أن يجهل المسلمون أحوال بعضهم، أو تعرف الخرطوم أخبار كمبالا مثلا عن طريق لندن أو نيويورك أو موسكو، وليس من المعقول أن تكون المسافة بين أية عاصمتين إسلاميتين أطول من نفس المسافة حين تمر بعاصمة أجنبية في أقصى المعمورة، أو كما قيل بحق فإن المسافة من أية عاصمة أوروبية إلى أية عاصمة إسلامية أقصر دائما – من الناحية الإعلامية – من نفس المسافة في الطريق العكسي.

٩- مواجهة سيطرة الدول المتقدمة على العملية الإعلامية وبصفة خاصة في النظام الحالي للاتصالات (صحافة – إذاعة – تليفزيون – وكالات).

١٠- إن حق الإعلام أحد حقوق الإنسان ولابد من مواجهة الاختلال الرهيب في التوازن بين أخبار ومعلومات العالم المتقدم وبين أخبار ومعلومات الدول النامية ومنها الإسلامية، ولقد نشر أن ثلاث أرباع البشرية تقريبا وأغلبه في العالم الإسلامي لا يحظى بربع التغطية الإعلامية.

ولا يخفي آثار ذلك في التعتيم الإعلامي على أنباء العالم الإسلامي وشعوبه وقضاياه ومشاكله وآماله، مع تلوينها حسب الأهواء والمصالح الاستعمارية، ومع تجاهل وتشويه أوضاع الأقليات والجاليات الإسلامية.

١١- لقد نقلت المنظمة في بيان لها في المؤتمر العاشر في فاس عن دراسة منشورة أن الدول المتقدمة تسيطر على ٨٥ – ٩٠% من أصل الطيف للذبذبات الإذاعية ولا أمل في تحسن ذى قيمة في وقت قريب.

إن بعض الإذاعات المتقدمة فضلا عن ذلك تبث برامجها من أراضى دول نامية – بينها دول إسلامية– وبعضها إذاعات دينية موجهة، لا يقصد خدمة أتباع تلك الديانات، وإنما بقصد الغارة الثقافية والإعلامية التبشيرية الموجهة ضد العالم الإسلامي، وإذا كان نصف الدول الإسلامية لا يملك "تليفزيون" فإن برامج النصف الآخر تزدحم بنسب متفاوتة من برامج الدول المتقدمة بكافة آثارها السلبية الضارة.

١٢- ضرورة وضع خطة لمواجهة الغزو الثقافي الإعلامي.

١٣- ضرورة خدمة الثقافة والتراث الإسلامي من خلال الأعمال الفنية، مع تنسيق إنتاجها وتنشيط تداولها تجاريا وتبادليا.

١٤- طرح عطاء الإسلام العقائدى في مواجهة الفلسفات والمذهبيات والنظم الاجتماعية من الشرق والغرب. وتأكيد دور الإعلام في بناء الشخصية المسلمة والبناء الثقافي اللازم لانبعاث المسلمين ونهضتهم، بحيث تقدم مبادئ الإسلام الرئيسة مع إبراز إجمالها لما لا يتغير وتفصيلها لما يتغير لتأكيد وتوضيح صلاحيتها لكل زمان ومكان. وهذه العقائدية هى التي يتوجه بها المسلمون إلى العالم ويتسلحون بها في ذات الوقت، لمواجهة الغارة الإلحادية التبشيرية الصهيونية التي تستهدفه من كل الوجوه.

إن مثل هذه الجهود من جامعة الدول العربية، ومن منظمة اتحاد إذاعات الدول الإسلامية، إلى جانب البحوث والدراسات التي تتعلق بهذا الموضوع يمكن أن تكون نواة لاستراتيجية إعلامية إسلامية خلال القرن الخامس عشر الهجرى.

ولقد سكبت الأفكار العامة للتخطيط الثقافي العربي روحها في خطط الثقافة الإسلامية، لقد سبقت الخطة الشاملة للثقافة العربية شقيقتها الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي. وعند المقارنة بينهما نجد أنهما ينبعان من مشكاة واحدة، حتى في علاقة غير المسلمين بالثقافة الإسلامية بحكم المواطنة في البلدان الإسلامية.

لقد أوصت اللجنة الدائمة للإعلام والشئون الثقافية المنعقدة في "دكار" عام ١٩٨٣م بأن تقوم المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم بإعداد استراتيجية تربوية وثقافية للعالم الإسلامي، وقد أدرج المشروع ضمن خطة عمل المنظمة (١٩٨٥ - ١٩٨٨) وجدد إدراج المشروع في الخطة التالية (١٩٨٨-١٩٩١)، وقد استعانت المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم بعدد من الخبراء والمفكرين وأساتذة الجامعات من مختلف أرجاء العالم الإسلامي لإعداد الاستراتيجية. وتم إعدادها في مقدمة وخمسة فصول، تناول الفصل الأول تحديد المفاهيم والخصائص والمصادر، بينما يختص الفصل الثاني بشرح الأهداف. وخصص الفصل الثالث لقضايا الثقافة الإسلامية، وتناول الفصل

الرابع مجالات عمل الثقافة الإسلامية، ويختم الفصل الخامس الإستراتيجية بعرض وسائل التنفيذ.

"وعند تحليل أهداف الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي، نجد أساس هذه الثقافة أنها إسلامية الروح والجوهر والمصدر، حتى وإن كان العالم الإسلامي تسوده ثقافات متنوعة بعضها ليس إسلاميا، ذلك أن غير المسلمين في البلاد الإسلامية هم في حقيقة الأمر مسلمون ثقافة وحضارة، وكثير من حكماء غير المسلمين وعقلائهم يعبرون عن هذا الانتماء الإسلامي، ويعتزون به على رؤوس الأشهاد"(٩٩).

هذه النماذج من الترابط بين الخطط الثقافية والإعلامية على المستويين العربي والإسلامي نجده أيضا في الأساس التطبيقي والتنفيذى. والمثل الذي يجلى الأساس التنفيذى للتخطيط الثقافي والإعلامي يتمثل في محاولة مخاطبة الرأي العام الخارجي، ومحاولة أن يكون للإعلام العربي مقعد في الساحة الدولية.

لقد وضعت ورقة عمل بشأن خطة عربية في عام ١٩٨٤ وكان مجالها الجامعة العربية.

وكانت ورقة عمل الخطة تحوى سلسلة أفكار قدمت من عدة دول عربيه حول سبل مواجهة الإعلام المعادى على الساحتين الأمريكية والأوروبية. وقد قدمت دولة قطر واحدة من أوراق العمل حول إنشاء مؤسسة إعلامية عربية مستقلة لمواجهة التحرك الإعلامي في أمريكا وأوروبا وأن تكون مكاتب الجامعة العربية في الخارج والسفارات العربية وجمعيات الصداقة العربية الأجنبية والغرف التجارية، وأساتذة الجامعات والروابط الطلابية والمراكز الثقافية، ومؤسسات العلاقات العامة ركائز لهذا النشاط، بحيث تسهم جميعا في تحسين الصورة العربية لدى المواطن الأجنبي، وإبراز الدور الحضاري للأمة العربية والتركيز على أن الأمة العربية داعية سلام وعدل وتعاون دولي، وتوضيح القضايا العربية ومواجهة الدعاية المضادة وإبراز الدور العربي الإيجابي سياسياً واقتصاديا على صعيد تنمية العالم الثالث، واتخذت ورقة العمل عنوانا هو: المؤسسة الإعلامية المستقلة.

أ) مقترحات أربعة لإنشاء مؤسسة إعلامية مستقلة:

---

(٩٩) عبد القادر الإدريسي ــ أضواء على الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي ــ لدوة الثقافة العربية، الواقع وآفاق المستقبل ــ مرجع سابق.

تنفيذا لما أقره مؤتمر القمة العربية الحادية عشر في عمان ٢٥–٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٠م –برنامج العمل العربي المشترك – البند الثالث – المجال السياسي– الفقرة الثانية والذي ينص على "دراسة إمكانية إنشاء مؤسسة إعلامية مستقلة لمخاطبة العالم الخارجي بأسلوب متطور، وفق خطة محدودة وإبراز وجهة النظر العربية الموحدة، حيال قضية فلسطين والقضايا العربية الأخرى". قامت الأمانة العامة في إطار ما أنجز من دراسات بالاستعانة بخبرات عربية وصديقة لبحث إمكانيات إنشاء مؤسسة إعلامية مستقلة، وعلى ضوء هذا البحث تعرض المقترحات الأربعة التالية:

– **الاقتراح الأول**: يقضي بتأسيس مؤسسة (على غرار مؤسسة فورد) عربية دولية إعلامية مستقلة عن الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بتمويل عربي (أربعمائة مليون دولار) يكون مقرها الرسمي بالولايات المتحدة، وتتفرع عنه ثلاثة مكاتب في واشنطن ولندن وباريس، ويتولى الإشراف على المؤسسة مجلس أمناء من أمريكيين من أصل عربي تختارهم الدول العربية.

– **الاقتراح الثاني**: يقضي بتأسيس مؤسسة أمريكية مستقلة ذات اهتمامات عامة يديرها أمريكيون وأمريكيون من أصل عربي ويجرى تمويلها من خلال منحة من الدول العربية أو جامعة الدول العربية مقدارها (٣٠٠–٤٠٠) مليون دولار تدفع أقساطا على امتداد ١٥ سنة.

– **الاقتراح الثالث**: يقضي بتأسيس مؤسسة عربية أمريكية مستقلة (على غرار مؤسسة مارشال الألمانية) يديرها أمريكيون، ولا تقتصر أعمالها على الإعلام والسياسة ويجرى تمويلها عن طريق هبة من الدول العربية لا تقل عن ١٠٠ مليون دولار ويضاعف هذا المبلغ بواسطة هبات إضافية.

– **الاقتراح الرابع**: يقضي بإنشاء ثلاث مؤسسات في الساحة الأمريكية:

١ – مؤسسة إعلامية تمول من داخل أمريكا وخارجها وتكون إدارتها أمريكية.

٢ – مؤسسة سياسية (لوبي) تمول كلها من داخل أمريكا ويديرها أمريكيون.

٣ – مؤسسة ثقافية تمول من داخل أمريكا وخارجها ويديرها بالأغلب أمريكيون.

على أن يكون مجمل إنفاق المؤسسات الثلاث للسنوات الخمس المقبلة ١٠٠ مليون دولار، وتركز هذه المؤسسة ــ وفق الاقتراحات الأربعة ــ على ما نسميه بالإعلام الحضاري الذي يقوم أساسا على "تحسين الصورة العربية"، في مختلف المجالات في الساحة الدولية.

ب) الصعوبات التي تعترض الأخذ بالمقترحات الأربعة:

١- الأخذ بأساليب مؤسسات دولية أجنبية:

بالنسبة إلى الأخذ بأسلوب "مؤسسة فورد" الاقتراح الأول: يلاحظ بأن مصداقية مؤسسة فورد تنبع من جذورها الأمريكية الصرف، ومن ابتعادها عن المواضيع السياسية التي تثير الخلافات الحادة، بل وعن كل تشيع سياسى.

بالنسبة إلى الأخذ بأسلوب "مؤسسة مارشال" الاقتراح الثالث: يلاحظ أن المال في هذه المؤسسة أجنبى إلا أن مصدره عربى، وأن مؤسسة مارشال مثلها مثل مؤسسة فورد تبتعد عن القضايا السياسية المثيرة للخلاف.

٢- حصر رأس المال في العطاء من الدول العربية:

إن حصر مصدر المال للمؤسستين المنصوص عليهما في الاقتراحين الثاني والثالث بالدول العربية سيجعل الصهيونية تعمل على تصنيف المؤسسة مسبقا بأنها عدوة ينظر إليها الرأي العام الأمريكى نظرة ارتياب بل وأكثر من الارتياب.

٣- الاعتبارات القانونية:

هل يمكن من الناحية القانونية – ومن ثم من الناحية العملية – لمؤسسة واحدة أن تجمع بين العمل الإعلامي والسياسى والعمل الإعلامي والحضاري التثقيفي والإنسانى الخيرى؟ (يهم خاصة المقترح الثاني والمقترح الثالث). لذا يكون من الصعب أن تستطيع مؤسسة القيام في آن واحد بأعمال إعلامية حضارية وبأعمال اللوبى وأعمال سياسية مع المحافظة على القدر الكافي من المصداقية وعدم التعرض للتجسس بعميل أجنبى. يتطرق الاقتراح الرابع إلى الاعتبارات القانونية بتفصيل أدق مما يجعله يوصى بقيام ثلاث مؤسسات تكون إحداها (السياسية) ممولة من مصادر أمريكية بحتة تجنبا للمحاذير القانونية، لكن هذا الأمر لا يمنع من حدوث خلافات سياسية.

٤- تحديد الولايات المتحدة كمقر لمؤسسة عربية إعلامية دولية:

يجعل المقترح الأول العمل الإعلامي خارج الولايات المتحدة - وفي أوروبا تخصيصا - من مسئوليات المؤسسة التي يكون مقرها الأصلي في أمريكا، ويلقى بالتالي العبء على الجمعيات الأمريكية أو الأفراد الأمريكيين ولا مبرر للاعتقاد بأن لدى الأمريكيين خبرة مميزة للقيام بالأعمال الإعلامية في أوروبا أو إفريقيا كما لا نرى أن الولايات المتحدة هي بالضرورة الموقع الأصح لمقر مؤسسة دولية إعلامية عربية.

إن الجمعيات الأمريكية من أصل عربي رغما عن الدور المتزايد أثرا الذي أخذت تلعبه مازالت تعاني من سلبيات عدة، ونرى أنه على هذه الجمعيات بادئ ذى بدء أن تصحح أوضاعها حتى تنطلق بعد ذلك إلى المهمة الرئيسة التي تواجهها في الولايات المتحدة وهي تعبئة الجاليات الأمريكية من أصل عربي.

إن تعبئة هذه الجاليات إلى أبعد الحدود الممكنة هو الشرط الذي لابد من تحقيقه لخلق القاعدة السياسية الداخلية التي تعطى الإعلام العربي واللوبي العربي مستقبلا القوة الضاربة والسلطان في اللعبة السياسية الأمريكية الانتخابية. إن الجمعيات الأمريكية من أصل عربي هي المرشحة الوحيدة القادرة على هذه التعبئة بالاستعانة بشركات العلاقات العامة المتخصصة في هذا المجال، إن أول الأوليات في أمريكا الشمالية -على كل حال- يجب أن يتم بعد أن تقوم تلك الجمعيات بتصحيح أوضاعها واستفادها لجميع إمكانيات تعبئة الجاليات الأمريكية من أصل عربي. إذا تأسست المؤسسة الأم في بلد ما والمؤسسات الفروع في بلاد أخرى فلابد من مواجهة مشكلات العلاقات بين الطرف العربي الممول وإدارة- إدارات هذه المؤسسة - المؤسسات، وكذلك مشكلات التنسيق بينها وبين الأجهزة العربية (السلك الدبلوماسي والأمانة العامة) وجمعيات الصداقة، والجمعيات المتعاطفة مع الجانب العربي في كافة البلدان.

٥- تعدى النطاق الإعلامي التنفيذي إلى الأعمال الخيرية والبحوث العلمية:

هذا هو توجه المقترحين الثاني والثالث وإذا كان ثمة حكمة في تنويع السبل التي تنتهجها في الوصول إلى تحسين الصورة العربية في الولايات المتحدة فإن ذلك يعتمد على ترتيب الأولويات العربية. وبالنظر إلى واقع الإعلام في الساحة الأمريكية، وكون الجمعيات الأمريكية من أصل عربي تعاني ما تعانيه، والتعبئة للجاليات العربية الأمريكية ما تزال بعيدة المنال، وبحاجة إلى جهود ضخمة لتحقيقها، فهل يجب فتح الباب على مصراعيه للأعمال الإنسانية والأبحاث العلمية الطبيعية، ولمتطلبات الجاليات (من غير البيض) الأمريكية البائسة والتي لا تحصى؟. إنه يمكن دائما تخصيص نسبة معقولة تتراوح بين ٢ و ٣% من مجمل اعتمادات أية خطة إعلامية مقترحة لمبادرات ودية محددة نحو الشعب الأمريكي.

٦- تولى العمل السياسي مؤسسة أمريكية:

ينص المقترح الرابع على أن تتولى التعامل مع أرباب السياسة مؤسسة سياسية أمريكية صرف بتمويل أمريكي صرف، ويميل المقترح إلى التفاؤل في إمكان إيجاد التمويل اللازم لهذه المؤسسة من داخل أمريكا. بيد أنه ليس من الصعب تصور إمكان حدوث خلاف في الاجتهاد حول السياسة الإعلامية في القضايا الحساسة بين مؤسسة بإدارة أمريكية صرف وبين الجهات العربية المعنية. يؤكد المقترح الرابع على الاستعانة بشركات علاقات عامة وأنه من الممكن تحسين الصورة العربية في ذهن المواطن الأجنبي في مختلف الساحات على النحو التالي:

١- إبراز الدور الحضاري للأمة العربية.

٢- التركيز على أن الأمة العربية داعية للسلام والعدل والتعاون الدولي.

٣- توضيح القضايا العربية وعلى رأسها القضية المركزية: قضية فلسطين.

٤- مواجهة الدعاية المضادة ودحض افتراءاتها وتغيير مزاعمها.

٥- إبراز الدور الإيجابي للأمة العربية في السياسة والاقتصاد العالمي، وتنمية العالم الثالث.

٦- فضح السياسة العدوانية التوسعية لإسرائيل ضد الدول العربية.

١- وضوح الهدف.

٢- وضوح السياسة التي يستند إليها الإعلام ـــ قرارات مؤتمر القمة العربية وفي طليعتها مشروع السلام ـــ قمة فاس سنة ١٩٨٢م.

٣- وضع استراتيجية متكاملة تأخذ بعين الاعتبار ضـــرورات كل من العمل السياسى الإعلامي المؤثر على صانعي القرار والعمل الحضاري التثقيفي المؤثر على صورة العربي السائدة في ذهن المواطن الأجنبي.

٤- الاستفادة من المؤســات العربية والصديقة القائمة في كـــل ساحة استفادة كاملة.

٥- تجنيد العنصر البشرى الملائم.

٦- تحديد أولويات الإنفاق ونسبه بين أدوات التنفيذ المعتمـــدة وكذلك بين المشروعات المقترحة.

٧- واقع التعاطف العميق الجذور لأسباب تاريخية وتراثيـــة بين الضمير الغربى واليهودى.

٨- النظرة التبسيطية إلى الصراع العربي الصهيونى السائدة بين كبار المسئولين في الهيئتين التنفيذية والتشريعية في عدد من الدول.

أما عن قواعد التحرك الإعلامي وشروط نجاحه فتتمثل فيما يلى:

أما أدوات تنفيذ الخطة فيمكن أن تشمل ما يلى:

١- جهاز الأمانة العامة على أن تدخل إصلاحات على جهازها العامل في البعثات الخارجية للجامعة ـــ وهو ما تعمل الأمانة العامة من أجله ـــ لاسيما على الساحة الأمريكية وذلك:

- بتفضيل العمل في هيئة الأمم المتحدة عن العمل في الساحة الأمريكية.
- بتجنيد طاقات عربية وأمريكية من أصل عربي كفؤة.
- بالاستعانة بمستشارين خبراء.
- بالاستعانة في مجالات معينة بشركات للعلاقات العامة.

٢- السلك الدبلوماسي العربي مع إحكام التنسيق بين المسئولين عن جهاز الجامعة الإعلامي وأعضاء هذا السلك.

٣- جمعيات الصداقة (العربية – الأجنبية) المتواجدة في الساحات الدولية كافة، وزيادة عدد هذه الجمعيات ودعمها.

٤- الغرف التجارية (العربية – الأجنبية).

٥- الجمعيات الوطنية والدينية (لاسيما في الولايات المتحدة) والكنائس.

٦- أساتذة الجامعات والرابطات الطلابية والمراكز الثقافية العربية والأجنبية.

٧- شركات العلاقات العامة المتواجدة في كل ساحة والتعاون معها بشكل محدد.

وإلى جانب هذه الخطة كانت الجامعة العربية تبحث الدراسات المتعلقة بالخطط الإعلامية على الساحة الإفريقية، والساحة الآسيوية والساحة الأمريكية اللاتينية، أسوة بما تم إعداده بالنسبة إلى الساحة الغربية.على أن يتم تكييف أوجه النشاط وفقا لظروف كل ساحة في ضوء الدراسات المعتمدة، وستحدد الخطة الإعلامية الكبرى على الساحات الدولية في ضوء:

١- الأهداف العربية الرئيسة.

٢- الأفق الزمني للخطة الإعلامية.

٣- الغايات المرسومة للخطة.

٤- الأدوات المعتمدة ودور كل منها.

٥- العنصر البشري اللازم.

٦- أولويات الإنفاق في الخطة.

في مقابل التوجه إلى العالم الخارجي برسالتنا الإعلامية ينبغي أن يكون اهتمامنا الأكبر والأقرب بواقعنا الإعلامي والثقافي الداخلي.

ما هو واقع الحال لإعلامنا العربي بأغلبه؟ يجيب الدكتور ناصر الرشيد[١٠٠] بما يلي:

١- المبالغة في المدح المذموم شرعا مما يرسخ النفاق والكذب في المجتمع وتقديس الأشخاص والذوات، مخالفا بذلك ما ثبت شرعا من قصر التقديس، والتعظيم على الله تعالى وحده.

٢ - إعطاء تصور زائف غير صحيح في فهم حقيقة الدين وأحكامه الشاملة بحصر الخطاب الإعلامي - فيما يتعلق بالدين - في جوانب العبادات والسلوكيات الفردية دون الأحكام التي تعالج قضايا الأمة والمجتمع، ودون ربط كل أعمال الحياة بالتصور الإسلامي والعقيدة الإسلامية وكليات الدين.

٣ - تحجيم وظيفة المنابر الشرعية كخطب الجمع والأعياد، ووسائل الإعلام والمحاضرات والندوات العامة، وذلك بالسعي لمنع الخطباء ذوى الوعي الشرعي والعلم بالواقع، وأصحاب النصيحة والرأي الشجاع من تسنم هذه المنابر، ومحاولة حصر هذه المنابر على من لا يحسن القيام بحق الكلمة وواجب البلاغ المبين.

٤ - تعطيل القدرات الإبداعية بسلسلة من القيود والتعليمات الثقيلة على الوسائل الإعلامية التي تحجز على إبداء الرأي المشروع، أو الصدع بكلمة الحق وتبليغ رسالة الإسلام في القضايا الكبرى للأمة إذا خالفت توجيهات أصحاب القرار في هذه المؤسسات.

٥ - احتكار كافة وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وتلفزة لمؤسسات تملكها الحكومة أو شبه مالكة لها. ومنع الأفراد من حقهم الشرعي في إصدار

---

(١٠٠) د. ناصر بن سعد الرشيد ـ وسائل الثقافة ـ نقد وتقويم الإعلام ـ ندوة الثقافة العربية، الواقع وآفاق المستقبل ـ مرجع سابق.

وامتلاك وسائل الإعلام لنشر العلم الشرعي النافع والدعوة والإبلاغ.

٦ - منع الأخبار في وسائل الإعلام المحلية مما أدى إلى اتجاه الناس لوسائل الإعلام المعادية في الدول الأجنبية للحصول على الأخبار والحقائق التي يرغبون في معرفتها والاطلاع عليها ومنحها ثقتهم.

٧ - التركيز المستمر في البرامج الإعلامية على تقديم القيم والعادات والأخلاقيات الغربية الباطلة المخالفة للشرع، باعتبارها القدوة والمثل العليا مما يؤدى إلى كسر الحاجز الاعتقادى والسلوكى بين أبناء الأمة وبين الكفر والنفاق والشرك.

٨ - إبراز الشرائح الاجتماعية ذات الدور الترفيهى والهامشى في الحياة حيث يحتل الرياضيون والفنانون والمغنون وأشباههم مساحة واسعة في وسائل الإعلام المحلى ويتناول الحديث عنهم كافة أعمالهم ونشاطهم، حتى تمكن هؤلاء من أذهان الشباب، وصار حلم الشباب في المستقبل أن يكون رياضيا أو فنانا، بينما تغيب عن هذه الوسائل شرائح أكثر أهمية وأعظم دورا كالعلماء والمفكرين والدعاة والمصلحين وذوى الكفاءات والإنجازات.

٩ - التضييق الشديد على المؤسسات الإعلامية والتسجيلات الإسلامية بمنع إصدار التصاريح والرقابة المشددة عليها في الوقت الذي يسمح فيه لكثير من مجالات التبرج والسفور بدخول البلاد، ويسهل فتح وانتشار محلات أشرطة الفيديو الهابطة والمنافية للقيم الإسلامية.

١٠- الإكثار من برامج الأطفال التي تعتمد على المستحيل والأساطير والتمرد، الأمر الذي من شأنه أن يزرع قيما خطيرة في نفوس الأطفال في سن مبكرة مما يكون له أكبر الأثر في تنشئتهم، وفي برامج المرأة تقديم البرامج الغربية التي تؤدى إلى تغريب المرأة المسلمة لتصبح صورة مشوهة من المرأة الغربية.

١١- الاعتماد في المادة الإعلامية المقدمة للمجتمعات العربية والإسلامية على الإنتاج الغربي بنسبة كبيرة. وضعف الصوت الإعلامي العربي والإسلامي في الوصول إلى الساحة العالمية، وفي مواجهة هذا الواقع الإعلامي العربي.

يضع الدكتور ناصر الرشيد تصوره لسبيل الإصلاح في نقاط عديدة أهمها ما يلي:

١- تبنى برنامج جاد وفعال يحقق نشر الخبر الصادق بدقة وشمول وموضوعية، وتشجيع التحليل الإسلامي للأحداث من خلال تطوير المؤسسات الإعلامية ودعمها بالكوادر المؤهلة والمخلصة.

٢- السماح بإقامة المؤسسات الإعلامية الخاصة من صحف وتلفزة وغيرها للدعوة والإرشاد والتثقيف النافع وإزالة القيود التي تحد من مصداقيتها وقدرتها على الإبداع.

٣- تخصيص بث إعلامي يستهدف إبلاغ الإسلام وتعريف الناس كافة بمختلف لغاتهم ما أمكن.

وحقيقة الأمر أن التصور الذي وضعه الدكتور ناصر الرشيد لواقع الحال في إعلامنا العربي المعاصر يحمل في ذاته عوامل تصحيحه وسبل إصلاحه فما دمنا قد شخصنا الداء فإن الدواء يصبح أمرا سهلا وميسورا.

وإذا تجنبنا الأخطاء الإعلامية العربية نكون في الوقت نفسه قد حققنا عين الصواب في إعلامنا العربي المعاصر.

وفي حياتنا الثقافية العربية لابد من الوعي بطبيعة أحوالنا الثقافية المعاصرة. ولابد من التسلح بالنظرة الفاحصة الناقدة والهادئة في الوقت نفسه. إن التسلح بالوعي ضروري لحياتنا الثقافية بصفة عامة، وهو أكثر وأشد ضرورة لنا في مواجهة الغزو الثقافي. ونستطيع أن نضرب بعض الأمثال والشواهد؛ لأن حصر ما ينبغي أن نحيط به وعيا فوق

الطاقة؛ لأنه متغير ومتلون بتغير الزمان والأساليب والمكان.

أول ضرورات الوعي لنا في هذا المجال هو الوعي بمقولة الإمام مالك الفقيه الإسلامي المشهور "كل يؤخذ منه ويرد عليه". فلا ينبغي أن نحكم على الكتابات الإسلامية للدكتور طه حسين بحكمنا على أفكاره الأدبية في العقد الثالث من القرن العشرين في الشعر الجاهلي ولا على تصوره الثقافي في العقد الرابع من القرن العشرين في مستقبل الثقافة في مصر. وإنما يعنينا في كتاباته الإسلامية مناقشة العودة للذاتية الثقافية العربية الإسلامية. كذلك ينبغي ألا يكون تقييم الدور الذي قامت به كتب الدكتور هيكل باشا الإسلامية استنادا إلى موقفه السياسي كرئيس لحزب الأحرار الدستوريين الذي لم يكن حزبا شعبيا ولا معبرا عن مصلحة الفقراء المصريين، أو أهداف الحركة الوطنية المصرية.

لذلك ينبغي تطهير الخطاب الإعلامي والخطاب الثقافي من الاتهام العشوائي أو الاتهام الجزئي لأعلام الكتاب والمفكرين العرب. حتى لا يتشتت الشباب ويتشتت وعيهم بكثرة الاتهامات، والدمغ العمومي بالضلال.

كذلك لا ينبغي إهمال طبيعة الفترة التاريخية لكتابات المفكرين، والمرحلة الحضارية لمجتمعهم عندما كتبوا وعبروا وأعلنوا، ولعل النموذج الناضج للتحول من أفكار تعلق بها المفكر ثم هجرها وأعلن ذلك صراحة ذلك النموذج الباهر للفيلسوف العربي المعاصر زكي نجيب محمود. لقد كان شديد الانبهار بالغرب ثقافة وتفكيرا ثم رجع إلى التراث العربي الإسلامي فرأى فيه كنزا من التفكير الصائب والرؤية المبصرة إنسانيا ومعرفيا، ولكن تأثير الثقافة الغربية يعكس ظلاله عليه؛ لأنه متشرب بالثقافة الغربية العلمانية، برغم أنه يرى بعينيه طوفان الثقافة الغربية العلمانية ويحاول النجاة منها ويحذر مجتمعه محاولاً نجاتهم. ولكنه ـــ للأسف الشديد ـــ يحملها معه مرضا متوطنا في كيانه الفكرى، وفي طريقة تفكيره.

فمثلا يقول د. زكي نجيب محمود[١٠١]: إن الحضارة العربية القديمة محورها الأخلاق والمبادئ الخلقية؛ لأن محورها الدين. وكل الأديان رسالات خلقية قبل أي شئ آخر

---

(١٠١) حديث صحفي لمجلة الحوادث بتاريخ ٢٣-٣-١٩٨٤م .

فحضارتي قائمة على رسالات أخلاقية، أما الحضارة الغربية المعاصرة فقائمة على العلم الطبيعي.ويقول: "أنا لو اكتفيت بحضارتي القديمة، حضارة الكلمة والشعر والأدب والأخلاق والدين لعشت في عصري هذا غريبا عليه، وسحقت من أول ضربة مدفع، ولكن لو تجاهلت حضارتي القديمة، واندمجت في حضارتهم علما وصناعة لسحقت داخليا، لما أصبحت عربيا مسلما أو مسيحيا، أنا ليّ هوية خاصة قوامها تذوق خاص، تقاليد خاصة، رؤيا خاصة للأشياء، رؤيا خاصة للمشكلات الاجتماعية كيف أحلها، أو لا أحلها، هذه الهوية هي هويتي لا أريد أن استغنى عنها".

ثم يطرح سؤالا هو: كيف إذنْ أحتفظ بهذه الهوية العربية الإسلامية مرتكزا على الركائز الأساس غير مستغن عن أي منها، ولكن عليّ أن أضيف إليها أيضا الركائز الجديدة التي تجعلني أحس بالعصر الذي أعيش فيه. والسؤال هو: هل يمكن ذلك؟.

ويجيب بأنه ممكن، ويرى أن لطفي السيد وطه حسين ومصطفي عبدالرازق وتوفيق الحكيم تتجسد فيهم الصفة الجديدة التي تمزج الهوية الأصلية بالحضارة الغربية ويقول إن طه حسين شيخ أزهري وخواجة فرنسي في وقت واحد بحيث لا تستطيع أن تجد الموضع الذي يرسم فيه الحد الفاصل بين طه حسين الأزهري وطه حسين الخواجة.

ويصل إلى الهدف الرئيس من فكرته بقوله: هكذا أمثلة كثيرة من رجالنا أنفسهم استطاعوا أن يجسدوا بأشخاصهم الصيغة الجديدة ما علينا إذن إلا أن ننظر لهذه الصيغة مم تتكون؟ وكيف؟ لأنها لن تكون هي حياتنا الجديدة إلا إذا تسربت من قلة قليلة جدا جسدوها إلى الكثرة الغالبة من الشعب ليعيشوها. ويقول: الكثرة الغالبة من الشعب العربي ما تزال تدير ظهرها لثقافة العصر ونحن نحاول أن تتسلل ثقافة العصر في أصولها إلى أوعيته. لا نريد أن نهدم أوعيته ولكن نريد أن نملأها بمضمون عصري فيصبح عصريا مسلما في آن واحد".

هكذا يفضي المفكر المصري برأيه الذي نستطيع مقابلته بالتساؤلات والحقائق التالية:

١- ما معنى حضارة قوامها الأخلاق؟ هل الساعة التي أهداها الرشيد إلى شارلمان كانت ساعة أخلاقية؟!

٢- التناقض العربي المعاصر هو غيبة الأيدلوجية وليس التمسك بها.

٣- الإلكترونيات والتكنولوجيا في الحضارة الغربية المعاصرة جاءت بعد المفهوم الأخلاقي للحرية والتجديد.. لقد جاء رسم المنظور في القرن الخامس عشر وجاء الراديو في القرن العشرين.

إن هذا النموذج لتأثير الغزو الثقافي على بعض المفكرين في العالم الثالث لا يمكن فصله عن ظروفهم التاريخية والتعليمية من جانب، وعن ظروف السيطرة للحضارة الأوروبية من جانب آخر وعن غيبة الذاتية الثقافية الإسلامية من جانب ثالث.

* الوعي الثاني الذي ينبغي أن ننتبه إليه هو أن الغزو الثقافي المعاصر للعالم الإسلامي ليس غزوا غربيا أى (أمريكا وأوروبا الغربية) وحسب، بل هو غزو مشترك من الحضارة المعاصرة بشقيها الرأسمالي والشيوعي وغير الديني أو الديانات الوثنية المعاصرة. فالغزو الثقافي عند بعض الكتاب العرب الذين يتجهون وجهة ماركسية هو الغزو الثقافي الأوروبي الذي بدا ــ على حد تعبيرهم ــ منذ نحو خمسة قرون لما عرف ببلدان الشرق، أى الشرق الأوسط بالتعبير الحديث، وبلدان أفريقيا وبلدان جنوب شرق آسيا والصين وأقطار أمريكا اللاتينية وسكان أمريكا الأصليين والذي كان مصاحبا للغزو العسكرى، لكنه اليوم يعنى أساسا الغزو الثقافي الأمريكي لدول العالم الثالث، بما يسمى بثقافة القيم الاستهلاكية وحضارة الرجل الأبيض المتفوق وقوة الشركات الدولية والأفلام والمسلسلات التلفزيونية، وتوجهات وكالات الأنباء الغربية المتحيزة ضد أقطار العالم الثالث[١٠٢].

ولكن ذلك لا يفسر لنا قهر المسلمين في الصين أو في ألبانيا والمحاولات الدائبة لردهم عن دينهم. كما أنه لا يفسر اضطهاد المسلمين في الفلبين وبورما.

---

(١٠٢) د. عبد العظيم أنيس ــ غين فتحة غا ــ جريدة الأهالي بتاريخ ٢٦-١٢-١٩٨٤م .

• الوعي باختلاف الأيدلوجيات في مقاومة الغزو الثقافي:

يطلق الباحثون الأمريكيون على أساليب مواجهة الغزو الثقافي او الدعاية المضادة — بلغتهم — تعبير تحصين المتلقى ضد الدعاية المضادة[١٠٣]، ومن الأساليب الفعالة في التحصين ضد المعلومات المضادة استخدام أسلوب الالتزام السلوكى الذي ندفع فيه الفرد الذي يؤمن برأى معين بالتعبير عما يؤمن به علنا. وأن ذلك يجعل الفرد مضطرا للالتزام بما قاله. ولهذا لن يحاول الرجوع عما قاله علانية حتى لا يفقد ماء وجهه بين مستمعيه، وبجعل الفرد أن يلتزم اجتماعيا بتأييد اعتقاد معين قد يكون طريقة فعالة للتأكد من مقاومته للاقناع برأى مضاد.

الأسلوب الثاني الأساسى لجعل المتلقى يقاوم الإقناع يقوم على ربط معتقدات الفرد بالأشياء الأخرى التي يعرفها. فالاعتقاد مثلا بأهمية توفير علاج طبى أفضل لكبار السن يمكن أن نربطه باعتقاد مقبول كأن نقول إن هذا عمل إنسانى نعاون به إخواننا من البشر في محنتهم. وربط هذا الاعتقاد المقبول بالقيم المشتركة سيجعل الفرد أكثر مقاومة للآراء التي تحاول أن تجعله يغير اتجاهه. ولضمان مقاومة أى اقناع مضاد علينا أن نربط الاعتقاد بجماعات مرجعية محل تقدير واحترام كبيرين.

الأسلوب الثالث لتحصين الفرد ضد الإقناع هو إثارة خوفه وقلقه مما يجعله يقاوم المعلومات، فقد شعر كثير من الأمريكيين مثلا أنهم يجب أن يقاوموا بعض التشريعات؛ لأنهم كانوا مقتنعين بأن صدور هذه التشريعات سيؤدى إلى اضطرابات وإضرار بهم. وقاوم أولئك الأفراد التشريعات لأن البعض أثار توترهم حيال نتائجه غير المرغوبة.

وقد تبين أن تحصين الفرد ضد حجج الإعلام المضاد يزيد مقاومته مثل تحصين الفرد ضد مرض معين.

كما تبين أن من الناس من يظن أن بعض معتقدات الفرد أو قيمه الثقافية بعيدة عن الهجوم؛ لذلك لا يعد نفسه أبدا لحمايتها، فافتراض الفرد بأن معتقداته لن تهاجم هو

---

(١٠٣) د. جيهان رشتي — الأسس العلمية لنظريات الإعلام — دار الفكر العربي — القاهرة — ١٩٧٨ — ص ٢٨٣ — ٢٨٥ .

السبب نفسه الذي يجعلها بلا حول ولا قوة، وقد أظهرت الدراسات التي قامت بمقارنة التحصين عن طريق الدفاع بتفنيد حجج الآخرين، وبالتقوية والتدعيم لحجج الدفاع والتأييد أن الدفاع بالحجج المفندة يحدث مقاومة أكبر. أي أنه يجب توقع حجج المعارضة والإشارة إليها وتفنيدها حتى ينجح الفرد في مقاومتها.

وعندما تم الجمع بين تأثير الدفاع بالحجج المؤيدة ـــ التي تقوى وتدعم ـــ وتأثير الدفاع بالحجج ـــ التي تفند ـــ وبالتالي تحصن كانت مقاومة الفرد أكبر وساعده ذلك في المحافظة على معتقداته من الهجوم الذي يرمي إلى تدميرها. لقد بينت نتائج الاختبارات المختلفة أن الدفاع بهذين الأسلوبين أكثر فاعلية من استخدام أى من هذين الأسلوبين منفردا.

كما تبين أن تحذير الفرد مسبقا يعنى تسليحه مسبقا. أى أن الفرد يصبح أكثر استعدادا لمقاومة أى هجوم على معتقداته إذا حذر مسبقا من هذا الهجوم. وبينت بعض الدراسات في الولايات المتحدة الأمريكية في هذا الشأن أن وجود الإنذار المسبق أو التحذير، يجعل كل أساليب الدفاع أكثر فاعلية. فمجرد معرفة أن هناك تهديدا بخطر محدق يدفع الفرد للتيقن من استخدام جميع أساليب الدفاع المتوافرة لديه أفضل استخدام، وسوف يدرب نفسه على ابتكار بعض الحجج الإضافية.

هذا التحصين الأمريكي نقرأ عناصره قراءة تحليلية، فما يتوافق مع خطتنا اقتبسنا منه، وما هو بعيد عن واقعنا وظروفنا انصرفنا عنه. ولا ينبغي أن تلحق بنا التبعية حتى في مجال مواجهة الغزو الثقافي.

* الوعي بالنظر إلى كافة الزوايا والجهات الأصلية والفرعية؛ لأنه لم يعد ممكنا حصر الباب الذي هب علينا منه رياح الغزو الثقافي. فجسم الثقافة العربية والإسلامية معرض للنهش من قمة الشَّعْر إلى أخمص القدم.

إن الهجوم حتى على التاريخ الفرعوني بالتزييف والتلفيق، مثل الهجوم على كل قيم العرب قبل الإسلام، برغم أن بعضها استبقاه الإسلام وحسنه مثل الكرم، والتكافل لنصرة المظلوم كما في حلف الفضول الذي كان قبل الإسلام، وقال عنه الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ أنه لو دعى لمثله لأجاب.

ولنتأمل هذا الأمر المتعلق بالتاريخ الفرعوني لنرى فيه صورة تؤكد أن الغزو الثقافي يدخل علينا من كل باب وينبغي أن نرصد دخوله في كل الاتجاهات والزوايا.

أحمد عثمان راقص في فرقة رضا المصرية، هجر الرقص واشتغل بالصحافة في مصر، ثم هجر مصر واستقر به المقام في بريطانيا. ألف كتابا بعنوان: "غريب في وادى الملوك". ذهب فيه إلى القول: بأن المومياء المحفوظة في المتحف المصري تحت اسم "يويا" هى جثة سيدنا يوسف نبي الله، وحاول في كتابه أن يرد على علماء الآثار اللذين ينكرون ذلك.

ولأن قصة الكتاب تبدو غريبة ومثيرة فقد كشف الكاتب المصري محسن محمد[١٠٤] غرابتها وسبب إثارتها من مقدمة الكتاب نفسه. ويتساءل محسن محمد قائلا: ما الهدف من هذه العملية، والترويج للكتاب على نطاق واسع؟ قد يكون المؤلف باحثا تاريخيا وصل إلى ما اقتنع أنه حقيقة.

ولكن من مقدمة الكتاب تتضح الأسباب الحقيقية لتأليفه وصدوره. يقول الكاتب إنه كان في الثالثة عشرة من عمره عندما بدأت المعارك بين العرب ودولة إسرائيل. وقد توجه إلى أحد المعسكرات متطوعا ليقاتل ولكن رفض طلبه، جند في الجيش واشتغل بالصحافة وكتب أربع مسرحيات ويدعى أن الرقيب رفض ثلاثة منها.

ويقول – في المقدمة أيضا – أن الرقيب لا يوافق على المسرحيات التي تناقش السياسة والدين والجنس وهذه القيود لا تدع للكاتب فرصة لتناول أى عمل خلاق، وقال إنه شغل بالعداء الجنوني الواضح بين مصر وإسرائيل، وتساءل لم لا يعيشان معا في سلام ويسويان خلافاتهما بدلا من القتال! وهنا نتوقف أمام أخطر ما جاء في الكتاب، إنه يقول:

إن اليهود لا يفعلون أكثر من العودة إلى أجدادهم ووطنهم، فهم ليسوا غزاة مثل الفرنسيين والبريطانيين، إنما أرضهم المقدسة كما هى أرضنا المقدسة، إن العداء بين الشعبين المصري والإسرائيلى مثل أى صراع أو عداء قديم طويل داخل أسرة واحدة.

---

(١٠٤) محسن محمد ــ مؤامرة على تاريخ مصر الفرعوني ــ أخبار اليوم بتاريخ ٢٣-١-١٩٨٨م .

ويقول أحمد عثمان أيضا نظرا لأنه أدى الخدمة العسكرية الإجبارية فإنه يمكن استدعاؤه للجيش في أى وقت، ولا يريد بأى حال من الأحوال، الاشتراك في القتال ولذلك طار إلى لندن ليستقر فيها إلى الأبد.

وقد تعلم اللغة العبرية وهى ليست صعبة ـــ كما يقول ـــ مثل اللغة العربية! وقد جاءه الإلهام عن يويا ويوسف في إحدى الليالى وهو يقرأ سفر التكوين في التوراة، فتوقف عند عبارة قالها يوسف لأخ له ـــ غير شقيق ـــ عندما جاء إلى مصر يشترى القمح.

رفض يوسف أن يكشف لأخيه عن منصب الوزارة الذي يشغله ولكن قال له:

– أنتم لم ترسلونى إلى مصر بل الله أرسلنى وجعلنى أبا لفرعون.

والكلمتان الأخيرتان هما اللتان جعلتا أحمد عثمان يفكر ويربط بين يويا ويوسف ويؤلف كتابه.

وأخيرا يفصح الكتاب بوضوح عن غايته.. فمادام يويا هو يوسف وهو جد اخناتون فمعنى ذلك أن فكرة التوحيد والإله الواحد التي نادى بها اخناتون لم تنطلق من فرعون مصرى بل تجرى في هذا الفرعون أيضا دماء اليهود، ولذلك فإن فكرة التوحيد تشترك فيها مع مصر، إسرائيل.

وهذه هي المؤامرة الجديدة على التاريخ المصري الفرعونى القديم.

ومما يذكر أن عالم النفس اليهودى فرويد اعترف في كتابه "موسى والتوحيد" إن الديانة اليهودية منقولة عن عبادة اخناتون، وإن اليهود حملوا معهم عندما خرجوا من مصر تعاليم ديانة إخناتون التي كانت أول ديانة للتوحيد في العالم.. واليهود يريدون أن يشتركوا مع مصر في فكرة التوحيد مثلما يقولون في أمريكا إنهم هم الذين بنوا الأهرامات أيام الفراعنة..

ويختم محسن محمد مقاله بقوله:

ونسى أحمد عثمان ولم يذكر أنه قبل ذلك كان راقصا في فرقة رضا. ويبدو أنه لا يزال يرقص لا لحساب فرقة رضا. بل لحساب إسرائيل!.

* الوعي بالأهداف الرئيسة والأهداف الثانوية للغزو الثقافي، فلا نبذل جل جهدنا في مقاومة الأهداف الثانوية والفرعية حتى لا يبقى إلا القليل من جهدنا لمواجهة الأهداف

الرئيسة. فعلى سبيل المثال، لقد أخذت فتنة الملابس وفتنة العرى حيزا واسعا من حياتنا الثقافية، وأخذت قضية الملابس الإسلامية شكلا حادا في التناول سواء داخل البلدان الإسلامية أو خارجها، وتمثل الأخذ والرد داخل البلدان الإسلامية في عدة وجوه، أولها إنكار الحجاب للمرأة المسلمة من بعض صرعى الغزو الثقافي، بل وهجومهم على المرأة المحجبة، وانعكاس ذلك على بعض أوجه النشاط الحكومى مثل التلفزيون المصري الذي منذ إنشائه عام١٩٦٠ حتى العقد الأخير من القرن العشرين لم يسمح لمذيعة محجبة أن تذيع نشرة الأخبار أو تقدم مادة إعلامية غير البرنامج الدينى الذي يأخذ حكم القليل النادر.

ومن الناحية التاريخية كان إلغاء الحجاب في بعض البلدان العربية مواكبا للتشبه بالأوروبيات، وحظى بتشجيع من بعض الفئات غير الملتزمة بتعاليم الدين تحت غطاء المشاركة في التحرر الوطنى، والحركة الوطنية.

والوجه الثاني هو تشدد بعض الجماعات الإسلامية في أن تغطى المرأة وجهها وقد أثارت القلة القليلة جدا ضوضاء داخل الجامعات المصرية والعربية، ولكنها كانت عابرة، لولا محاولات التضخيم والخوف من القائمين على إدارة هذه الجامعات وأمنها.

أما في خارج البلدان الإسلامية فقد كانت المشكلة في ذروتها في بلد كنا نظنه معقل الحريات، في فرنسا، لقد طردت بعض المدارس الفرنسية تلميذتين مسلمتين لارتدائهما غطاء للرأس، وتناولت الصحف المسألة، وأبدت دوائر فرنسية عديدة بغضها للإسلام من خلال الواقعة التي حدثت في أكتوبر ١٩٨٩، ولكن دوائر فرنسية أخرى اعتبرت الملابس حرية شخصية.

هذه ظواهر الموضوع، ولكن هل اللباس مشكلة إسلامية؟ أم مشكلة غزو ثقافي؟

* **حقيقة الأمر تنحصر في أمرين.**

الأمر الأول: هو أن الإسلام حدد للرجل وللمرأة قواعد لستر العورة.

الأمر الثاني: أن هذه المسألة ليست نتاج اليوم أو نتاج القرن العشرين الميلادى، إنها قضية بدأت بآدم وحواء، وهى قضية ترتبط بفطرة الإنسان في أن يستر جسده، وأن يحافظ على جسده بالملابس خشية البرد أو الحر، وأن يتزين بها ويتفنن في نسجها

وحياكتها وصناعتها وارتدائها، ويعقد الشهيد " سيد قطب " في تفسير سورة الأعراف مقارنة بارعة للعرى الأول في تاريخ البشرية وللعرى الذي تدعو إليه بيوت الأزياء الغربية في القرن العشرين، وذلك عندما يفسر الآيات القرآنية:)يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ يا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ) "آية ٢٦،آية ٢٧ من سورة الأعراف". ثم قول الله تعالى: (يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ{٣١} قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ...) "آية ٣١، وآية ٣٢من سورة الأعراف".

وكما يذكر ابن كثير في تفسيره إن العرب في الجاهلية كانوا ــ ماعدا قبيلة قريش ــ يطوفون بالبيت الحرام عرايا، بحجة أنهم لا يطوفون بملابس ارتكبوا الخطايا وهم يلبسونها. وكان الذين يطوفون بملابسهم أهل قريش أو من جاء بثوب جديد يطوف به أو من اقترض ثوبا من أحد القرشيين، وكانت هذه البدعة الجاهلية تجعل النساء في غالبيتهن يطفن بالليل.

يقول سيد قطب[١٠٥]:

"في مواجهة هذا الواقع الجاهلي جاءت التعقيبات على قصة البشرية الأولى، وجاء ذكر اللباس. ونزع الشيطان له عن آدم وزوجته بالإغواء. وجاء ذكر حيائهما الفطرى في كشف السوآت. وخصفهما على سوآتهما من ورق الجنة" ثم يقول سيد قطب في مواجهة مشهد العرى الذي أعقب الخطيئة، ومواجهة العرى الذي يزاوله المشركون في الجاهلية، يذكر السياق في هذا النداء نعمة الله على البشر وقد علمهم، ويسر لهم، وشرع لهم كذلك، اللباس الذي يستر العورات المكشوفة، ثم يكون زينة وجمالا. واللباس

---

(١٠٥) سيد قطب ــ في ظلال القرآن ــ المجلد الثالث ــ الطبعة ١٤ ــ دار الشروق ــ القاهرة ــ ١٩٨٧ ــ ص ١٢٧٧، ص ١٢٧٨، ص ١٢٧٩ .

قد يطلق على ما يوارى السوأة. وهو اللباس الداخلي. والرياش قد يطلق على ما يستر الجسم كله ويتجمل به. وهو ظاهر الثوب، كما قد يطلق الرياش على العيش الرغد والنعمة والمال، وهى كلها معان متداخلة، متلازمة"، ويقول سيد قطب: "هناك تلازم بين شرع الله لستر العورات والزينة، وبين التقوى، كلاهما لباس، هذا يستر عورات القلب، وذاك يستر عورات الجسم، وكلاهما متلازمان، فعن شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عرى الجسد والحياء منه، ومن لا يستحى من الله ولا يتقيه لا يهمه أن يتعرى، وأن يدعو إلى العرى، العرى من الحياء ومن التقوى، والعرى من اللباس وكشف السوأة، إن ستر الجسد ليس مجرد اصطلاح وعرف بينى – كما تزعم الأبواق المسلطة على حياء الناس وعفتهم لتدمير إنسانيتهم، وفق الخطة اليهودية البشعة التي تتضمنها مقررات حكماء صهيون – إنما هى فطرة، خلقها الله في الإنسان، ثم هى شريعة أنزلها الله للبشر وأقدرهم على تنفيذها بما سخر لهم في الأرض من مقدرات وأرزاق، والله سبحانه وتعالى يذكر بنى آدم بنعمته عليهم في تشريع اللباس والستر، صيانة لإنسانيتهم من أن تتدهور إلى عرف البهائم، وفي تمكينهم منه بما يسر لهم من الوسائل، ومن هنا يستطيع المسلم أن يربط بين الحملة الضخمة الموجهة إلى حياء الناس وأخلاقهم، والدعوة السافرة لهم إلى العرى الجسدى ـ باسم الزينة والحضارة والمودة ـ وبين الخطة لتدمير إنسانيتهم والتعجيل بانحلالهم".

* ضرورة الوعي بالحركات الحلزونية السياسية والإعلامية التي يقدمها لنا الغرب متمثلا في أوروبا الغربية وروسيا بعد تفكك الاتحاد السوفيتى وأمريكا، والتي تجعلنا ندور في دائرة مفرغة لا نستطيع أن نفعل شيئا، بل لا نستطيع أن نقرر شيئا، بل لا نستطيع أن نفكر لنقدر أو نفعل، ولعل أوضح مثال معاصر على ذلك حرب البوسنة والهرسك خلال عامى ١٩٩٢و١٩٩٣م، وقفت القوى الغربية على بكرة أبيها وفي ذيلها الأمم المتحدة تحرم المسلمين من السلاح للدفاع عن النفس، وفي الوقت نفسه تتيح للصرب تصفية الوجود الإسلامي على خطوات ومراحل وتسمح للكروات بالشيء نفسه، وفي الوقت نفسه تعلن أنها تجتمع لتقرر عقوبات على الصرب، ثم تعلن أنها تجتمع لتزيد العقوبات ثم تجتمع لتقرر حظر الطيران، ثم تجتمع لتقرر أنها ستوجه ضربات جوية لذلك

الحصار عن العاصمة "سرايفو" ثم تقول أنها تفوض حلف الأطلنطي، ثم ينعقد الحلف على مستوى السفراء، ثم على مستوى الخبراء، وهكذا تدور الدائرة المفرغة، وفي كل يوم يموت أطفال المسلمين ونساؤهم وشيوخهم مع المجاهدين منهم بالرصاص والقذائف والجوع والبرد.

واجتماعات الغرب الصليبي قائمة تبثها أجهزة الإعلام كل يوم في سلسلة لا متناهية من الألغاز وجذب الانتباه حتى يقف العربي والمسلم مشتتا عاجزا ينتظر حدا، أو إسدال الستار على المسرحية التي تمثل أمامه، والستار لا يسدل والمسلسل يدور في نظام لولبي عقيم.

في حواديت الأطفال في مصر تحكى حكاية ينام عليها الأطفال تقول إن ولدا أراد بيضة ولكن البيضة عند الدجاجة والدجاجة تحتاج إلى حبة قمح ولكن حبة القمح عند الفلاح ولكن الفلاح يريد النجار ليفتح له مخزن القمح ولكن النجار يريد منشارا ليفتح المخزن والمنشار عند الحداد.. وهكذا تدور الحكاية في سلسلة لا متناهية من الحيل حتى ينام الطفل. وهكذا فعل الإعلام الغربي والسياسة الغربية في حربها الصليبية ضد المسلمين في أوروبا، ولا يعقل أن يكون مسلمو البوسنة والهرسك من المتطرفين وإنما هم أوروبيون تماما إلا أنهم يوحدون الله ويؤمنون برسالة محمد ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وعندما تكشف وثيقة دامغة تدرك مغزى الصليبية المعاصر. فقد نشرت مجلة صوت المسلم التي تصدر في البوسنة والهرسك خطابا بعث به رئيس الحكومة البريطانية جون ميجور إلى وزير الدولة " دوجلاس هوج "يوم ٢ مايو ١٩٩٣م.. يقول في بداية خطابه: "أشكرك على تقريرك العميق عن الوضع الحاضر والماضي في البوسنة والهرسك إحدى مقاطعات يوجوسلافيا السابقة وكما تعلم من مناقشتنا السابقة سواء في مجلس الوزراء أو غيره فإن حكومة جلالة الملكة لم تغير موقفها من السياسات التالية " أولا: نحن لا نوافق الآن أو في المستقبل على تسليح أو تدريب المسلمين في البوسنة والهرسك، ثانيا: سنستمر في تأييد حظر السلاح عن طريق الأمم المتحدة في المنطقة رغم علمنا أن اليونان وروسيا وبلغاريا تساعد الصرب بالسلاح والتدريب على حين تساعد ألمانيا والنمسا وسلوفينيا وحتى الفاتيكان القوات الكرواتية في المنطقة، ومن الأهمية البالغة أن نتأكد أن مثل هذه

المساعدات لا تصل إلى القوات المسلمة في البوسنة سواء من الدول الإسلامية أو الجماعات الإسلامية.. وسوف نستمر في هذه السياسة حتى لا تتحول البوسنة إلى دولة إسلامية في أوروبا فهذا أمر لا تحتمله أوروبا.

إن الخطأ الذي ارتكب في تدريب وتسليح المقاتلين الأفغان ضد قوات الاتحاد السوفيتي السابقة قد خلق ما يسمى بالمجاهدين الأفغان. هذا الخطأ لن يتكرر مع الشعب المسلم في البوسنة والهرسك؛ لأن هذا يقود إلى مشاكل حادة في المستقبل خاصة مع تزايد عدد السكان المسلمين في المنطقة "الرجاء النظر في الورقة المرفقة من الولايات المتحدة الأمريكية بعنوان " فجر أوروبا الإيرانية" ثالثا: حتى تستقر مشكلة يوجوسلافيا السابقة يجب بأي ثمن أن نتأكد من عدم نشوء دولة إسلامية في هذه المنطقة، ومن هنا يجب الاستمرار في خطة فانس ــ أوين ومباحثات السلام حتى نؤجل أية حركة في الأحداث لضمان غياب دولة البوسنة والهرسك كدولة وتفرق أهلها من الأرض.. ولقد يبدو لك هذا سياسة قاسية ولكن صناع القرار السياسي وخبراء القوات المسلحة يرون أن هذا هو الطريق لأوروبا مستقرة في المستقبل تقوم قيمها على قيم الحضارة الغربية المسيحية.. وهذه الرؤيا هى "رؤية" الحكومات الأوروبية وحكومة أمريكا الشمالية.

هذا أهم ما جاء في الخطاب الذي نشرته الجريدة البوسنية، وهو وثيقة دامغة تؤكد المؤامرة"[١٠٦]. ولقد حاولت جهات إعلامية غربية القول بأن الوثيقة مزورة، ولكن الرد البليغ هو الواقع المؤلم حقا، إن كل ما فيها تم أمام عيون العالم أجمع، ولكن المخطط يمضى في سبيله. وفي محاولة لتغطية هذه الفضيحة سلطت أجهزة الإعلام الصليبية – على موقف صغير – الأضواء الباهرة لتبين إنسانية بريطانيا والغرب بصفة عامة، لقد نقلت طائرة بريطانية طفلة مسلمة مصابة في المخ بشظية قذيفة صربية إلى لندن للعلاج، وأصبحت هذه الطفلة التي يلقى الآلاف من إخوتها المصير نفسه ــ والأسوأ منه ــ خبرا يتصدر نشرات الأخبار الغربية الصليبية في محاولة رد وتمويه على النموذج المعاصر للحروب الصليبية.

---

(١٠٦) أحمد بهجت ــ وثيقة دامغة ــ جريدة الأهرام بتاريخ ٢٣-٧-١٩٩٣م .

بعد هذه النماذج نتعرض لقضيتين تبرزان الأساس التخطيطي والتطبيقي والتنفيذي لمواجهة الغزو الثقافي في عالمنا العربي المعاصر. القضية الأولى هى قضية الترجمة، والثانية هى قضية التراث.

قضية الترجمة

تعتبر الترجمة الجسر الذي يصل بين الثقافات المختلفة، والوسيلة التي نتمكن بها نحن العرب من الاطلاع على ما توصل إليه الآخرون، وأبدعوا في ميادين العلوم والآداب والفنون[١٠٧]. وتمثل الترجمة الجانب الأساس في مجال الكتاب باعتباره وسيلة اتصال حضارى، ويحدثنا التاريخ عن اهتمام العرب بترجمة أهم الكتب اليونانية إلى اللغة العربية، وأن حركة الترجمة قد بدأت مع الدولة الأموية ثم بلغت شأنا كبيرا في الدولة العباسية، وبخاصة في عصر المأمون الذي اهتم بالترجمة اهتماماً خاصاً، وأنفق عليها بسخاء، ثم جاء الدور على أوروبا في نهضتها الحديثة لتترجم كتب العرب إلى اللاتينية، ولتترجم الكتب اليونانية من النص العربي، ومن هذا الباب الواسع كان الكتاب سفير الحضارات، "لقد دخلت العلوم أوروبا من أسبانيا وصقلية وإيطاليا، وذلك بأن مكتبا للمترجمين في طليطلة بدأ منذ سنة ١١٣٠ م ينقل أهم كتب العرب إلى اللغة اللاتينية تحت رعاية رئيس الأساقفة ريمون، وأن أعماله في الترجمة كللت بالنجاح، ولم يتوان الغرب في أمر هذه الترجمة في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر من الميلاد، ولم يقتصر الغرب على ترجمة مؤلفات علماء العرب كالرازى وأبي القاسم وابن سينا وابن رشد وغيرهم إلى اللغة اللاتينية، بل نقلت إليها أيضا كتب علماء اليونان التي كان المسلمون قد ترجموها إلى لغتهم، كتب جالينوس وأبقراط وأفلاطون وأرسطو وأقليدس وأرشميدس وبطليموس، فزاد عدد ما ترجم من كتب العرب إلى اللغة اللاتينية على ثلاثمائة كتاب، والقرون الوسطى لم تعرف كتب العالم اليونانى القديم إلا من ترجمتها العربية وبفضل هذه الترجمة اطلعت أوروبا على كتب اليونان التي ضاع أصلها اليوناني[١٠٨].

---

(١٠٧) الخطة الشاملة للثقافة العربية ــ المجلد الثالث ــ القسم الثاني ــ مرجع سابق ــ ص ٦٤٩ .

(١٠٨) جوستاف لوبون: حضارة العرب (ترجمة عادل زعيتر) ــ الطبعة الرابعة ــ مطبعة عيسى البابي ــ القاهرة ــ ١٩٦٤م ــ ص ٥٦٨ .

ويؤكد الدكتور يوسف زيدان[١٠٩] الدور التاريخي الحضاري عندما ترجم العرب علوم السابقين عليهم في الحضارة فيقول:

"لما خرج العرب المسلمون من الجزيرة العربية فاتحين ما حولهم من بلدان، أرادوا تأسيس حضارتهم واستكمال مسيرة الحضارة الإنسانية، فاتجهوا إلى ترجمة تراث الأمم السابقة عليهم كاليونان والفرس والهنود، فكان أول ما ترجموه هو كتب العلم، فنقلوا إلى العربية مؤلفات أقليدس وبطليموس وأرشميدس وغيرهم من علماء اليونان في الهندسة والفلك. وفي مجال الطب. نقلوا عن اللغة الهندية كتاب (شاناق) في السموم، وعن اليونانية نقلوا إلى العربية جميع مؤلفات أبقراط: الفصول الطبية ـ تقدمة المعرفة ـ حانوت الطبيب ـ الكسر والجبر ـ أوجاع الرأس ـ الصرع.. الخ، وجميع مؤلفات جالينوس (التي عرفت باسم: منتجات الاسكندرانيين) مثل: فرق الطب ـ النبض ـ التأتي لشفاء الأمراض.. إلخ.

كانت هذه هي أضخم عملية ترجمة في تاريخ الإسلام، وقد استهلكت جهود ثلاثة أجيال من المترجمين الذين نقلوا مئات الكتب والرسائل العلمية إلى اللغة العربية، بل إن (حنين بن إسحاق) قام وحده بترجمة ما يزيد على مائة كتاب طبي يوناني، وكان ذلك بتكليف من الخليفة المأمون هارون الرشيد، الذي وضع (حنين) على رأس (بيت الحكمة) ببغداد، وكان يزن الكتاب المترجم إلى العربية بالذهب، فيكافئ به القائم بالترجمة وكانت بعض الأسر العربية تتخذ لنفسها مترجمين خصوصيين ينقلون لهم التراث العلمي اليوناني إلى العربية، مثل أبناء (موسى بن شاكر) الذين أنفقوا الكثير لترجمة كتب الميكانيكا.. تمت هذه العملية في القرن الثالث الهجرى على نطاق واسع، لتبدأ في القرن التالي عملية الإبداع العلمي العربي، وذلك الإبداع الذي تجلى ـ طبيا ـ في جهود الرازى وابن سينا والزهراوى وظل ممتدا حتى القرن السابع الهجرى متمثلا في جهود ابن النفيس ومعاصريه.

---

(١٠٩) د. يوسف زيدان ـ درس تاريخي في الترجمة ـ جريدة الأهرام بتاريخ ٥-٣-١٩٩٢م .

ولا شك في أن هذه العملية تعطينا اليوم دروسا كثيرة، درسا في كيفية إنفاق العرب الأجداد لأموالهم في العلم والترجمة ـــ وذلك في مقابل إنفاق العرب الأحفاد لأموالهم في الملاهي الأوروبية وعلى شراء السلاح لقتل بعضهم البعض.. ودرساً في وعي الحكام الأوائل بأهمية العلم وبضرورة الأخذ العملي بأسباب تطوره ـــ وذلك في مقابل اهتمام الحكام الأواخر بحياكة المؤامرات لبعضهم والدعاية الجوفاء لأشخاصهم.. ودرساً في إدراك الأسر الغنية لأهمية اقتناء أصول العلم وبذل المال في الترجمة والتعريب – وذلك في مقابل سعي الأسر الحالية لتكديس أموالها في بنوك الغرب.. إلى آخر تلك الدروس المستفادة من عملية الترجمة الكبرى التي تمت في بدء الحضارة العربية لكن الدرس الأهم الذي ينبغي علينا إدراكه، هو أن الأوائل كانوا على وعي تام بما يجب أن يترجم وينقل إلى اللغة العربية، كان لديهم معيار للانتقاء، فأقبلوا على كتب العلم.

.. ولما أرادت أوروبا الخروج من عصورها المظلمة إلى عصر نهضتها التي نرى ثمارها اليوم، أقبلت على القيام بعملية الترجمة الكبرى الثانية، فقامت بنقل كتب العلم العربي إلى لغتها القومية. ففي القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادي) نشطت مراكز الترجمة من العربية إلى اللاتينية، وانفتحت شهية المترجمين، فقام (أندريا الباجو) بترجمة مؤلفات ابن النفيس – ونسبها لنفسه ـــ وقام غيره بترجمة: القانون في الطب لابن سينا والجامع في الصيدلة لابن البيطار، التصريف في الجراحة للزهاوى. وغير ذلك من أمهات كتب الطب العربي لتتواصل بعد ذلك البحوث الطبية في الغرب. حتى يأتى (كلود برنار) ليضع الصياغة المعاصرة للطب الغربي المؤسس على قاعدة التجريب الدقيق.. التجريب الذي كان الأطباء العرب المسلمون قد بلغوا فيه مبلغا عظيما.

ونعود للدرس التاريخى المستفاد من هاتين العمليتين، فنرى أن العرب حين نقلوا عن تراث السابقين، والأوروبيين حين نقلوا من اللغة العربية.. كانت عملية النقل والترجمة تنصب على الجانب (العلمي) من تراث الآخرين، وهو الجانب الذي يعد تراثا إنسانيا تراكميا، ولا يمكن اعتباره ثقافة محلية خاصة، العرب لم يترجموا عن الهندية (الرامايانا) ولم يترجموا عن اليونانية (الإلياذة ـــ الأوديسة ـــ الأعمال والأيام) وذلك لأنهم أدركوا أن هذه النصوص على عظمتها. هى محض نصوص أدبية ودينية تكشف عن طبيعة الثقافة

الخاصة بالهند واليونان، وما كان يعنيهم في الحقيقة هو العلم المتمثل في كتابات شاناق وأبقراط وجالينوس والتي عرفت باسم منتجات والإسكندرانيين، وعندما كتب البيرونى (الآثار الباقية عن القرون الخالية) تحدث عن إسهامات السابقين في الفلك والطب والهندسة والتاريخ والتقاويم، ولم يتوقف كثيرا عند الأدبيات.. وعلى هذا النحو، استفاد العرب بما يعينهم على استكمال مسيرة الحضارة الإنسانية، ولم يتوقفوا كثيرا عند ما يشغلهم عن مهمتهم ويعرضهم لخطر الذوبان في ثقافة الآخر.

وحين ترجم الأوروبيون عن العربية، لم يترجموا (المعلقات السبع) ولم يهتموا كثيرا بأشعار المتنبي ونقائض جرير والفرزدق، وإنما أقبلوا على ما هو عام للإنسانية من نصوص العلم العربي، فصارت مراكز الترجمة في صقلية وباليرمو وأسبانيا تهتم بالأعمال العربية العلمية التي تعينهم على التواصل مع المسيرة التراكمية للعلم، وخرجوا بذلك من مأزق الذوبان في ثقافة العرب وتراثهم الدينى والأدبى.

وكان خطؤنا الأكبر حين بدأنا نترجم عن الغرب في هذا القرن، فقد سعينا – دون هوادة – نحو ترجمة التراث الأدبى الغربي، وما حوله من فلسفات ورؤى غربية. فصرنا نترجم ما هو معاصر من ثقافة الغرب، تاركين العلم الغربي الذي يهمنا في المقام الأول، فكانت النتيجة هى الذوبان في ثقافة الآخر الغربي – وساعد الاستعمار القديم والمعاصر على هذا الذوبان – وابتعدنا عما هو إنساني عام من إنتاج الغرب..ويمكننا اليوم أن نقارن كم ما ترجمناه – واعتنقناه واختلفنا حوله – من النصوص الأدبية والفلسفية الغربية، بما ترجمناه من كتب العلوم المعاصرة.. ويختم الدكتور يوسف زيدان هذا السياق قائلا:

".. مما سبق يتضح لنا ضرورة الإقبال على ترجمة العلم الغربي المعاصر، ومنه الطب بالطبع، لتصحيح مسار السعي الخاطئ في علاقتنا بالإنتاج الحضارى الغربي. وتعريب الطب هو خطوة نحو تصحيح هذا المسار، خاصة أن الطب – كعلم – هو في النهاية إنتاج إنسانى متراكم عبر التاريخ، وكونه اليوم متقدما في الغرب، فذلك لأن الغرب هو الذي طور مرحلته الأخيرة التي لابد أن تتلوها مراحل أخرى. مادام البشر والميكروبات يعيشان معا على هذه الأرض..".

وفي عالمنا المعاصر تمثل ترجمة الكتب في أغلبها اتجاها ذا تدفق واحد، من الحضارة الأوروبية المعاصرة إلى العالم الثالث، وقليل من كتب العالم الثالث التي تحظى بالترجمة إلى إحدى اللغات الأوروبية؛ لذلك كانت ضمن مقترحات مصر في مؤتمر السياسات الثقافية الذي عقد في المكسيك خلال يوليو ١٩٨٢م تحت مظلة منظمة اليونسكو اقتراح بإنشاء مركز عالمي للترجمة يتبع منظمة اليونسكو، تكون مهمته تلقي ما ترشحه الهيئات الثقافية في دول العالم الثالث من أعمال فكرية وأدبية وفنية وترجمته في وقت واحد إلى اللغات الأوروبية وطبعه ونشره وتوزيعه في كل الشعوب التي تتكلم هذه اللغات مع الالتزام بكل الحقوق الخاصة بالمؤلف ودار النشر الأولى، حتى يمكن تعريف المثقف العالمي بإنتاج مثقفي دول العالم الثالث.

ولقد شغلت قضية الترجمة عددا من المترجمين والمثقفين العرب كما شغلت هيئات ثقافية وأكاديمية ووزارات العمل الثقافي. وكان من المنطقي أن تكون المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ساحة لمناقشة قضية الترجمة في عالمنا العربي المعاصر.

على المستوى المهني أدلى المترجمون العرب بشهادتهم في المشاكل المعاصرة للترجمة. يقول الدكتور محمد عناني:

"لم يعد بيننا من ينكر أن ترجمة الأدب العربي المعاصر إلى الإنجليزية تفتح الطريق إلى العالمية أمام كتابنا ــ شبابا وشيوخا ــ وأن الترجمة أصبحت اليوم طريقا ذا اتجاهين بعد أن أمسى لدينا كتاب كبار يشهد لهم العالم بالتفوق والامتياز المطلق، وأعتقد أن الوقت قد حان لاسترداد ثقتنا بأنفسنا ــ أدباء وفنانين ونقاد ــ بعد أن أعلن العالم اعترافه بنا، ولم يعد من المستساغ أن يرمي بعضنا بعضا بالقصور ــ وهو اتهام يستند في أحسن حالاته على خطأ في التقدير ــ ويرجع في أسوأ حالاته إلى دوافع لاتليق بشعب له مثل تراثنا الحضاري ومثل حاضرنا المشرق.

ولكن ترجمة الأدب العربي إلى الإنجليزية باعتبارها أكثر لغات الأرض انتشارا – وفقا لتقديرات الأمم المتحدة – تكتنفها عدة مشاكل أوجزها فيما يلي: لدينا أولا المشكلة الفنية أي مشكلة الترجمة ذاتها وهي كما يعرف ممارسو الترجمة عملية شاقة؛ لأن مترجم الأدب ينبغي أن يكون ملما باللغتين (المترجم منها والمترجم إليها) إلماما يتجاوز حدود

الإجادة العامة إلى التخصص الدقيق، وهو التخصص الأدبي الذي يمكنه من التجاوب مع النص الذي يترجمه تجاوبا يصل إلى درجة الاستغراق والتمثل، ثم هو مطالب بعد ذلك بإعادة صياغته باللغة التي يترجمه إليها صياغة أمينة تبرز مواطن الإبداع الأدبي الكامن في النص الأصلي دون أن تجور على مصطلح اللغة المترجم إليها، أى أن المترجم الأدبي في صورته المثالية ينبغي أن يكون عالما وأديبا معاً ولو تفاوت حظه من هاتين الخاصيتين. وهذا — على ندرته — ليس مستحيلا فأعظم المترجمين العالميين كانوا كذلك سواء كانوا من أبناء اللغة المترجم إليها أو منها.

أما المشكلة الثانية فتتصل بالقدرة الإعلامية إذ إن قدرة الأدب المترجم على النفاذ إلى أسواق بلدان العالم بدلا من الانتظام في رفوف مكتبات الجامعات والمعاهد تتوقف على قدرة الجهاز الإعلامي المصري على النفاذ إلى الأسواق الأجنبية إما بالتعاون مع دور النشر الأجنبية — وهذا هو الطريق الميسر المفتوح ولو كلفنا ذلك بعض المال — وإما بصورة مستقلة عن طريق المعارض والإلحاح على أسواق المكتبات بالإنتاج المصري.

ولدينا ثالثا مشكلة العمل نفسه أى مشكلة اختيار النصوص وتكليف المترجمين والمراجعين والدارسين الذين يكتبون مقدماتها أودراسات نقدية عنها.ولا يستهين أحد بهذه المشكلة التي واجهتها وأواجهها منذ أن بدأنا العمل في هيئة الكتاب في مشروع الأدب العربي المعاصر بالإنجليزية، فالظروف المادية عسيرة إلى أبعد الحدود والمقابل المادى الذي تحدده الدولة محدود إلى درجة مثبطة، والقول بالدافع المعنوى أو الأدبي وحده مردود عليه بأن أمام المترجم الكفء أبوابا أخرى مفتوحة يستطيع فيها تحقيق المكسب الأدبي والمادى جميعا، ولا أستثنى من هذه الظروف ندرة من يجيدون الطباعة بالإنجليزية والمصححين ومن يصممون الأغلفة، أى القائمين على إخراج الكتب بصفة عامة.

هل معنى ذلك إذن أن نترك ترجمة الأدب العربي للمستشرقين ودور النشر الأجنبية؟ بالقطع لا فإن هذا إهمال في حق أدبائنا لا يعدله إهمال، والاعتماد على الأجانب معناه الاستهانة بقدراتنا النقدية واللغوية والإعلامية والتسليم بتعذر التغلب على المشاكل التي ذكرتها. فالواقع أنها لا تستعصى على الحل وإذا تحلينا بقدر من الواقعية في تحديد أجر المترجم مثلا، ونهض جهازنا الإعلامى الخارجي بما هو متوقع منه، ونشطنا في التعاون مع

الأجهزة الثقافية الحقيقية في الخارج مثل كبرى دور النشر والصحف وأجهزة الإعـــلام ووكالات التسويق (من خلال أجهزة وزارة الثقافة ومصلحة الاستعلامات) استطعنا أن نخرج بمشروعنا الوليد إلى العالم بحيث تمثل كتبنا المترجمة أدبنا المعاصر وبحيث تجد طريقها إلى أسواق العالم[١١٠].

وتروى الدكتورة ابتهال يونس عضو هيئة التدريس بقسم اللغة الفرنـــسية بجامعـــة القاهرة تجربتها في ترجمة رواية نجيب محفوظ "زقاق المدق" أو بمعنى أدق إعادة ترجمتـــها فتقول:

* بدأت أولا بترجمة العنوان والدلالات المصاحبة لهذه الترجمة ثم أشرت إلى الأجزاء الهامة من النص الأصلي الذي أغفل المترجم ترجمتها وما أدى إليه هذا الإغفال وتقـــوم دراسة السياق الثقافي في النص المترجم على ثلاثة محاور:

* **أولا**: هو محور الترجمة الخاطئة الناتجة عن قراءة سريعة سطحية وعن عدم الإجادة العميقة للغة العربية والاكتفاء بالمعنى المعجمى من خلال القواميس أى للمعنى الاشتقاقي المباشر وتجاهل المعنى المجازى.

* **المحور الثاني**: يختص بالترجمة الخاطئة الراجعة لعدم فهم أو جهل السياق الثقافي المصري بصفة عامة والسياق الخاص بالأحداث.

ولقد قمت بدراسة المحورين معا وذلك لتداخلهما وصعوبة الفصل بينهما أحيانا.

* **أما المحور الثالث**: فهو الخاص بنقل تعبيرات شديدة الارتباط بالسياق الثقـــافي للنص الأصلي إلى السياق الثقافي الغربي من خلال الترجمة الحرفية فأصبحت بلا معـــنى ومن هنا يستحيل الانتقال من سياق إلى آخر.

ولا تقتصر الصعوبة في الترجمة على الإنتاج الأدبي بل تتعداه إلى لغة الإعلام المفترض فيها شدة الوضوح، تقول الصحفية المصرية مها عبد الفتاح:

---

(١١٠) د. محمد عناني ـــ عن ترجمة الأدب العربي ـــ جريدة الأهرام بتاريخ ٢٤-١١-١٩٨٨م .

"أغرب ما قرأت عن انفتاح جورباتشوف هو التشكيك في المعنى اللغوي ذاته لكلمة "جلاسنوست" الروسية وهي الكلمة التي ترددت وذاعت وصارت أشهر كلمة روسية حفظها العالم عن ظهر قلب ودخلت القاموس الشعبي لقراء الصحف من الناس العاديين!

ولكن سفيرا أمريكيا يعتبر حجة في الشئون السوفيتية والكتلة الشرقية اسمه (ويليام ليورز) كتب في المجلة المتخصصة الشهيرة في السياسة الخارجية (فورن أفيرز) يؤكد أن المعنى اللغوي لكلمة جلاسنوست ليس هو الانفتاح كما ردد العالم وصدق الكثيرون وإنما شيء مختلف!

قال ليورز ـــ وكان سفيرا للولايات المتحدة في تشيكوسلوفاكيا حتى عام١٩٨٦م ـــ إن الترجمة الصحيحة للكلمة هو: النشر في الهواء أو على الملأ.. وإن الكلمة المقابلة لها في اللغة التشيكية هي: (هلازيتوست) Hlasitost بمعنى الصوت العالي أو بأعلى صوت.. ويقول هذا السفير الأمريكي إن التشيك يستخدمون حاليا الكلمة الروسية جلاسنوست في وصف جهود جورباتشوف ولكنهم يعلمون جيدا مثلهم مثل غيرهم من شعوب الكتلة الشرقية أنها لا تعني "الانفتاح" كما هو شائع في العالم وإنما هي تؤدى معنى "الدعاية".. وأكد أن هذا هو المعنى الموجود فعليا في القواميس الإنجليزية ـــ الروسية من ترجمة لكلمة جلاسنوست.

وتفسيره في ذلك هو أن "الإعلام" الأمريكي والبريطاني هو الذي قام بتشويه معنى الكلمة بترجمتها على هذا النحو! وهو يتحدى ويقول لكل من يشكك في قوله أن يفتح أي قاموس روسي ـــ إنجليزي وبحث عن المرادف لكلمة جلاسنوست وهي..نشر أو دعاية!

وبعد نشر هذا المقال بدأ البحث والتنقيب في أصل ترجمة الكلمة منذ البداية وتبين أن وكالة رويتر للأنباء قد استخدمت كلمة "دعاية" كمعنى مرادف لكلمة جلاسنوست وذلك عندما أعلن جورباتشوف لأول مرة عن سياسته الجديدة.. أما وكالة أسوشيتد برس فقد ذكرت "انفتاح أو دعاية" وهكذا بدأ سريان تغيير انفتاح وتناقلته الألسن والأقلام و.. قد كان!.

ثم يدخل إلى الموضوع خبراء التحليل السياسي والنفسي أيضا فقالوا: إن كلمة

انفتاح تستدعى إلى الذهن مشاعر ودودة وإحساسا منعشا وكأنها توحي بتحول ما نحو القيم الغربية.. بينما تعبير دعاية أو مذاع على الملأ وهو المعنى الدقيق لكلمة جلاسنوست، إنما يستدعى أشياء أخرى أقلها أن تستخدم المعلومة في خدمة القيادة.. أى الدعاية.

ويدخل في المسألة أعضاء حزب المتشككين في كل ما هو سوفيتى "أو جورباتشوفي" قالوا إذن لابد أن نوجد تعبيرا آخر غير كلمة انفتاح لأنه على هذا النحو إنما تقدم إليه هدية مجانية على طبق من الفضة أى إلى جورباتشوف.. وغير هؤلاء هناك من انهال باللوم والتقريع على هؤلاء الكتاب والصحفيين الذين بدلا من أن يكونوا حراسا على اللغة السياسية تحولوا إلى إشاعة الأوهام والآمال الكاذبة من جراء إهمالهم وتواكلهم وتكاسلهم عن استنباط تعبيرات دقيقة وجديدة"![(١١١)].

ولعل من أفضح صور الغزو الثقافي تسمية الاستعمار، فهذه الكلمة في اللغة العربية تعنى السعى والطلب في العمران والتقدم، وبرغم أن الوجدان تجاه الكلمة يدرك المعنى الأصوب وهو الاستخراب إلا أن اللفظ مشكك في حد ذاته، وبرغم أن الفهم العربي والعقل العربي يكن للكلمة حشدا من البغض والكراهية فإن ظلا من الخلل يعكسه هذا الاستخدام اللغوى الخاطئ الناتج عن ترجمة خاطئة.

إن للترجمة دورا تاريخيا في الاتصال الثقافي على مدى الحضارات والعصور، وهذا الدور شأنه شأن الوسائل الأخرى من وسائل الاتصال، يمكن أن يكون صالحا إذا أحسن استخدامه، ويمكن أن يكون مفسدا إذا اقتصر على ترجمات دعائية مقصودة، أو ترجمات فاسدة ومفسدة، وعلى البلد النامي أن يختار، وأن يخطط لما يترجمه، ولكن المشكلة أن ظروف التخلف كثيرا ما تجعل هذا الدور مفتقدا، ويصبح التنبيه إليه والاهتمام به ضرورة ثقافية ملحة، ومثال على الاهتمام بقضية الترجمة ودورها المفتقد كانت ندوة الترجمة والتنمية الثقافية التي عقدتها في مصر لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة

---

(١١١) مها عبد الفتاح ــ انفتاح جورباتشوف خطأ في الترجمة ــ جريدة الأخبار بتاريخ ١٨-١١-١٩٨٧م .

بالاشتراك مع هيئة الكتاب عام ١٩٩١، جاءت هذه الندوة تعبيرا عن هذا الاهتمام، ويقظة الضمير الثقافي في مصر للسلبيات التي ترتبت على غياب دور الترجمة، ولقد اشتركت في جلسات هذه الندوة مجموعة كبيرة من أساتذة الجامعات ورجال الفكر في مصر، وطرحت الندوة اجتهاداتها لإعادة الفعالية لحركة الترجمة، وأبانت عن أهمية الترجمة في حركة التنمية الثقافية القومية، وقد انتهت الندوة بعد مناقشاتها إلى إصدار التوصيات التالية:

* إنشاء مركز توثيقي يتبع لجنة الترجمة ــ بالمجلس الأعلى للثقافة ــ به معلومات عن المترجمين والكتب المترجمة، ولابد أن يقوم هذا المركز بتحديد الكتب التي تجب ترجمتها حسب الأهمية ــ على أن تشارك في هذا المركز الجامعات والمؤسسات المعنية بالترجمة.

* تنظيم ندوات متتابعة تتناول الموضوعات الهامة والخاصة بالترجمة وإعداد المترجمين.

* إصدار مجلة فصلية أو سنوية تختص بالترجمة وبحوثها تحت إشراف وزارة الثقافة.

* ضرورة إصدار ملحق بالمصطلحات الجديدة الواردة في النص المترجم إلى العربية وأن تلتزم دور النشر بذلك عند إصدارها للكتب العلمية المترجمة من اللغات الأخرى.

* إنشاء بنك للمصطلحات بواسطة الحاسب الإلكتروني لخدمة المترجمين.

* رصد جائزة دولية تقديرية خاصة بنشاط الترجمة.

* رفع أجر الترجمة إلى مستوى يتفق مع مقتضيات العدالة الاجتماعية والعمل على سرعة إصدار القرار الجمهوري بتعديل مكافآت الترجمة المعروضة على مجلس الوزراء.

* ضرورة وضع برامج لتدريب المترجمين وتنظيم حلقات نظرية وعملية لهم في الجامعات.

* ضرورة تنفيذ مشروع الموسوعة العربية، وإصدار معاجم مختلفة ثنائية اللغة عامة ومتخصصة، ومناشدة مجمع اللغة العربية نشر المعاجم التي تصدر عنه على نطاق أوسع.

* ضرورة إصدار ثبت ببيلوغرافي للأعمال المترجمة إلى اللغة العربية في كل البلاد العربية.

* إنشاء رابطة للمترجمين والعمل على حماية حقوقهم الأدبية والمادية"[١١٢].

وبرغم أهمية المؤتمرات على المستوى القطري التي عقدت في البلدان العربية إلا أن الخطة الشاملة للثقافة العربية عرضت خطة قومية للترجمة، تتجاوز في أهميتها كافة التوصيات السابقة لها، وتصبح مرجعا هاما للهيئات المشتغلة بالترجمة في الوطن العربي وهذه تفاصيلها[١١٣]:

ملامح الخطة القومية:

لابد لنا عند صياغة مشروع خطة قومية للترجمة من التعرض إلى هذه الموضوعات:

أ – المنطلقات.

ب– الأهداف.

جـ–الأسس.

د – الوسائل.

هـ – المراحل.

و – طرائق التنفيذ.

أ – المنطلقات:

١– إن العرب أمة واحدة ولو تعددت أقطارها ودولها تجمعها مقومات القومية التي عز أن تجتمع لأمة أخرى مثلها ومن أهم هذه المقومات وحدة اللغة ووحدة الثقافة

٢– بنى العرب حضارة اتسمت بالشمول والغنى والأصالة والانفتاح على الحضارات الأخرى وانعقدت لهم الريادة في مجال الفكر والثقافة قرونا عديدة.

٣– أسهم العرب في إغناء المعرفة الإنسانية عبر العصور وقدموا للبشرية منجزات جليلة الشأن في ميادين الفكر والأدب والفن.

٤– يسعى العرب في هذا العصر للتغلب على التحديات التي تواجههم: التخلف

---

(١١٢) عبد العال الحمامصي ــ دور الترجمة ــ مجلة أكتوبر ــ بتاريخ ١٩٩١/٤/٢١م .

(١١٣) الخطة الشاملة للثقافة العربية ــ المجلد الثالث ــ الجزء الثاني ــ ص ٦٥٩ إلى ص ٦٦٩ .

obeikandl.com

والجهل والتجزئة والتسلط الأجنبي وذلك لبناء مجتمع عربي نام متحرر وموحد.

٥- يعمل العرب للانفتاح على الفكر الإنساني السليم والعلم الحديث والمشاركة في بناء الحضارة الإنسانية المعاصرة على أساس العدل والسلام والتعاون بين الشعوب.

ب - الأهـــــداف:

تتوخى الخطة القومية للترجمة تحقيق الأهداف التالية:

١- إغناء الفكر العربي وإخصابه بروائع التراث العالمي.

٢- إرساء نهضة علمية بنقل العلوم المختلفة والتكنولوجيا الحديثة.

٣- نقل الدراسات العميقة في شتى فروع المعرفة لتعزيز البحث العلمي.

٤- المساعدة على تعريب التعليم بشتى مراحله وأنواعه في جميع البلدان العربية.

٥- تعريف المواطن العربي بقضايا العصر ومشكلاته.

٦- تعريف العالم بنتاج الفكر العربي.

٧- تطوير اللغة العربية بحيث تصبح قادرة على التعبير عن متطلبات الثقافة الحديثة.

جـ - الأســـــــس:

تقوم الخطة القومية للترجمة على أسس صحيحة في اختيار الكتب والمترجمين والمراجعين، واللغات التي يترجم منها.

اختيار الكتب: تختار الكتب التالية:

- الكتب التي أحدثت اتجاها جديدا أو مدرسة فكرية في الثقافة الإنسانية في العلم والأدب والفن.

- أمهات الكتب، أى الكتب التي تجمع شتات المعرفة في ميدان واحد أو فرع واحد وتعتبر مراجع في موضوعاتها.

- الكتب التي تلبى احتياجات حقيقية عند الطفل والشاب والكهل وعند القارئ العادى والمثقف والمتخصص، وتنمى ثقافتهم وتساعد على نشر الثقافة الجماهيرية.

- الكتب التي تسهم في تنمية الثقافه العلمية والمهارة التقنية.

- الكتب التي تعالج شئون التنمية الاقتصاديه والاجتماعية والثقافية وتنقل تجارب

الشعوب والدول في هذا المضمار.

- الكتب التي ألفت عن البلدان العربية وبخاصة القضية الفلسطينية ـــ قضية العرب الأولى ـــ.

- الكتب التي تتناول الفكر العربي الإسلامي في الماضي والحاضر بموضوعية ونزاهة

- الكتب التي تمثل نتاج الفكر العربي الخلاق، قديمة وحديثة، لنقلها إلى اللغات الأجنبية الرئيسة.

اختيار المترجمين والمراجعين: يشترط في المترجم ما يلي:

١- أن يكون متمكنا في موضوع الكتاب وإذا كان الكتاب في العلوم والتكنولوجيا يجب أن يكون مختصا في الموضوع وأحيانا ينبغي توافر التخصص الدقيق في موضوع بعينه.

٢- أن يكون متقنا للغة العربية وعارفا قواعدها الصرفية والنحوية وملما بأصول البلاغة إلى حد القدرة على إنشاء الجملة القوية والعبارة السليمة.

٣- أن يكون مطلعا على المصطلحات العلمية وطرائق وضعها: الاشتقاق والتعريب والمجاز والنحت وما إلى ذلك.

٤- أن يكون متقناً للغة الأجنبية التي ينقل عنها، قواعد وأسلوب.

٥- يشترط في المراجع أن يكون جامعا شروط المترجم بل متقدما عليه معرفة وخبرة في الموضوع المترجم واللغتين العربية والأجنبية المنقول منها كي يستطيع ضبط الترجمة واستدراك ما فيها من نقص وتقويم ما يشوبها من خطأ أو ركاكة.

وإذا تعدد مترجمو الكتاب الواحد اقتضى الأمر تعيين منسق بينهم يعنى بتوحيد المصطلح والأسلوب.

٦- ينبغي أن تتوافر مثل هذه الشروط فيمن ينقل كتابا عربيا إلى لغة أجنبية.

اختيار اللغات:

لابد من تحديد اللغات التي يترجم منها وإليها وينبغي:

١- أن تكون الترجمة من اللغة التي كتبت بها المؤلفات ـــ ولا يصح النقل عن لغة وسيطة إلا في حالة الضرورة.

٢- أن تكون الترجمة من اللغات التي توضع بها المؤلفات المشتملة على البحوث والمعلومات العلمية المتطورة وهي: الإنجليزية والفرنسية والروسية وينظر مستقبلا في الترجمة من لغات أخرى. أما الآداب فيجب نقلها عن اللغات التي كتبت بها في الأصل إلا في حالات خاصة يتعذر في مثلها العثور على المترجم القدير.

٣- أن يتم نقل المؤلفات العربية إلى اللغات الأجنبية الأكثر شهرة واتساعا.

د - **الوسائل**: يتطلب تنفيذ الخطة القومية للترجمة تأمين الوسائل التالية:

١- المعاجم والمصطلحات:

من شروط الترجمة الناجحة أن ينقل النص من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربية بألفاظ عربية فصيحة بعيدة عن العامية والخطأ وتتألف في جمل وتراكيب خالية من التعقيد والغموض كيما يتم إيصال المعنى إلى القارئ إيصالاً حسناً فيتناول النص بلا عناء فيفهم معانيه ويتأثر بما يتضمن من مشاعر وصور، وينبغي للمترجم أن يستعمل اللفظ الدقيق الملائم مقابل اللفظ الأجنبي ولاسيما إذا كان مصطلحا علميا، ولابد له إذا ما أراد العثور على المصطلح الصحيح، ولاسيما في الموضوعات العلمية الدقيقة، من معجم أو معاجم يستعين بها ويطمئن إلى ما تقدمه إليه من تحديد وشرح وإيضاح للمفردات التي يرغب في استخدامها، ولا يوجد حتى الآن، على كثرة المعاجم الموجودة في السوق العربية، المعجم الذي يسد الحاجة ويفي بالغرض، ولذا نرى من الأهمية بمكان العمل على إيجاد: معجم إنجليزي ــ عربي، عربي ــ إنجليزي، ومعجم عام ثان فرنسي ــ عربي، عربي ــ فرنسي، يكونان وافيين المادة ومتميزين بالدقة، وعلى إيجاد: معاجم متخصصة ثنائية اللغة أو ثلاثية اللغة في كل باب من أبواب المعرفة: معجم طبي معجم هندسي، معجم في الفيزياء، معجم في علم النفس.. وينبغي أن تستوعب هذه المعاجم جميع الجهود التي بذلت في الوطن العربي في الحقل المعجمي والإفادة منها، وفي مرحلة متقدمة ينبغي إيجاد مثل هذه المعاجم بالنسبة للغات الروسية والألمانية والأسبانية.

إن النتائج التي توصل إليها مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي بالرباط على الرغم من الجهود التي بذلها طوال عشرين سنة لغرض تنسيق المصطلحات العلمية

وإصدار معاجم بها لا تفي بالغرض حتى الآن، على أهميتها، إذ إنه لم يتوصل بعد إلا لإقرار قسم من مصطلحات التعليم العام وشرع في رسم مصطلحات التعليم العالى، ولابد من مضاعفة الجهد واختصار الزمن لإكمال العمل الجليل الذي ينهض به.

إن جهدا عربيا كبيرا يجب أن ينصرف إلى إنجاز توحيد المصطلح العلمي وإصدار معاجم عامة ومتخصصة، وهذا أمر يقع العبء الأول فيه على عاتق مجامع اللغة العربية التي يجب عليها كذلك أن تضع كتابا دليلا يضم القواعد (المنهجية) التي تعين على وضع المصطلح أو تعريبه، هذه القواعد التي تتضمنها أعمال المجامع وقراراتها في نصف القرن الأخير.

٢ - إعداد المترجمين:

إن الرغبة في الترجمة تختلف عن القدرة عليها، فإن الشروط الأولية للمترجم الجيد هي اختصاصه في موضوع الكتاب المترجم وإتقانه اللغة العربية واللغة الأجنبية المنقول منها. ولكن الترجمة هي أكثر من المعرفة العلمية والأدبية واللغوية هي فن يحاذى التأليف ويقارب الإبداع، إن الفهم الدقيق للمعنى المراد نقله واستشفاف العاطفة المستترة وراء العبارة واستجلاء الصورة المرتسمة في خيال الكاتب ثم اختيار اللفظ العربي الملائم والجملة البارعة الصياغة، كل هذا يدنى النص المترجم من النص الأصلي.

الترجمة معرفة وممارسة، ولا يصح أن تترجم كتب علمية أو ثقافية على سبيل التعليم أو التمرن أو التكسب، إن عدم ترجمة كتاب ما خير من ترجمته ترجمة رديئة تشوه معانيه وتسئ إلى المؤلف والقارئ في آن واحد.

ومن هذا نستنتج أن ثمة ضرورة لتأهيل المترجمين أو زيادة كفاءتهم عن طريق إقامة دورات تدريبية لهم، ومن الممكن تنظيم دورة تأهيلية لكل فئة منهم تعمل في مجال معين من مجالات العلم أو الثقافة، في إحدى الجامعات أو مراكز البحوث والدراسات تتم فيها مناقشة أصول الترجمة وأساليبها وتترجم فيها نماذج من النصوص مع مناقشات لغوية، وكذلك ينبغى الاستفادة إلى الحد الأقصى من خريجى معاهد الترجمة في الأقطار العربية وأقسام الترجمة في جامعات الوطن العربي.

٣- تشجيع المترجمين:

إن الأجور التي تدفع للمترجمين باسم تعويضات أو جوائز أو مكافآت لقاء عملهم ما تزال حتى الآن، وفي أغلب الأحيان، غير مجزية ودون الحد المطلوب ولاسيما أنهم يقومون بعمل الترجمة في أوقات راحتهم لكونهم غير متفرغين لها، ولذا يحسن بالجهات المسئولة عن العمل الثقافي أن تشجع المترجمين ولاسيما المجيدين منهم وذلك بتقديم جوائز تشجيعية لمن ترجم أفضل كتاب في موضوع: علمي أو أدبي أو فني، وجوائز تقديرية لأفضل المترجمين في مجال ما، عن مجمل إنتاجهم وتقديرا لما قدموا من خدمة للثقافة العربية، ويظل هدفا مهما أن يتفرغ المترجمون المجيدون لعمل الترجمة وتكفل مؤسسات الترجمة والنشر الحكومية والخاصة لهم دخلا كافيا يستغنون به عن كل عمل آخر.

هـ - المراحل:

إن تحديد منطلقات الخطة القومية للترجمة وأهدافها وأسس اختيار الكتب والمترجمين والمراجعين واللغات التي يترجم منها، ووسائل الترجمة، يمهد لمعرفة الطريق الواجب اتباعها ويساعد على وضع برامج تنفيذية تعتمد على أولويات تعينها حاجات المجتمع العربي وخطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية المعتمدة في البلدان العربية وبرامج التدريس في التعليم العام والجامعي وحاجات القراء على اختلاف أعمارهم وميولهم الثقافية.

إن العمل في ميدان الترجمة عمل متكامل لأن المعرفة كل لا يتجزأ والثقافة وحدة لا تنفصم، ولكن التدرج وفق سلم أولويات، ضرورة عملية يقتضيها التخطيط السليم، وفي مقدورنا أن ندرج، وفقا لذلك السلم، التدرج التالي:

أولا : كتب العلوم والتكنولوجيا:

١- كتب العلوم الأساسية البحتة: (الرياضيات، والفيزياء، والكيمياء، والجيولوجيا، والبيولوجيا، وعلم النبات، وعلم الحيوان).

٢- كتب العلوم التطبيقية:

أ - العلوم الطبية: الطب البشرى، وطب الأسنان، والصيدلة، والتمريض، والطب البيطرى.

ب- العلوم الهندسية: الهندسة المدنية، والمعمارية والميكانيكية والكهربائية والنفطية والصحية والإنشائية، والإلكترونيات والحاسبات.

جـ- العلوم الزراعية: المحاصيل الزراعية والبساتين والغابات والآفات الزراعية والنباتات البيئية والصناعات الغذائية، وتربية الحيوان.

٣- كتب العلوم الاجتماعية الإنسانية: علم النفس، وعلم التربية، وعلم الاجتماع، وعلم السكان، والتاريخ، والجغرافيا، والاقتصاد، والمالية، وعلم السياسة، واللسانيات، والمذاهب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

مع مراعاة نوعين من هذه الكتب: ما يصح أن يكون كتابا مقررا أو منهجيا وما يصح أن يكون مرجعا موسعا.

ثانيا: الكتب العلمية المبسطة:

الغرض منها توجيه الجيل الناشئ إلى التعلق بالعلم ومنجزاته وتنمية ميله إلى الابتكار والاختراع: كتب مبسطة في الفيزياء والكيمياء والكهرباء والفلك وعلم الفضاء.

ثالثا: الروائع الفكرية:

يقصد بها الآثار الفكرية: الفلسفية والأدبية التي يشهد لها بالامتياز على الرغم من مرور زمن على وضعها: مؤلفات ديكارت وجوته،وديكتز تولستوى وهيغل.

رابعا: روائع الفكرى العربي:

السعى لنقل تراثنا الفلسفي والأدبى والعلمى القديم والحديث إلى اللغات الأساس في العالم.

ومن المهم أن نلاحظ أن هذا التسلسل قد يصعب التقيد به تقيدا صارما ولكنه دليل مفيد ومؤشر صالح.

ومن المؤكد أن باب الترجمة لن يغلق في المستقبل من العربية إلى اللغات الأخرى وبالعكس، لأن التواصل بين الشعوب والثقافات صار سمة العصر وسيظل في نمو مستمر، لأن الدراسات والبحوث في ميادين العلم تأتى كل يوم بجديد، وفي كل بقعة من العالم تظهر أعمال أدبية تستحق الترجمة من لغة إلى أخرى دون انقطاع.

و – طرائق التنفيذ:

إن تنفيذ الخطة القومية للترجمة يتم على أساس التعاون الفعال بين المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وبين الأجهزة والمؤسسات المختصة في البلدان العربية.

إن نهوض المنظمة بعمل التخطيط والتنسيق على المستوى القومي لا يقلل من دور أية بلد من البلدان العربية في التخطيط والتنسيق على المستوى الوطني، بل يؤكده ويكمله، لأن الخطة القومية هي حصيلة الخطط الوطنية في كل بلد من جهة والدافع إلى تطور هذه الخطط من جهة ثانية، ونستطيع القول: إن تفاعلا دائما يجب أن ينشأ بين هذه وتلك فيقومان بالعمل في خطين متوازيين فلا يتوقف أحدهما على الآخر، بل يسيران جنبا إلى جنب بغية التكامل وتحقيق القصد.

وسنتعرض فيما يلي إلى دور كل من الدول العربية في تنفيذ الخطة القومية للترجمة: يمكن تلخيص دور كل قطر من الأقطار العربية في هذا المجال بما يلي:

١- الإدارات والمؤسسات الحكومية ودور النشر الخاصة والقوانين الناظمة لأعمال الترجمة:

بدأ عمل الترجمة بمبادرات أفراد ثم تولته دور نشر خاصة يملكها أفراد أو شركات، ثم أحدثت إدارات ومؤسسات حكومية لهذا الغرض ويلاحظ رجحان دور المؤسسات الحكومية على دور النشر الخاصة في بعض الأقطار والعكس في أقطار أخرى مع الاتجاه إلى تخصص المؤسسة أو دور النشر بموضوع علمي أو أدبي أو فني معين.

وانطلاقا من هذا الواقع يحسن بكل قطر عربي القيام بما يلي:

أ – تقديم الدعم المعنوي والمادي لمؤسسات الترجمة والنشر الحكومية لتتمكن من أداء مهمتها على الوجه المطلوب ومساندة دور النشر الخاصة مع إدخال نشاطها من مخطط الدولة العام للترجمة والنشر وتشجيع هذه المؤسسات والدور على التخصص في موضوعات معينة.

ب– إحداث إدارات أو مؤسسات للترجمة والنشر أو التشجيع على قيام دور للترجمة والنشر خاصة في الأقطار التي لا تتوافر فيها أو التي ليس فيها العدد الكافي.

ج – إصدار التشريعات اللازمة لتنظيم حركة الترجمة والرقي بها وحماية حقوق المترجمين وتحديد واجباتهم.

٢- التخطيط والتنسيق والتنظيم والتوثيق:

حرصا على إيجاد ترتيب ملائم للحركة ضمن القطر العربي الواحد ولاسيما إذا وجد فيه عدد من الإدارات والمؤسسات ودور النشر التي تعنى بما تترجمه، يحسن إنشاء جهاز (هيئة أو لجنة دائمة) تتمثل فيه تلك الإدارات والمؤسسات والدور ويتولى المهام التالية:

أ - وضع خطط للترجمة والنشر على نطاق القطر، وفق الاحتياجات القائمة والإمكانات المتوافرة.

ب- تبادل المعلومات والتعاون فيما بينها في النواحي الفنية والمالية والتسويقية والإعلامية.

جـ - تنظيم الاتصال والتعاون مع الأجهزة المماثلة في الأقطار العربية الأخرى.

د - تنظيم الاتصال بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومدها بالمعلومات والقوائم والكشوف التي تملكها، والتعاون معها على تنفيذ الخطة القومية للترجمة.

هـ - تنظيم الاتصال مع المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) والهيئات الدولية والأجنبية والعربية الأخرى مثل اتحاد المترجمين الدولي واتحاد الناشرين العرب واتحاد الموزعين العرب والجامعات والمجامع العلمية واللغوية والمجالس والاتحادات العلمية والمهنية، وإصدار بيبلوغرافيات بالكتب المترجمة سنويا وتنظيم سجل لها.

٣- حقوق المؤلفين:

إن موضوع حقوق المؤلفين مطروح منذ سنوات عديدة وتعمل منظمة اليونسكو وهيئات دولية خاصة على إقراره، ويلاحظ أن عددا من الأقطار العربية تأخذ بمبدأ الاستئذان من المصدر الأصلي للكتاب: المؤلف أو الناشر أو كليهما وفقا للاتفاقيات بهذا الشأن، وبعضها الآخر لا يأخذ بهذا المبدأ، ويبدو مهما في هذه المرحلة مراعاة حقوق المؤلفين العرب والمصادقة على الاتفاقيات العربية لحماية حقوق المؤلف التي أقرها مؤتمر الوزراء المسئولين عن الشئون الثقافية في الوطن العربي في دورته الثالثة المنعقدة ببغداد من ٢-٥ /١١/١٩٨١م، ولذا يحسن أن توقع جميع الدول العربية هذه الاتفاقية وتراعى أحكامها.

٤- اختيار الكتب المترجمة:

إن نقطة البداية في نجاح الترجمة هي اختيار الكتاب المراد ترجمته لأن الإنتاج الفكرى في العالم المتقدم قد بلغ من حيث الكيف والكم حدا معجزا، مما يستدعى انتقاء ما يراد ترجمته.

ويحسن في عملية الاختيار اعتماد الأسس التالية:

أ - أن يلبى الكتاب حاجة أساس لدى فئة من فئات القراء أو يلبى متطلبات التنمية والتقدم في هذه المرحلة التاريخية التي يجتازها المجتمع العربي في الوقت الحاضر.

ب- أن تراعى (الحداثة) في الاختيار إذ إن للكتب العلمية، بخاصة، أعمارا تنقضى بفعل التطور العلمي ونتيجة البحوث والكشوف الجارية، وهذه الأعمار تختلف من موضوع علمي لآخر ولكنها أخذت تقصر باستمرار بسبب التطور السريع الذي يطرأ على المعارف العلمية في الحقبة الأخيرة.

ج - إيجاد توازن بين الأنواع المختارة: علوم، آداب، فنون، كيلا يغفل نوع يكون ثمة حاجة إليه، مع وضع سلم أوليات لأنواع الكتب المطلوبة، ومراعاة تعدد المصادر واللغات المترجم منها كيلا يكون التقيد بلغة واحدة ومصدر واحد، إذ المفضل هو البحث عن الأفضل في كل مكان وبكل لسان.

د - الاهتمام بما ينمى التفكير العلمى لدى القارئ لأن التفكير العلمى هو المدخل إلى كسب العلم بشكل صحيح فهما وتطبيقا.

أما اختيار الكتب المراد نقلها من اللغة العربية إلى اللغات الأجنبية فينبغى انتقاؤها على أسس محددة أيضا تستهدف إبراز العربية المعبرة عن الإبداع العربي في القديم والحديث.

٥- المستوى الفنى للترجمة:

إن الترجمة إلى اللغة العربية ينبغى أن يتوافر لها مستوى فنى معين من الإجادة والدقة في نقل المعنى وصوغ العبارة واستخدام المصطلح ويمكن الاعتماد من حيث المبدأ على مراعاة الهدفين التاليين:

١- الناحية اللغوية للتأكد من سلامة اللغة العربية من حيث بنية الجملة وتركيبها

ومراعاة قواعد الصرف والنحو والإملاء تحاشيا لكل خطأ قد يقع فيه المترجم.

٢- الناحية النصية: لضبط المعاني والتأكد من توفر الأمانة في النقل وعدم إغفال جملة أو كلمة أو حاشية أو تعليق في النص. ولذا يحسن أن يراعي القائمون على الإدارات والمؤسسات الحكومية ودور النشر الخاصة المهتمون بالترجمة المستوى الفني للترجمة والاعتماد على المراجعة، كلما وجدوا ضرورة لذلك.

٦- تكوين المترجمين وتدريبهم:

إن المترجم الجيد لا يتكون مصادفة بل بفعل التعليم والتدريب والممارسة، ويلحظ وجود عدد لا بأس به من المترجمين العرب في فروع المعرفة المختلفة إلا أن المجيدين منهم قلة.

وبغية تكوين مترجمين أكفاء يحسن العناية بالترجمة في مراحل التعليم المتوسطة والثانوية من خلال تعليم اللغات وإحداث معاهد للترجمة بعد المرحلة الثانوية أو بعد مرحلة الدراسة الجامعية الأولى أو فتح أقسام خاصة بالترجمة في كليات الآداب لإعداد مترجمين كتابيين ومترجمين فوريين.

إن بعضا من خريجي هذه المعاهد والأقسام يستطيعون، إذا ما توفر لهم الميل والموهبة أن يمارسوا الترجمة العلمية والثقافية ولو في بعض الميادين.

ومن الممكن من أجل دعم الترجمة التخصصية أن تنظم دورات تدريبية مكثفة لمترجمين في مجال محدد كالطب أو الهندسة أو النفط أو الإلكترونيات.. تساعدهم على الارتقاء بمستوى الترجمة وإتقان أساليبها وطرائقها.

كذلك يمكن للدولة أن تمنح جائزة تشجيعية في عام محدد لمن ترجم أفضل كتاب في موضوع ما أو تمنح جائزة تقديرية لمن قدم إنتاجا مترجما متميزا.

٧- جمعيات المترجمين واتحاداتهم:

إن الترجمة عمل قائم بذاته ومستقل عن كل عمل آخر وتبعا لذلك ينبغي أن يلتقي المترجمون في تنظيم مهني، رابطة أو جمعية أو اتحاد، يرقى بمستوى العمل ويحدد واجبات المترجمين ويوحد صفوفهم ويدافع عن حقوقهم المعنوية والمادية، وقد دلت المعلومات التي تم الحصول عليها على وجود اتحاد للمترجمين في الجمهورية العراقية والجمهورية الجزائرية

الديمقراطية الشعبية في حين أن المترجمين يقبلون أعضاء في اتحاد الكتاب العرب في الجمهورية العربية السورية وأعضاء في رابطة الأدباء والكتاب والفنانين في الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، ومن المستحسن أن ينشأ تنظيم نقابي خاص للمترجمين في كل قطر عربي، ولاسيما في الأقطار التي يتوافر عدد كاف من المترجمين فيها، وبعدئذ تلتقي هذه الاتحادات في اتحاد عربي عام للمترجمين يقيم صلات تعاون مع الاتحاد الدولي للمترجمين.

٨- تداول الكتاب المترجم وتوزيعه:

يلاحظ أن رواج الكتاب داخل القطر الذي ترجم فيه مقبول، بل يسبق أحيانا توقعات المسئولين عن ترجمته ونشره ولاسيما أن مؤسسات الترجمة والنشر الحكومية تعمد إلى بيع الكتاب المترجم بسعر التكلفة وأحيانا بأقل منها باعتبار أنها تؤدى بذلك خدمة ثقافية للمواطنين.

بيد أن تداول الكتاب بين الأقطار العربية ليس مرضيا ولا يسيرا بسبب الصعوبات الناشئة عن المراقبة وكلفة الشحن والرسوم المالية والجمركية والإجراءات الإدارية والمصرفية.

وفي هذا المجال يحسن أن تثابر المؤسسات الحكومية على خطتها في تقديم الكتاب المترجم للقارئ بسعر مخفض وأن يعمد إلى تخفيف القيود التي تعرقل انتقال الكتاب من قطر عربي إلى آخر كما يحسن أن تعقد اتفاقات ثنائية بين قطرين عربيين بشأن تسهيل انتقال الكتاب وتخفيف أجور الشحن والرسوم.

ومن وسائل ترويج الكتاب المترجم في الوطن العربي يمكن الأخذ بما يلي:

١- الإعلان عنه والتعريف به ونقده أو نشر ملخصات أو تعليقات أو أجزاء منه في الصحف والمجلات ووسائل الإعلام الأخرى.

٢- إقامة معارض متجولة للكتب المترجمة، تنتقل بين الأقطار العربية للتعريف بها وتيسير اقتنائها للقراء.

قضية التراث:

تظل كتب التراث موضوعا حيا وساخنا في الثقافة العربية والإسلامية وتظل سابع

التراث زادا حضاريا يمكن الاستفادة به في صنع المستقبل. وعندما يذكر التراث يـذكر الكتاب المخطوط والوثائق والكتاب المحقق الذي تم نشره.

ويرتبط الكتاب بالتراث ارتباطا وثيقا، لأنه أهم وأكبر وأخطر أوعية التـراث، وفي عالمنا العربي والإسلامي الرباط أوثق، وتبدو كلمة التراث فخمة ومحاطـة بـشيء مـن القداسة في حين أن التراث عموما يحوى أحيانا أشياء عديمة القيمة، بل وأشياء ضارة كما أن الأغاني الشعبية والرقص وحكايات الجدات والأساطير وكافة أشكال "الفولكولـور" تصنف ضمن التراث، ولكن التراث المرتبط بالكتاب العربي على وجه الخصوص يطلـق على كنوز المعرفة التي خلفتها الحضارة العربية الإسلامية في عصور ازدهارها، برغم ما بها من بعض الشوائب، هذا بطبيعة الحال غير التراث الفكري الإسلامي الذي يسير في حياة الأمة العربية سير الدم في العروق، وهذا التراث (الديناميكي) قد نحس به وقد لا نحـس ولكنه يحكم حياتنا المعاصرة إحكاما شديدا، و في هذا الإحكام الشديد ما يجعل مشكلة التراث في حياتنا المعاصرة مشكلة حية مشتعلة متجددة.

ونحن نستخدم تعبيرات متعددة حول قضية واحدة هي إحياء التراث، فنقول: تحقيق التراث. ونقول: مشكلة التراث. ونقول الاهتمام بالتراث.وهذه القضية لا يكاد مفكر عربي إلا وأدلى فيها بدلوه.

يقول الدكتور حسين مؤنس: التراث يشمل ثلاثة أشياء: تراث يختـص بالكتـب والمؤلفات، وتراث العلم الذي انتقل إلى الغرب وبلاد العالم، وأصبح جزءا من حـضارة العالم، وتراث التقاليد والعادات والمأثورات، وهو غير مدون في كتب وإنمـا يتمثـل في الناس والأشخاص، فأما تراث الكتب فهو تراث جليل لأن أية أمة من الأمم الماضـية لم تكتب من الكتب قدر ما كتب العربي، ويكفي أن أذكر أننا نقدر أعداد الكتب العربية وأعنى (المخطوطات الموجودة في مكتبات العالم العربي الإسلامي وخارجه) بنحو مليونين من المخطوطات بينما في المقابل لو أحصينا ما كتبه اليونان والرومان فلن نجد أكثر مـن عشرة آلاف مخطوط، إن تراثنا الحضاري العربي الإسلامي قد تناول كل نواحي العلـم والمعرفة، التي عرفت في العصور الماضية، ولم يتـرك العلمـاء العـرب أو المهندسـون المعماريون أو الحرفيون أمرا إلا وطرقوه وخاضوا في تفاصيله، فالأمة العربية أبدت فعالية

ونشاطا كبيرين في أوج تألقها، والمشكلة أن جانبا كبيرا من تراثنا غير محقق ولا مجموع.

ويفرق بعض الباحثين بين تيارين من التراث تيار يمكن أن نسميه التراث المتحفي على حد تعبير الدكتور فؤاد مرسي، وتيار يمكن أن نسميه التراث الحياتي، وهذا التراث الحياتي موصول وموجود في عروقنا كالدم، إنه التراث المتحرك، ويمكن تلخيص العلاقة الإيجابية بين الكتاب والتراث في واقعنا العربي المعاصر في أربعة نقاط رئيسة هي:

١- تحقيق المفيد من التراث ونشره - والمفيد هنا بمعنى المفيد لحياتنا الحاضرة - فالدكتور زكي نجيب محمود، عندما يتناول قضية إحياء التراث يرى إنه ليس من الإحياء في شئ إعادة طبع كتاب اصفرت أوراقه في كتاب ابيضت فيه تلك الأوراق أو نقل (المادة) من (مخطوط) إلى كتاب (مطبوع) دون النظر إلى قيمة المخطوط والفائدة التي يمكن أن تجنى من وراء تحقيقه ونشره أولا وقبل أى شئ، وإنما الهدف من الإحياء أن يخرج قارئه أو دارسه، بروح يستمدها مما قرأ أو درس ليبثها في حناياه. فإذا هو مصطنع لنظرة جديدة من شأنها أن تعقد الأواصر بينه وبين السلف الذي أحيينا تراثه حتى لو وقف من مضمون إرثه موقف الناقد أو المتشكك، فالقارئ لديوان المتنبي مثلا قراءة إحياء يجب أن يخرج منها وقد سرت في عروقه كبرياء هذا الشاعر القديم، وقارئ (فكر المعتزلة) القراءة نفسها يجب أن يخرج منه إنسانا يعتد بإرادته الحرة التي أسبغت عليه كرامة الإنسان لأنها ألقت على كتفيه تبعات الإنسان. إن هذا النوع من القراءة الإحيائية لا يحول، بأية حال في أن نقف من شعر المتنبي والفكر المعتزلي موقف الناقد البناء الموجه.

ويرى الدكتور شكري فيصل. إن إحياء التراث ليس عملا تاريخيا يرتبط بالماضي بل هو عمل يرتبط بالمستقبل، إنه ليس زينة وليس إشادة عاطفية ووفاء للأجداد وإنما هو سلاح للغد. إنه نوع من الإعداد ولون من كسب الثقة بالنفس.

٢- البحث في التراث، أى كتابة بحوث عنه وحوله، ونشرها لأنه جزء من الفكر الإنساني، ويرى الدكتور يوسف بكار، إن إحياء التراث يظل ضرورة علمية قومية حضارية إنسانية لكل أمة تقدر ما يستحق التقدير من تراثها وتحاول أن تفيد منه في حاضرها ومستقبلها، وتقدمه للإنسانية (هدايا) تنم عن (مقدار مهديها).

٣- نقد التراث حتى لا يصبح مثل الآبار المسممة، بغير علامات تحذر من يشرب

منها أو مثل السير في حقل ألغام، بغير خريطة تبين مواقع الألغام، وسبل تجنبها.

٤- التنسيق بين البلدان العربية حول إحياء التراث ونشره، فما دام التراث ملكا للأمة برمتها ينبغي إذن التنسيق بينها في نشره، ولو في أبسط أشكال التنسيق، ففي معظم البلدان العربية مجالس وجمعيات وهيئات وإدارات تعمل في مجال إحياء التراث ونشره هذا إلى جانب الجامعات العربية ووزارات الثقافة والإعلام والإرشاد ومراكز البحوث والناشرين فإذا تمكنت الجامعة العربية ممثلة في منظمتها المتخصصة في التربية والثقافة والعلوم في وضع أساس للتعاون وللتنسيق بين هذه الجهات، لتحققت فائدة كبيرة، إن مجرد إقامة جسور بين هذه الجزر المتفرقة يجعل محصلة الجهد النهائي هي حاصل جمع الجهود الجزئية، في حين أن عدم الربط بينها يقلل من جهدها بالتكرار والعشوائية والتخبط.

ويحذرنا الدكتور جابر عصفور[١١٤] من الأوهام التي تحيط بقضية التراث قائلا: خمسة أوهام تحيط قضية التراث في ثقافتنا المعاصرة:

* أول هذه الأوهام هو إننا نستشعر العزاء في حاضرنا باللجوء إلى ماضينا، بل إننا في واقع الأمر نفر من معضلات الحاضر الذي نشعر نحوه بالعجز إلى كهوف الجبال القديمة نلتمس في بعدها البعيد أمانا وهميا، فلم تعد جبال الماضي بمنأى ولا بحصن أو قلعة، لدينا أزمات اقتصادية وسياسية طاحنة نعجز عن حلها ولا نجد سوى الفرار إلى زمن أدبر بخيره وشره لم يفكر أصحابه إلا في مواجهة مشاكلهم، ولا تجدى حلولهم نفعا لما يواجهنا من مشكلات، هكذا تصبح العودة إلى التراث نوعا من "التعويض" عن تعاسة حاضرنا، هذا هو الوهم الأول في رؤية جابر عصفور.

* أما الوهم الثاني: فهو الخلط المتعمد حينا والعشوائي أحيانا بين الدين والتراث، فالبعض يلجأ إلى إسباغ الصفات الدينية على التراث مما يضفي عليه قداسة ليست له لأنه ببساطة من عمل البشر، وليس من بشر معصوم، وليس من عمل بشرى يستحق أية صفات مطلقة يستعصي بها على نسبية التاريخ وإمكانية الخطأ.

---

(١١٤) د. جابر عصفور ــ ندوة مستقبل الثقافة العربية ــ مسقط ــ ١٢ إلى ١٤ أكتوبر ١٩٩١م .

* والوهم الثالث: ينبني على افتراض أنه "الأفضل" بين تراثات الأمم ما دمنا "خير أمة أخرجت للناس"، وهو استدلال متعسف من تفسير متعسف للآية الكريمة التي يشير سياقها إلى معنى "الأمة" الوارد فيها إلى غير ما يتوهمه الذين يرون في أنفسهم مهما أتوا من المعاصي والكبائر والشرور "خير أمة"، لا، ليست هذه الأمة في كل التاريخ وفي كل البيئات هي الأفضل، وإنما كانت الأمة في وقت من الأوقات ويمكن لها أن تكون في مستقبل الأيام كما كان الأخيار من المسلمين الأوائل في مقدمة الأمم الفضلى لذلك لا يجوز الوهم بأن تراث أمتنا بخيره وشره في كل العصور هو "الأفضل" بين تراث الأمم في العالمين.

* والوهم الرابع: هو إننا ننظر إلى التراث على أنه " مرآة " نرى فيها ما نريد أن نراه من ذات أنفسنا، نسقط حضوره التاريخي لنجتر همومنا الخاصة.

* والوهم الخامس هو تبرير الحاضر السياسي على أساس التراث ورفض كل جديد إلا بوصفه يجد شرعيته في الماضي.

ولقد كان من حظ الثقافة العربية، وحظ الدارسين للتراث أن العالم العربي الراحل الدكتور شكري فيصل[١١٥] هو الذي قدم البحث الرئيسي في هذا الشأن في الخطة الشاملة للثقافة العربية.

لقد بدأ هذا العمل الرفيع بقوله: شغلت المخطوطات العربية اهتمام المثقفين العرب على اختلاف نزعاتهم، فالذين اجتذبتهم إليها الأصالة والذين شدهم إليه التجديد بعيدا عن القديم، والذين اهتموا بالجانب الأدبي والذين اهتموا بالجانب العلمي كل أولئك كانوا سواء في اهتمامهم بالمخطوطات وبالتراث عامة، إقبالا عليه أو تنفيرا منه، إيمانا به أو تحديا له وخروجا عنه.

ثم يضيف قائلا: لقد تعودنا خلال ثلاثين سنة أو تزيد، أن نبدأ بالحديث في مثل هذه الموضوعات بالتدليل على قيمة التراث والدفاع عنه، والغريب أن الذين حملوا عليه كانوا على أقل المعرفة به، وأن الذين دافعوا عنه كانوا يصدرون عن حدس داخلي وإحساس

---

(١١٥) الخطة الشاملة للثقافة العربية ــ المجلد الثالث ــ القسم الأول ــ ص ١٧٣ إلى ص ١٩٥ .

عفوى صادق بأثره أكثر مما كانوا يصدرون عن تمرس به، وكلا الفريقين لم يكن يستطيع أن يضع يده على التراث نفسه وأن يملأها منه، لأن كثرة ما نشر منه لم يكن قد نشر بعد، وإنما كانت هناك خلفيات فكرية وراء هذا الموضوع تريد أن تتحكم فيه.

ثم يصل بنا الدكتور شكرى فيصل إلى خطته للعمل في حقل التراث تحت عنوان معالم للعمل في التراث فيقول:

"المتتبع للأعمال العربية المتراكمة تتبع ملاحظة أو تتبع مشاركة، يخرج من هذه الملاحظات أو الممارسات ببعض الملاحظات، أبرز هذه الملاحظات وأوضحها أننا ـ في كل مرحلة جديدة أو ظرف جديد ـ نستأنف الطريق من بدايته.. فإذا جئنا مثلا نعمل في حقل المصطلحات العلمية في اللغة العربية، تجاهلنا كل ما قيل من قبل، وأنسينا كل ما كتب، وبدأنا نعمل وكأننا أول الذين يزرعون الخطى في الطريق.. وقد تتراءى لنا آثار بعض الرواد قبلنا فنتجاهلها، وكأن كلا منا يريد أن يكون الرائد الأول، إننا لم نتعود المتابعة، ولا الاستفادة من جهود الآخرين الذين تقدمونا.. ونؤثر مشقة البدايات على دماثة الطرق الممهدة.

العمل السابق في المخطوطات:

ومن هنا أسمح لنفسى أن أقول إن أبرز ما يمكن أن نفعله وأصح ما يمكن أن نفعله أن نتبيّن ماذا فعل الذين قبلنا في موضوع المخطوطات.. إن جهود الجامعة خلال وجودها في القاهرة لم تكن عبثاً من العبث، وإني لأذكر من تفاصيل جهود معهد المخطوطات في الميادين المختلفة لهذا العمل ما يدفعنى دفعا إلى تقديره، وإلى الدعوة لاستثماره ومتابعة خطاه، وإصلاح ما يكون قد طرأ على هذه الخطى من انحراف.

إن وصفا دقيقا ودراسة مفصلة لما فعل المعهد في أمر المخطوطات تبدو لى هى البداية المنطقية لعملنا وتفكيرنا.. مادام العمل مرتبطا بالتفكير ونتيجة له.

ولن تكون القرارات السياسية حائلاً بيننا وبين ذلك.. فما أكثر المتغيرات التي تخضع لها هذه القرارات السياسية.. فلماذا نكون أسرى قبضتها؟!.

ولست أدرى إذا كان بين يدي هذه اللجنة الدراسة المفصلة لما فعل المعهد، تجنبا لتبديد الجهد أو معاودته، ولذلك سأحاول أن أعرض تصورى لما يمكن أن نقوم به،

مستنداً إلى واقع المخطوطات العربية وكنت جديرا أن أعرض لهذا الواقع، ولكنه من الشيوع بحيث لا أجد الحاجة إلى وقفة عنده. ومن ذلك يمكن تلخيص هذا الواقع بما يلي:

المخطوطات العربية متشعبة في الثنائيات التالية:

١- في البلاد العربية والبلاد الإسلامية.

٢- في البلاد العربية الإسلامية وفي البلاد الأجنبية (الأوروبية والأمريكية).

٣- بعض الدول الأجنبية والإسلامية تسمح بالتعرف إليها ونقلها وبعضها لا يسمح.

٤- بعض المخطوطات تحت سيطرة الدولة وبعضها في ملك الأفراد.

٥- ما هو في سيطرة الدولة يتبع وزارات مختلفة في البلاد المختلفة، ووزارات متعددة في البلد الواحد مثل وزارة الثقافة، وزارة التعليم العالي، وزارة الأوقاف، رئاسة الوزارة.

٦- ما هو في ملك الأفراد، أفراد من العلماء يقدرونها، وأفراد من عامة الناس لا يقدرونها.

٧- ومن الأفراد من يرغب في تقديمها ومنهم من يضن بها.

ثم هي تخضع لثنائيات أخرى:

٨- فبعضها قد صور وبعضها لم يصور بعد.

٩- وما لم يصور: بعضه مما يمكن تصويره لوجود الآلات أو إمكانية وجودها وبعضها مما لا يمكن تصويره في الحالة الحاضرة.

١٠- والمصور بعضه مما يحتاج إلى تجديد بسبب مضى الوقت وبعضه لا يزال صالحا.

ولا تقتصر هذه الثنائيات على المخطوطات وحدها وإنما تتناول العناصر البشرية التي تعمل لها:

١١- فالعمل موزع بين الأفراد وبين الجماعات.

١٢- والجماعات بين أن تكون جماعات رسمية كالجامعات والمجامع ومراكز البحث العلمي والمجالس العلمية أو أن تكون جماعات خاصة، والجماعات الخاصة عربية إسلامية أو غربية " جمعية المستشرقين الألمان ".

وأسلوب العمل كذلك يمكن أن يمدنا بفيض من التشعبات والثنائيات أو الثلاثيات.

١٣- فهناك مثلا الأسلوب الذي يحرص على أن يضيف إلى النص كل ما يحتاج إلى فهمه ولهذا الأسلوب منطقه ومسوغاته.

١٤- وهناك الأسلوب الذي يريد أن يخرج النص أقرب ما يكون إلى الصورة التي أرادها صاحبه دون أى تدخل من المحقق في الشرح أو التوضيح أو التعليق.

هكذا تتفرع الشجرة وتتعدد الأغصان متكاثرة، وتخيم الظلل، ويضل النظر إلى الثمرة إلا بعد تتبع دقيق.

إن هذه الثنائيات المتشعبة تنتهى بنا إلى حقيقتين:

الأولى: وهى تأكيد لما قدمنا من القول: لابدّ من الاستفادة من الجهود السابقة.

الثانية: أنه لابد من دراسة هذا التشعب في كل مرحلة من مراحل العمل التي سنتحدث عنها، ودراسة أثر ذلك على طريقة العمل.

ففي المرحلة الأولى، مرحلة جمع المخطوطات مثلا، لابد من دراسة الأوضاع القانونية في كل بلد والتلاؤم معها، ولابد من دراسة الظروف العامة والخاصة لكل مكان تتواجد فيه المخطوطات، بغية التكيف مع هذه الظروف.

وفي المرحة الثانية، مرحلة توظيف التراث يحسن أن نتابع ما كنا بدأنا به من قبل من مؤلفات أو سلاسل أو نشريات. هذا كله عن تصور واقع ما كان أيام معهد المخطوطات، ولابد كذلك من متابعة تصور واقع ما كان بعد توقف المعهد، ذلك أن العمل للمخطوطات لم يتوقف، بل لعله نشط نشاطا بارزا بعد غياب المعهد، وأحيانا خلال وجوده فى بعض البلاد والمؤسسات العربية.. فالذي أعرفه أن بعض الدوائر الجامعية في المملكة العربية السعودية تعمل بجهد نادر في تصوير مخطوطات أوروبية ووصلت إلى نتائج طيبة بفضل جهود أفراد بأعينهم تدعمهم الدولة.

تصوّر العمل في المخطوطات:

تصور العمل يأتي نتيجة لتصور الواقع، وأحسبه كان يكون نتيجة للتقرير الذي تمنيت أن يكون بين الأيدى عما فعل المعهد وعما كان بعد توقف المعهد، ولا أشك في أن اللجنة آخذة بذلك أو متجهة إليه، وغياب هذا التقرير لا يعنى أن نتوقف عن متابعة التصورات.. ففي حدود ما يعرف المرء يمكن تصور العمل وعرضه في المراحل التالية

مرحلة التعرّف.

مرحلة التعريف.

مرحلة التوظيف.

وسأوضح ذلك فيما يلى:

وأحسبنى في غنى عن أن أنبه إلى أن هذه المراحل ليست متباعدة أو منفصلة، وليست كذلك محكمة في تدرجها وتتاليها، وليس بينها هذه الجدر الحديدية.. بمعنى أن المرحلة الأولى منها يجب أن تسبق أى عمل يتصل بالمراحل الأخرى، أو أننا لا نبدأ المرحلة الثانية إلا عقب إنجاز المرحلة الأولى.. فليس شيء من ذلك مما يمكن أن يكون في عمل يخضع لهذه التشعبات التي أشرت إليها.. إن العمل يمكن أن ينهض من نقاط متفرقة، وأن يرتفع فوق سلسلة من الأعمدة تبنى في آن واحد.

وأحسبنى كذلك في غنى عن أن أنبه إلى أن هذه المراحل إنما تتشعب عندى على هذا النحو، على أساس من نوعية العمل، وإنها ليست تصورا ذهنيا مجردا، وإنما هي منطلقة من الواقع الذي أشرت إليه، وأخيرا فإن ضبط هذه المراحل وامتحانها إنما يكون بتكاملها وعودة مرحلة على أختها أو ابنة عمها بالفائدة.. وقياس نجاحها أو إحكامها يتمثل بهذا التكامل وضمان المردود الكامل لإحدى هذه المراحل على المراحل الأخرى. وهذا تصورى لهذه المراحل.

المرحلة الأولى: مرحلة التعرف:

تتأتى هذه المرحلة عن الوصف الذاتى الذي أطلقته على هذه المخطوطات حين قلت إنها متشظية مبعثرة، ولذلك فإن من الطبيعى أن تكون الخطوة الأولى في هذا العمل إنما هى معرفة هذه المخطوطات، وتشمل هذه المعرفة: معرفة أماكنها، ومعرفة أسمائها،

ومعرفة فهارسها.

أ) عن الأماكن: إذا تجاوزنا المراكز الكبرى التي تجمعت فيها هذه المخطوطات، فإن هناك مراكز صغرى موزعة هنا وهناك تضم كذلك جزءا من هذه المخطوطات، وهناك مراكز وعواصم علمية إسلامية نحن على مثل اليقين بأنها تنطوى على ثروة من هذه المخطوطات.. ونحن في حاجة إلى مخطط جغرافي دقيق يدلنا على هذه المراكز التي نعرفها والتي نحدس وجودها.. في تركية مثلا أو في الهند أو في الجمهوريات الإسلامية من الاتحاد السوفيتى.

ب) عن الأسماء والفهارس: بعد معرفة المراكز التي تجمعت فيها هذه المخطوطات، تكون المعرفة بأسمائها ونجد هذه المعرفة على نحوين:

أ – فهارس منظمة علمية وصفية.

ب– جداول أو قوائم سردية.

وهذا يقودنا إلى عملية تجميع لهذه الفهارس المطبوعة أو تصوير لهذه القوائم، على نحو مستوف شامل.

المرحلة الثانية: مرحلة التعريف:

تتداخل هذه المرحلة مع المرحلة السابقة، وأما التعريف فيتناول تعريف العلماء والباحثين بهذه المخطوطات ووصلهم بها، وبعض الطرق إلى هذا التعريف تكون عن طريق: طباعة أو تجديد طباعة ما يمكن طباعته من هذه الفهارس أو تصويره أو إعادة نشره على شكل مضغوط مما تتيحه وسائل التقنية الحديثة: (الورق الخفيف ــ الحرف الأدّق ــ طريقة الميكروفيش.. أو ما يماثلها). فإذا تعذر ذلك أمكن للمعهد أن يتولى عملية التعريف بحيث ينشأ فيه قسم خاص للرد على الأسئلة وتوجيه الباحثين، وأذكر هنا أني كنت اطلعت على كتاب بلغة أجنبية هو فهرس لكل فهارس المخطوطات العربية وتند عن ذاكرتى الآن جزئيات التعريف به: الاسم، المؤلف.

ومصدر هذا الرأى موصول بما أقدره من أن العمل في المخطوطات يجب أن يكون مشتركا بين الأفراد والمؤسسات، وإننا يجب أن نحذر كل تدبير يقود إلى استئثار السلطات بذلك وأن نحذر منه.. إن الجهد الفردى العربي جهد متفجر الإنتاج، وخاصة

حين تيسر له الوسائل، ولذلك فإن نشر مثل هذا الكتاب يفتح الطريق أمام الباحثين ويدفعهم إلى الرحلة في سبيل استكمال أداتهم، ويوجههم نحو الاطلاع المباشر، دون أن يكونوا عالة، في كل خطوة، على معهد المخطوطات، واستعراض بعض التجارب يضعنا أمام كثير من الحالات التي استطاع فيها الأفراد أن يحققوا الكثير مما وقف المعهد دون تحقيقه.

صناعة الفهارس:

ومرحلة التعريف مرحلة تأسيسية، لأنها تتناول التعريف بكل ما لم يعرف عن هذه المخطوطات، ولذلك فهي لا تقتصر على إشاعة الفهارس بطريقة أو بأخرى، وإنما يجب أن تتناول صناعة هذه الفهارس، ذلك أن كثرة من المخطوطات العربية في البلاد العربية نفسها لا تزال مجهولة.. وأنقاض منها مكدسة لم تر الطريق إلى فهرستها أو حصر أسمائها، ولذلك فإن عملا كبيرا يواجه معهد المخطوطات هو الاهتمام بهذه الفهرسة، والفهرسة تحتاج إلى منهج نظري، وقوة بشرية، وقد سبق أن شاركت في ندوة عقدت في بغداد للاتفاق على صيغة بطاقة الفهرسة، وأحسب أن من الضروري أن توضع أبحاث هذه الندوة كلها بين يدي اللجنة لتكون من وثائقها،والاستفادة من هذا المنهج الذي أقرته الندوة يؤكد الفكرة التي كنت وقفت عندها ودعوت إليها وهي فكرة المتابعة. أما القوة البشرية فمن المؤكد أن هذا العدد يجب أن تجند له أفواج من العاملين يختارون من مستوى معين، وتقام لهم دورات تدريبية تغنى معارفهم وتؤهلهم فنيا وعلميا وثقافيا لهذا العمل، ثم يوزعون في الأقطار المختلفة بعد التمهيد لهم في هذه الأقطار عربية إسلامية أو أجنبية.

وهذا العمل (الفهرسة) يقترن، في صورته الكاملة، بالوصف.. ولكن وصف المخطوط نوع من دراسته.. وأعرف أستاذا في ألمانيا الغربية أمضى سنوات في إعداد فهرسة مخطوطات " توبنجن" أو على الأصح في استكمال فهرستها، لأنه كان مسبوقا إلى ذلك.. أن عمله كان نقله لكل كلمة أو جملة أو إشارة في صفحة الغلاف أو في الخاتمة أو على الهوامش، من مثل أسماء المتملكين له أو قارئيه أو الإجازات التي تنثر هنا وهنا أو ملاحظات بعض قرائه. وأجد المجال هنا طيبا لإثارة قضية هامة في إحياء المخطوطات في

مراحلها كلها هي:

مستوى العمل، والتمييز، في كل ما سنقابله، بين مستويين: المستوى المثالي، المستوى العملي، المستوى المثالي في عملية الفهرسة إنها عملية علمية تقف عند كل ظاهرة في المخطوط في كل ما يتصل به: خطا ومدادا، وجلدا، وتملكات، وتعليقات، وهوامش، وإجازات، وسماعات.. إلى آخر ما يتطلبه العمل العلمي الدقيق، والمستوى العلمي الذي يكون أكبر هدفه أن يعرف بوجود الكتاب ومعالمه البارزة من أقصر طريق.

وفي عملنا في المخطوطات بل وفي عملنا الثقافي في جملته، نحتاج إلى هذين المستويين.. يفرض ذلك جملة من العوامل: تكدس التراث وتكراره من نحو وإننا في سباق مع الزمن ومحاولة اللحاق بالركب الحضاري من نحو آخر.

وإنما يحدد أحد هذين المستويين الظروف التي نمر بها، وطبيعة العمل، ومدى جدواه، وإمكانية تجزئة الصورة المثلى دون جور على فائدته.

المرحلة الثالثة: مرحلة التوظيف

ماذا نعني بتوظيف التراث؟ وكيف نوظف هذه الثروة في حركتنا الثقافية؟ وهل من سبيل إلى تحديد بعض الضوابط والقواعد؟ ومن الذي ينهض بهذا التوظيف؟

توظيف التراث يعني استخدامه الأمثل في حركة النهضة العربية، في كل آفاق هذه النهضة وجوانبها، ولا يمكن أن يتم هذا الاستخدام إلا إذا نشر هذا التراث، فتولى علماء إحياءه ليقدموه إلى زملاء لهم، علماء آخرين يعرّفون به، يفيدون منه دراسة واستنتاجا، ومن العسير أن نتبين سلفا وجوه توظيف التراث قبل أن ننشره، أي قبل أن يتفحص هذا التراث، وأن يكوّن فكرة واضحة عن مضامينه.

ولكن توظيف التراث ليس مرهونا بمعرفته فحسب، ولكنه مرهون كذلك بالجو الثقافي الذي يرافق نشره، والقضايا الفكرية المطروحة آنذاك.. إن هناك تزامنا بين عملية توظيف التراث وبين حركة الفكر العربية وقضاياه التي تطرحها ظروفه، وبين حركة الفكر العالمي وقضاياه التي يطرحها تقدمه، فإذا جئنا نتحدث الآن عن توظيف التراث فنحن محكومون بظروفنا واهتماماتنا ومقادير معرفتنا بهذا التراث.. وذلك كله يتسم بالجزئية والجانبية. ومن هنا يتبدّى بوضوح آخر، وجه الصعوبة، ومعنى المغامرة، في

الحديث عن توظيف التراث قبل معرفته ونشره، غير أن ذلك لا يعني طي الموضوع أو السكوت عنه.. وفي وسعنا أن نتقدم ببعض الأفكار مستفيدين من الواقع العربي الذي نعيشه، من واقع التراث وما ننشره منه، ومن واقع المعاناة الفكرية وما نواجهه منها، وبمعنى آخر، إننا – قياسا على ما نعرف وما نواجه، قياسا على ما بين أيدينا وما نعاني — نستطيع أن نتمثل ميادين مختلفة لتوظيف التراث:

ففي ميدان الدراسات الإنسانية بعامة، نجد الحاجة ماسة إلى التراث.. إننا واثقون من أن في طياته ما يساعدنا على ضبط تاريخ الفكر العربي ورصد حركته، ومعرفة اتجاهاته.. فلا تزال جوانب من هذا الفكر العربي مستغلقة، ولا تزال آفاق من آفاقه غائمة، ولا تزال تفاصيل من حركته تخضع للأفكار العامة والأحكام الكلية.

وفي ميدان الحياة الإسلامية تبدو كذلك الحاجة ملحة لهذا التراث، لدراسة أدق للشرخ الذي أصاب الحركة الإسلامية في عهودها الأولى، وتتبع أسبابه وأصحابه، وفي موضوعية وتجرد، وفي ميدان الدراسات الإسلامية تاريخا وفكرا، وعقيدة وتشريعا، ونظما وحضارة، نجد ونحس أن أطرافا كثيرة من ذلك لم تكشف بعد، أو أن الذين تولوا الكشف عنها إنما نظروا إليها من زاوية ضيقة، أو من نصوص دون نصوص أخرى، أو من مصادر غير موثقة.. وغياب سيرة واضحة ودقيقة ومفصلة لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم من أدل الدلائل على هذا النقص الذي لا يسده إلا استكمال نشر التراث.

وفي ميدان الدراسات اللغوية والأدبية، نزعم لأنفسنا أننا فعلنا الكثير، ولكننا حين ننظر فيما بقي حبيس الصحف المخطوطة لا نلبث أن نقول أن الذي لم نعرض له بعد أكثر من الذي عرضنا له.. وحسبك أنه ليس لدينا نشرات موثقة محققة للأصول الأولى في اللغة والأدب والشعر والنحو الغريب.

وفي ميدان الدراسات التاريخية ما أشد حاجتنا إلى عديد من الأصول والمصادر التي لم تنشر أو نشر بعضها.. وأي تحرك في هذا المجال لرسم التاريخ السياسي أو الحضاري يقتضي الاستعانة بكل ما في التراث من جزئيات لم تكشف بعد، وذلك لاستكمال الصورة والتوثق من الأسباب.

وفي ميادين الدراسات العلمية نلاحظ أن الإسهام الذي قدمه العرب والمسلمون في

حركة العلم مجهول أو كالمجهول.. لا في مرحلة الأخذ ولا في مرحلة العطاء.. لا في مرحلة الحفاظ على الفكر الإنساني ولا في مرحلة إغنائه وتنميته والإضافة عليه.. وما أقل ما نعرف من دقائق ذلك، وما أكثر ما يداخله من أحكام عامة ليس بين أيدينا تفاصيلها وجزئياتها.

وأيا كان الرأي في حاجة هذه الميادين جميعها إلى التراث ونشره، فإن هناك حقائق أخرى كبيرة في الحياة الفكرية تطل علينا دائما، وتشدنا إلى استثمار هذا التراث دائما.. هذه الحقائق تتجاوز ضرورة معرفة الحياة العربية معرفة دقيقة للتوصل بتقدير الوجود العربي وتقييم أثره.. فقد بات واضحا أن الحياة العربية والإسلامية مظلومة في أذهان الغربيين، وأن جملة من الأفكار السوداء الخاطئة والأحكام المضللة تخالط عقول رجال الفكر في الغرب في كل ما يتصل بالعرب والإسلام.. ثم تتبدى آثارها في صلات ما بين العرب والمسلمين من نحو والغربيين من نحو آخر.. إننا في الذهن الغربي ضحايا تصورات خاطئة وتعصب مقيت..

ويجاوز الأمر الذهن الغربي إلى أسلوب التعامل.. فقد غل الغرب من ثقافتنا وبنى عليها، وقدمنا له ثقافة أجداده الأولين وزدنا عليها.. ولكنه جاء ينظر إلينا نظرته إلى شعوب ليس لها حظ من حضارة أو فضل عليها.. ثم أقام تعامله معنا على أساس هذه النظرة.. فإذا لم يكن من تعلقنا بهذا التراث إلا تصحيح هذه النظرة وإلا الدعوة إلى قيم جديدة في التعامل الإنساني وتخليص الجماعة البشرية والإنسانية من هذا التعصب الظالم ومن آثاره، وإنقاذ الشعوب العربية والإسلامية من عقد النقص التي خلقها الاستعمار، وإطلاق قواها في دعم الركب الإنساني.. لو لم يكن للتراث إلا العمل على ذلك من خلال نشره ودراسته وتسخيره لهذه الغايات النبيلة لكفي.

وكذلك نرى أن أمامنا في توظيف التراث آفاقا واسعة.. بعض ذلك في نطاق حياتنا الفكرية الخاصة وجلائها وإلقاء الأضواء عليها.. وبعض ذلك في نطاق صلاتنا الحضارية بالغرب.. وفي كلا النطاقين معا يكون للتراث وظيفته العلمية الحضارية ووظيفته الإنسانية.

هنالك إذن هذه الصلة الوظيفية العضوية بين توظيف التراث ونشره.. فما من سبيل

إلى تحقيق وظيفته إلا بعد نشره وما يقود إليه النشر من دراسات، ومثل هذه الصلة تحملنا على أن نرى في مرحلة التوظيف هذه وجهين: أحدهما الوجه الذي يقابلنا وهو استثمار هذا التراث وتوظيفه، والآخر هو الوجه اللصيق الذي يختفي وراء التوظيف ويكون بمثابة التمهيد له، وهو الإحياء أو التحقيق والنشر، وذلك يقودنا بطبيعة الحال إلى الحديث عن عملية الإحياء والتحقيق والنشر.

وسيكون حديثنا محاولة جواب عن سؤالين كبيرين: ماذا ننشر؟ ومن ينشر؟ وكيف نشق طريقنا إلى ذلك من واقع هذا التراث وطبيعته دون أن نحمل عليه نظريات مفروضة، وتصورات قبلية.

الإحياء والنشر

يتراءى لي في البداية أن نشر التراث يمكن أن نلاحظ فيه قضيتين أساسيتين:

القضية الأولى:

وتتمثل في أننا مادمنا نؤمن جميعا أن النهضة الثقافية يجب أن تولى العلم عناية خاصة بعد أن استبد بنا، فترة طويلة، الاهتمام بالدراسات الإنسانية.. لذلك فإن المبدأ الأول الذي نعتمده في مرحلة التوظيف هو: التوجه نحو التراث العلمي، والحرص على كل ما بين أيدينا منه، ونشره مصاحبا بدراسات مقارنة مع المعطيات العلمية الحديثة، أو ممهدا لهذه المعطيات، أو موصولا بها على نحو ما من أنحاء الاتصال.

إن مثل هذا التوجه نحو التراث العملي (هل قلت التوجه؟.. لعلّي أردت الأولوية) لا يعني أننا نفاضل بين الدراسات العلمية والدراسات الأدبية، وأننا نريد أن ندير ظهورنا للدراسات الإنسانية كما لو كنا ننكر أثرها في صياغة العقل العربي وتوجيهه إن شيئا من ذلك لا يخطر لنا في بال.. لأننا لا نريد أن نخوض جدلا عقيما في هذه المفاضلة، والبدهية التي ننطلق منها أن قطار الفكر العربي يجب أن يتحرك على هذين الخطين المزدوجين المتوازيين اللذين يشاركان معا في تسديد الثقافة العربية وترشيدها وبلوغ أهدافها، والمجتمعات لا يمكن أن تقوم على ساق واحدة دون أن تفقد توازنها.

القضية الثانية:

إن هذا التراث غزير غزير..ونحن نحتاج إلى كل ما فيه، حاجة تعرف واستثمار، أو

حاجة تعرف واستبعاد: والمدى الزمني لا يتسع لكل ما نريد منه.. وصراعنا مع الـزمن، وحركتنا نحو اللحاق بالحضارة وتمثل ما انتهت إليه، ومتابعة الركب الإنساني. كل ذلك يقتضينا هنا شيئا من تنظيم نقدم فيه الأهم على الهام، والأصيل على الهجين، والجوهري على الثانوي. إنه لابد لنا هنا من قائمة أولويات ندعو إليها دون أن نلزم الناس بهـا.. الأجهزة الرسمية تأخذ بهذه القائمة وتتقيد بها، والعلماء الأفراد يأخذون بالذي يهوون.. وتنسجم عملية الإحياء على نحو عفوي منتج.

إن هذه الدعوة إلى هذه الأولوية ليست متابعة أو تقليدا لمناهج أخرى.. وإنما هـي دعوة تنبع من طبيعة حركة التأليف العربي، ذلك أنه من المعروف أن هذا التأليف كانت له تقاليده وأعرافه.. كان في كثير من الأحيان أقرب إلى المفهوم اللغوي للفظة (تـأليف) أي أقرب إلى الجمع.. ولذلك نجد في التراث كثيرا من ظواهر التكرار.. وقد يرافق هذا التكرار شئ ضئيل من إبداع، وإذا كان هذا حقا ـــ وهو حق فيما أقدر عند عديد من المؤلفين وفي عديد من المؤلفات ـــ فإننا مضطرون إلى الأخذ بمبدأ الأولويات، ولكن هل يتحقق ذلك أم أن تحديد الأولويات يقتضي نشر التراث نفسه.. إن المسألة تشبه أن تكون الدائرة المغلقة: فلتحديد الأولويات لابد من معرفة دقيقة بالكتاب المنشور ومعرفة أدق بالكتب التي تعاقبت على موضوع واحد.. وهي معرفة يصعب أن تتأتى إلا بعد النشر.. هل يجب أن نجد حلا منذ الآن لهذه القضية، أم أن سير عملية الإحياء نفسها سيهتدي اهتداء ذاتيا إلى تقدير الأولويات؟! قلت: إن التراث غزير، والجهات التي تقوم بالإحياء جهات محدودة.. فكيف ننهض بهذه الأمانة؟

هنا نواجه الحاجة إلى جيل من المحققين يجب أن نعده، فالتحقيق صناعة علمية تحتاج إلى التدريب، وتحتاج إلى الموهبة، وتحتاج إلى أقدار من المعرفة العلمية التي تتصل بموضوع الكتاب المحقق، وأقدار من الثقافة العامة.. ولابد للمحقق من هذه الأقدار الخاصة والعامة حتى يستطيع أن يبدأ بعد ذلك دربته وأن يصقل موهبته، ومعنى ذلك أن هناك زادا يجب أن يتزود به المحقق، وهذا يعني أنه لابد له من إعداد.. بعد أن توقفت المراكز التي كانت تنشئ، بطريقة عفوية، هؤلاء المحققين.. ولابد من الأخذ بيده، وتزويده بالمعرفة، وصقله بالدربة، والوصل بينه وبين التراث وبينه وبين ما يحتاج إليه تحقيق التراث، عن غير طريق

المادة والتعويض والمرتب.

لقد مضى جيل من المحققين كانت تعده الحياة العربية بصورة عفوية بما كان من أساليبها في التعليم وطرائقها في التثقيف.. ثم لم نجد من يخلف هذا الجيل، وإذا نحن نعاني أشد النقص، وإذا الجيل الجديد منصرف عن هذه الصناعة الثقافية التي تقع في الصميم من مجرى الحركة الثقافية والحركة الفكرية.. لا ينصرف عنها لأنها تأكل نور عينيه فحسب، فقد تحمل الحياة صاحبها على ما هو أشد، ولكنه ينصرف عنها لأنه لا يملك أداتها ولا يجد من يمهد له السبيل لامتلاك هذه الأداة، واقتصر الأمر على بعض (المريدين) الذين ظلوا أوفياء لأساتذتهم أو الذين عنى أساتذتهم بتنشئتهم، وعلى بعض الهواة الذين أحبوا هذه الصناعة.. ولكن عدد أولئك وهؤلاء لم يبق كذلك دون ما تحتاج إليه الثقافة العربية ودون ما يحتاج إليه التراث العربي وهو يتطلع إلى النور والحياة ونفض التراب الذي أنقض ظهره وأثقل كاهله طيلة قرون، فما الذي نستطيع أن نفعله لتدارك هذا النقص؟.. هل نترك ذلك للظروف والزمن والمصادفات؟ هل نستسلم للمقولة الشعرية: إذا مات منا سيد قام سيد.. ومن الذي يضمن قيام السيد الجديد في الحياة العملية؟.

هنا نجد أنفسنا في صميم الحاجة إلى التخطيط الشامل الذي نعمل له.. وهنا نواجه الحاجة إلى العنصر البشرى الذي لا يمكن أن يستعار أو يستورد ولا تعوضه الآلات والأدوات والخبرات المشتراة، فكيف نصنع لإعداد هذا الفوج البشرى الذي نحتاج إليه في إحياء هذا التراث الغزير، في تجارب التراثيين أو المؤمنين بالتراث، كان هنالك تجربة دعا إليها أستاذنا المرحوم أمين الخولى.. منطلقها أن التراث أمانة في أعناق المتعلمين جميعا، وأنه لابد أن ينهض كل مثقف بنصيبه من هذه الأمانة.. وتتمثل هذه التجربة عمليا في أن تقترن كل أطروحة جامعية عليا: الماجستير أو الدكتوراه أو الدبلوم بنص محقق إلى جانب البحث أو الدراسة، وقد وفق الأستاذ الخولى إلى إقرار ذلك، وبخاصة مع الذين كانوا يعملون معه.. وحقق نتائج أدناها أنه أقام هذه الصلة بين التراث وبين كثير من الخريجين.. وعقد هذه الصلة معه كان كفيلا بعد ذلك أن يؤدى إلى نوع من الميل إليه، والإقبال عليه، والتعامل معه، عند مجموعة طيبة من هؤلاء الخريجين.

وأشهد، بل الواقع يشهد، أنه كان لهذه التجربة أطيب النتائج.. إذ كان من ثمراتها أن أعلاما من أعلام المحققين تخرجوا بهذه التجربة، بها بدءوا ومنها انطلقوا وعن طريقها كانت هذه الجملة الضخمة من كتب التراث التي أخرجوها محققة.

وفي تقديري أن للتجربة أساسها النفسي الذي يضمن ـ في أغلب الأحوال ـ نجاحها.. وغياب هذا النجاح أحيانا لا يقلل من أهميتها، فهل نكتفي بهذا الأسلوب؟ قد يكون لهذا الأسلوب فضائله الطيبة ونتائجه الإيجابية في التراث الأدبي.. لأن الدراسة الأدبية تهبه بعض أدواته، وتساعده على بعض خطواته.. أما حين نتحدث عن التراث العلمي الذي نحب أن نعنى به فإن الأمر يحتاج إلى إعداد آخر، وحتى في التراث الأدبي نحس أن هذه التجربة متروكة للطالب ينهض لها ويتمرس بها من غير سابق إعداد.. والعمل الذي يتطلع إلى مردود قيم لابد فيه من إعداد سابق يساعد على بلوغ هذا المردود العالي، وإذن فلابد لنا من أسلوب آخر أمام الآفاق التي نتطلع إليها، والشعور بمسئولية التخطيط الشامل يقتضينا البحث عن هذا الأسلوب.

من هنا تبدو الحاجة إلى أن يكون هناك، من بين ضروب الدراسات العليا، دراسة خاصة لإحياء التراث، لها ما للدراسات الأخرى مما يشجع عليها، ويدفع الدارسين إليها.. بديلا عن المشقات التي يعانونها والعزلة التي تفرضها المخطوطات والعمل لها، على أصحابها. وشروط هذه الدراسات، إذا أردنا لها أن تكون مثمرة، التفرغ لها.. وتفرغ الطلاب، حتى لا تبدو وكأنها عمل إضافي أو فرعي أو لحق من اللحق.

هل نوزع العمل في التراث؟

قلت: إن التراث غزير غزير.. فكيف نوزع العمل فيه بعد أن يتحقق لنا إعداد هذه العناصر البشرية؟ إن انقسام الوطن العربي تمثل هنا في جملة من الاقتراحات منها: أن تنفرد بعض العواصم أو بعض الجامعات ببعض ألوان المعرفة.. فهل نلجأ إلى مثل هذا التوزيع؟

في تقديري أنه يحسن بنا أن نترك لهذه الأشياء حريتها وطلاقتها وظروفها التي تكون وراءها والمناسبات التي تحتاجها.. إن وجود علم كبير في بلد أو جامعة يخلق حوله هالة من العاملين معه في مثل اختصاصه.. والتعامل هنا بين العلماء ومريديهم أو تلامذتهم يتم

على نحو طبيعي.. وقد يكون التدخل فيه ضارا، فيحجب قوة ناشئة أو يكرهها على مسار غير المسار الأفضل لها أو الأجدر بها، وكل الذي ينشده أصحاب فكر التوزيع هو الحيلولة دون تكرار الجهود في التحقيق، فلا يتعاقب محققان على أثر واحد، ولا ينشر الكتاب الواحد مرتين.

الحاجة هنا إذن: هي الحاجة إلى التنسيق وليست الحاجة إلى التوزيع.. وإن التنسيق يمكن أن يتم عن طرق مختلفات ليس هنا مكان تفصيلها.. ومع ذلك فانا أخشى أن تكون قضية التكرار هذه قد داخلها أقدار من التضخيم، ومنحت من العناية فوق ما تستحق، فحركة التحقيق لم تسجل، خلال هذه العقود، إلا مظاهر قليلة لهذا التكرار، وفي مرات كثيرة كان هذا التكرار لمصلحة الكتاب المحقق.

آية هذا كله أن العمل في التحقيق والعمل للتحقيق لا يمكن أن يترك عملا لا خطة له.. إنه، كما قدمت، صميم مشكلة التراث.. واجهتها وخلاصتها.. ولذلك يجب أن يكون عملاً مفروضاً أو كالمفروض.. أن يكون مفروضاً في بعض مراحل الدراسة.. وأن يكون كالمفروض في إعداد جماعة له، وقصرهم عليه وتفرغهم له، وليس في ذلك شئ من إسراف أو مبالغة، لأننا إذا كنا نؤمن بأن المرحلة القريبة — بعد استقرار بعض المفاهيم وإقرار بعض المبادئ — هي مرحلة الكشف عن الذات الفكرية والنفسية والعملية من خلال التراث الذي أفرزته هذه الذات، فإن أقل ما يستوجبه ذلك أن تقصر عليه جهود، وتعد له برامج، ويفرد له ناس، وينفرد به علماء وأخصائيون".

رابعا: الاتصال الثقافي:

(أ) ضرورة الاتصال الثقافي ومعوقاته:

الاتصال الثقافي:

لا خير في إنهاك القارئ وإجهاده في البحث عن الفروق الأكاديمية بين مصطلحات الاتصال الثقافي، والتفاعل الثقافي، والتثاقف، وغير ذلك من المسميات. ولكن تحديد المفهوم العام ضرورة للقارئ وللباحث حتى يكونا على بينة من القول. لذلك فإنني أحدد مفهوم الاتصال الثقافي بأنه أوسع دوائر الاتصال، فإذا قلنا إن الإنسان يتحدث إلى نفسه ويخاطب ذاته كما يرى صورته في المرآة فإن تسمية هذا الاتصال هي الاتصال الذاتي. ثم

تتسع هذه الدائرة فيخاطب الإنسان أسرته ويتحدث إلى زملائه وأصدقائه ويكتب خطابا لصديق أو يبعث برقية تهنئة لقريب، فتسمى هذه الدائرة الاتصال الشخصي. وعندما يستخدم الإنسان الراديو أو الصحيفة أو الكتاب فإن ذلك يسمى الاتصال الجماهيري، وهذه الدائرة وهي دائرة الاتصال الجماهيرى تليها أوسع دوائر الاتصال وهي الاتصال الثقافي، هي إذن اتصال ثقافة بثقافة أو اتصال حضارة بحضارة بوسائل تشترك مع وسائل الاتصال الشخصي والجماهيري أو تختص بها، وبوسائل تكنولوجية أو وسائل قديمة عرفها الاتصال منذ بدء الخليقة، ولكنها في مضمونها اتصال بين ثقافات أو حضارات.

وفي علم الاجتماع عدد من المصطلحات[١١٦] تقترب من معنى الاتصال الثقافي وفي الوقت نفسه تقربنا إلى مفهومه المعاصر، يستخدم مصطلح الانتشار الثقافي **Cultural Diffusion** – للدلالة على انتقال عنصر ثقافي، أو مجموعة من عناصر البناء الثقافي من جماعة محلية إلى جماعة محلية أخرى، سواء كان ذلك في إطار المجتمع الواحد أو فيما بين مجتمعات منفصلة ومتمايزة، أما مصطلح الانتشار **Diffusion** فقد استخدم في علم "الانثروبولوجي" (تاريخ الإنسان الثقافي والتكنولوجي) للدلالة على امتداد عناصر بعينها من ثقافة ما إلى ثقافة جماعة أخرى، إما بشكل فردى بمعنى امتداد عنصر وحيد، أو بشكل جماعي أي امتداد شبكة متداخلة من العناصر، بحيث تتأثر جماعة أجنبية بعناصر ثقافية أخرى، وقليلا ما يستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى انتقال عناصر الثقافة في إطار الجماعة الواحدة، وربما كان ويليام روبرتسون.. عالم الاجتماع واللغات البريطاني في القرن الثامن عشر (١٧٢١ – ١٧٩٣) هو أول من استخدم فكرة "الانتشار" لتفسير التشابه الشديد إلى درجة التطابق بين عناصر ثقافة بعينها لدى قبائل وشعوب أمريكا الشمالية، وجزر المحيط الهادي، وشمال وجنوب شرق آسيا، ورغم ذلك فقد كان روبرتسون نفسه هو الذي اقترح فكرة، تشابه الظروف المناخية، وتشابه الحالة الاجتماعية وبنية المجتمع والتطور التكنولوجي عند جماعتين متباعدتين مكانيا، ولكن

---

(١١٦) مصطلحات فكرية ـــ جريدة الأهرام بتاريخ ٧-٣-١٩٨٦م وتاريخ ٤-٩-١٩٨٦ وتاريخ ٣٠-١٠-١٩٨٧ وتاريخ ٨-١٢-١٩٨٩م

التشابه يفرض "حلولا" وأشكالا من التلبية للحاجات متشابهة أو متطابقة، وفي القرن التاسع عشر، كتب الأب فيلهام شميث (١٨٦٨-١٩٥٤) الذي عاش حتى منتصف القرن العشرين كتابه: منهج التاريخ الثقافي للسكان، الذي أكد فيه نظرية الانتشار، واقترح وجود عدة "أصول" جذرية متعاصرة للثقافة الإنسانية كلها، ثم ظهور منابع فرعية تنتشر عناصرها الثقافية بعد ذلك (مصر ــ وادى الرافدين، وادي السند، جبال كانتون، ساحل الأناضول، سواحل اليونان، الساحل اللبناني، اليمن، روما..إلخ) بحيث تبدو الثقافة الإنسانية ــ تاريخياً ــ في صورة دوامة رئيسية، تتكون إلى جوارها دوامات فرعية، تصبح رئيسة بدورها في مرحلة بعينها بينما تصبح الدوامة الرئيسية الأولى فرعية أو تتلاشى، وهكذا بشكل متتابع ومتسلسل.

المصطلح الثالث: هو التفاعل الثقافي **Acculturation** وكان علماء الاجتماع البريطانيون يستخدمون مصطلح " الاتصال الثقافي " **Culture Contact** للإشارة إلى عملية اكتساب الفرد أو الجماعة (أو حتى المجتمع بأسره) الخصائص الثقافية لجماعة أو لمجتمع آخر من خلال الاتصال والتداخل، ولكن علماء الاجتماع الأمريكيون رأوا أن تعبير "الاتصال" بالمعنى البريطاني يعني تأثر "الطرف الأضعف" بثقافة الطرف الأقوى إما لتفوقه السياسي والاقتصادي أو لتفوقه التكنولوجي، دون أن يتأثر الطرف الأقوى، وعلى ذلك رفضوا المفهوم البريطاني واستبدلوا به مفهوم "التفاعل" الذي يعني تبادل التأثر بين مختلف الجماعات أو المجتمعات بصرف النظر عن قوة كل منهما السياسية أو الاقتصادية أو التكنولوجية، ومن وجهة نظر فردية، فإن عملية التفاعل الثقافي أشبه بعملية "التعلم الاجتماعي" حيث تتعلم جماعة أساليب وقيم جماعة أخرى، أو أشبه بعملية تعلم الفرد لغة جديدة تدفعه إلى اكتشاف أساليب للتفكير ولتنظيم أفكار لم يكن يعرفها، ولكنها من وجهة نظر اجتماعية تتضمن عملية التفاعل الثقافي انتشار القيم الأكثر صلاحية لمواجهة الحياة وتلبية احتياجاتها في مرحلة تطور أو في وضع تاريخي بعينه من وجهة نظر الجماعة الناقلة للقيم والأساليب الفنية للعمل والإدارة، والمؤسسات بما تتطلبه عملية النقل والتفاعل من تعديلات في بنيتها وسلوكياتها وقوانينها طبقا لتغير الظروف،وقد تؤدى عملية التفاعل إلى "صراع ثقافي" بين قيم ومؤسسات وأساليب

عتيقة وإن كانت أصيلة ـــ وبين الأخرى المكتسبة الجديدة ـــ التي لابد من عملية فـــرز اجتماعية ومنهجية طويلة لمعرفة ضرورتها وفائدتها أو ثانويتها وضررها، كما تـــؤدى إلى تعميق الاقتباس والنقل بما يقوى الخصائص الثقافية الأصيلة ويدعمها ويساعدها علـــى التطور والصمود، أو قد ينفيها تماما إذا كانت قد أصبحت بائدة ومتخلفة وغير صـــالحة لمواجهة التطور الجديد ـــ خصوصا تطور أساليب العمل والحياة ـــ ولم تتطـــور نظريـــة التفاعل الثقافي بسرعة إلا مع ظهور أعمال كل من مالينوفسكي وفورتس في بريطانيا ـــ منذ الأربعينات وريدفيلد ولينتون في الولايات المتحدة منذ الخمسينات، الـــتي أدت إلى النظر للثقافة ـــ نظرة وظيفية ـــ باعتبارها نظاما أو نسقا محكوما، وليس مجرد "تجمـــع" لخصائص وأنشطة منفصلة، وبذلك أصبحت " الثقافة " والتفاعل الثقافي، من العوامـــل المهمة في فهم وتفسير التغير الاجتماعي ككل.

والمصطلح الرابع: هو الانتشار الثقافي **Cultural – Diffusion** ويقصد بـــه انتقال عنصر ثقافي، أو مجموعة من عناصر البناء الثقافي، من جماعة محلية إلى جماعة محليـــة أخرى، سواء كان ذلك في إطار المجتمع الواحد أو فيما بين مجتمعات منفصلة أو متمايزة.

وهذه المصطلحات وغيرها محطات في طريق العلوم الإنسانية تقرب لنا المـــصطلح أو المفهوم الذي نتحدث عنه وهو الاتصال الثقافي، لأنه أشمل وأوسع ولأن الاتصال يعـــنى التبادل والتفاعل، الأثر ورد الفعل.

فالدكتور سيد عويس[١١٧] مثلا يؤكد على "أن حضارة مصر هـــي أول حـــضارة إنسانية أعطت العالم الكثير وإنني لا أذكر ذلك وأؤكده عبثا، فعبارة "اعرف نفـــسك" التي تنسب للفيلسوف اليوناني "سقراط" "٤٦٩ – ٣٩٩ ق.م" كانت معروفة عنـــد المصريين القدماء ويعلمها علماؤهم ومكتوبة على جـــدران معابـــدهم، وإن "الفـــضائل الأساسية" المنسوبة للفيلسوف اليوناني "أفلاطون" "٤٢٨ – ٣٤٨ ق.م" وهي الحصافة والعدل والاعتدال "ضبط النفس" والجلد قد نسخها هذا الفيلسوف وهو يدرس "العلم المقدس" على أيدي الكهنة المصريين لمدة ثلاث عشرة سنة، وإن علوم اللغـــة والبلاغـــة

---

(١١٧) سيد عويس ـــ من صور الغزو الثقافي ـــ جريدة الأهرام بتاريخ ١٦-٢-١٩٨٥م .

والمنطق والحساب والموسيقى والفلك كانت العلوم والآداب المصرية التي نقلها الإغريق، وإن الطلبة الإغريقيين قد عبروا البحر ليصلوا إلى مصر للدراسة والإطلاع في المكتبات المصرية، وإن الفلاسفة اليونانيين لم يرحب بهم في بلادهم وبدءوا يحضرون إلى مصر للدراسة منذ عام ٥٢٥ ق.م وأن بعض أعمال الفيلسوف أفلاطون أخذت من "كتاب الموتى" المصري "منذ ٥٠٠٠ عام" وإن علم اللاهوت المنفي "نسبة إلى منف" مصدر الكثير من الفكر الإغريقي".

هكذا يسيل التراث الإنساني الثقافي من مجرى إلى مجرى ليصب في نهر مشترك لذلك فإن الاتصال الثقافي واقع تاريخي وفي الوقت نفسه ضرورة معاصرة.

والمشكلة هي كيف نفرق بين الاتصال الثقافي والغزو الثقافي وكيف يمكننا أن نفرز ونفصل كلا منهما عن الآخر فنتجنب الغزو ونتفاعل مع الاتصال ونثريه بالتأثر به والتأثير فيه.

ولم تغفل الخطة الشاملة للثقافة العربية العلاقة الجدلية بين الغزو الثقافي وبين الاتصال الثقافي فقالت[١١٨]: ليس البديل للغزو الثقافي هو الانغلاق، لأنه غير ممكن من جهة، ولأنه انقطاع عن الإنسانية وإفقار للوجود الذاتي من جهة أخرى، وليس البديل هو الاستسلام المطلق والذوبان في الآخر، وتبني الأنماط الوافدة، لأنه ينتهي بدوره إلى النتيجة ذاتها من ضمور الوجود الذاتي، بالإضافة إلى خسارته الإنسانية، لأنه يلغي تعدد الرؤى الثقافية بمحاولة فرض لغة واحدة، وأسلوب حياة واحد، وإحلال فكر دخيل محل الفكر الأصيل، وهكذا فالتحدي الكبير أمام العالم الثالث ومنه البلاد العربية، هو الحفاظ على التنوع الثقافي الإنساني، بإبراز وتأكيد الهوية الحضارية للأمة ومتابعة العطاء المبدع من خلالها.

وتمضي الخطة الشاملة للثقافة العربية قائلة: برغم اعتقادنا الجازم بأن الثقافة إنما تأمن على نفسها بالعطاء والإبداع والامتداد لا بالمدافعة والتحصين، إلا أن النقلة من حالة

---

(١١٨) المنظمة العربية للتربية و الثقافة والعلوم ــ الخطة الشاملة للثقافة العربية (مرجع سابق) ص١٤٣، ص١٤٤

الضعف الثقافي ـــ وهو ما نحن فيه اليوم ـــ إلى حالة العطاء، تفترض وجود نوع من الأمان يحمي الإبداع حتى يقوى، والعطاء حتى يستحصد. إن بنيان الثقافة الموجودة في مختلف أقاليم الوطن العربي، بما دخل عليها من التخلخل، ليست من المتانة والأصالة، بحيث تصمد أمام التدفق العنيف للتيارات الثقافية الغربية بخاصة، والوسائل التقنية القاهرة التي تستخدمها، وهكذا فاتخاذ وسائل الحماية، في هذه المرحلة هو جهد مطلوب قوميا، تمكينا للثقافة العربية من أداء دورها الحضاري، وهذا هو اللباب في الأمن الثقافي.

وعن شروط الحوار الثقافي تقول الخطة[١١٩] إن الثقافة حق من حقوق الإنسان الأساس، وتكافؤ الفرص بين الثقافات شرط من شروط التعاون الدولي والإنساني، كما أنه الأساس في العطاء الثقافي المتنوع والإيجابي البناء، ولا يقوم الحوار البشرى المثمر إلا باتصال الحوار، وتداخل العلاقات المتكافئة، بين الثقافات تعزيزا لتفاهم الشعوب، وإثراء لعطائها، ولهذا كله لابد من توطيد الأمن الثقافي بين الشعوب عامة ومن دعم قيم الثقافة العربية خاصة وذلك:

١- بمقاومة محاولات الطمس والتشويه للثقافة العربية، وبالقضاء على جميع مظاهر السيطرة الثقافية الأجنبية.

٢- بتعزيز الهوية الثقافية العربية، وذلك بدعم اللغة العربية، وتنشيط التنمية القومية، ورفض الهيمنة الثقافية الأجنبية.

وقد ذكرت الخطة عبارة جديرة بالاعتبار وهي أن الحوار تقليد لثقافي عربي عريق وأن هذا التقليد الراسخ في الثقافة العربية قد أضحى اليوم ضرورة من ضرورات الحياة المعاصرة، يحتمها الواقع، وتفرضها العلاقات المتزايدة بين البشر، فإن التطور الفائق السرعة الذي حققته التقنية في مجال الاتصال بين الأمم والشعوب لم يجعل الحوار والتعاون ممكنين فحسب، ولكنه جعلهما فرضين إلزاميين أيضا، يضاف إلى هذا أن الثقافة إنما تنمو، وتزدهر، وتزداد إشعاعا وقيمة في الحضارة الإنسانية بقدر تفاعلها مع الثقافات الأخرى، وبما تقدمه لتفاهم الشعوب وتعاونها مع إسهام في إغناء الحضارة، وهذا المفهوم

---

(١١٩) المرجع السابق ص ١٤٥، ص ١٣٤، ص ١٣٥ و ص ١٤٥، ص ١٤٦ .

العربي للثقافة والمنفتح بشكل تلقائي على ثقافات العالم قد يتناقض مع ثقافة الغرب التي تدعي أنها الثقافة الأولى والأخيرة وأن ما عداها من ثقافات في العالم لا قيمة كبيرة لها حقاً، إن هذا النمط الثقافي الغربي ليس بالكامل وليس بالنهائي، وبالرغم مما أعطى الإنسانية من الرفاهية والرخاء المادي، فإنه قد أضاع عليها الكثير من الفرص، وإن في العالم، ولدى العرب، كما لدى الجماعات الإنسانية الأخرى، في الصين أو في الهند. وأمريكا اللاتينية أو إفريقيا رؤى ثقافية وحضارية أخرى، ومسالك من الفكر والفن والروح من شأنها إذا ما امتزجت بها الثقافة العربية الإسلامية، وتعاونت معها، أن تغنى في ذاتها. وأن تغنى الثقافة الإنسانية من ورائها، وتمنح الإنسان أبعادا جديدة ومستقبلا أكثر إشراقا.

ويرى بعض الباحثين العرب[١٢٠] أن التفاعل الحضاري جهد إيجابي شاق في الدراسة، والبحث والتمحيص للحضارة الحديثة، ثم في الاختيار والاقتباس ثم في الأقلمة والتكيف مع خصائص الحضارة الأصلية ومع ظروف البلاد.

وقبل التفاعل الحضاري يحدث عادة ما يمكن أن نسميه التحدي الحضاري. والتحدي كما يقع بين حضارتين مزدهرتين يقع أيضا بين حضارة متفوقة وحضارة متهالكة، وأمام هذا التحدي يحدث أحد أمرين: الأول أن يواجه أبناء الحضارة المتهالكة هذا التحدي مواجهة إيجابية بالتفاعل الواعي أي بالأخذ والعطاء، والثاني المواجهة السلبية بطرفيها: الرفض المطلق أو الخضوع المطلق، وفرق كبير بين إدانة الغزو الفكري الاستعماري وفضحه وكشفه وبين الموقف السلبي العام من الحضارة الحديثة، والخلط بين الاثنين يعني إقامة حاجز سميك بيننا وبين الفكر الإنساني.

والكاتب الإسلامي الدكتور مصطفي محمود[١٢١] يرحب بالاتصال الثقافي ويرى أنه ضرورة جغرافية لتوسطنا في العالم، وضرورة حضارية ولكن مع الوعي بالغزو الثقافي وأهدافه وأساليبه، لابد أن نضع على عقولنا مصفاة ناقدة ترشح وتنقى وتجادل وتناقش

---

(١٢٠) عبد الحليم محمد أحمد ــ خواطر حول أزمة العقل المسلم المعاصر ــ مجلة المسلم المعاصر ــ العدد الأول نوفمبر ١٩٧٤م .

(١٢١) د. مصطفي محمود ــ عن الغزو الثقافي وكلام الوزير ــ جريدة الأهرام بتاريخ ٢٠-٧-١٩٩١م.

كل ما يلقى إليها، لابد أن نعيش في رباط، ونضع على ثغورنا الشرطة والعيون شرطة عقلية لا شرطة قمعية وعيونا تأملية لا عيونا بوليسية وحراسة جدلية لا حراسة عسكرية، حراسة تناقش الفكر بالفكر وتقابل النظر بالنظر، التعددية الفكرية مطلوبة فالله سبحانه وتعالى أراد بالدنيا أن تكون مائدة غنية متعددة المآكل والمشارب ليبتلى اختيارنا ومواقفنا ولو كانت هناك فكرة واحدة سائدة لما كان لحرياتنا معنى.

والإسلام كفكر لا يخشى الالتحام ولا يهاب المواجهة، بل إن نقاء جوهره لا يظهر إلا بالالتحام، وطاقاته لا تنقدح إلا بالاحتكاك، وقوته لا تتجلى إلا بالتحدي، ورأيه لا يسود إلا بانكسار الآراء الأخرى في معارك حرة محايدة، فأنا مع الانفتاح الكامل لكل من الوعي التام في ذات الوقت بحقيقة وخطر الغزو الفكري.. ورفاعة الطهطاوي لم يفقد نفسه كما فقد سلامة موسى نفسه في باريس، ولم يفقد جذوره في أول لقاء مع نيتشه ودارون وماركس وفرويد كما فقد سلامة موسى جذوره ولم يقل كما قال سلامة موسى:

كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له وزاد شعوري بأني غريب عنه، وكلما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبي لها وتعلقي بها وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها، أريد من أدبنا أن يصبح أدبا أوروبيا، وأريد من نسائنا أن يصبحن نساء أوروبيات، هذا رجل أصابه الطمس الكامل والمحو الكامل ففقد وجهه وأحشاءه وهويته وذاتيته فلم يبق منه شئ. وهناك كثيرون يؤمنون بهذا المذهب السلاموني مثل إخواننا الذين جلبوا لنا بضاعة الاشتراكية البائرة وروجوا لها، ولكن الأسوياء ينظرون إلى كل جديد وافد بمصفاة العقل والنظر، ومن أمثال هؤلاء.. رفاعة الطهطاوى، والشيخ محمد عبده، والعقاد والحكيم وطه حسين ونجيب محفوظ، هؤلاء رسل تنوير أخذوا النافع والمفيد من كل جديد وانتقوا الصالح من كل حضارة ونبذوا الضار والباطل، فأثمرت أفكارهم في النهاية ثمارا مصرية وفاكهة عربية، ولم تفقد جذورهم هويتها ولم تفقد صلتها بالتربة العربية ولا بالأرض المصرية العريقة ولم تنطمس بصائرهم ولم تذب شخوصهم، ومن هؤلاء كان الشيخ سلامه حجازي وسيد درويش وعبد الوهاب، كانوا نجوم تنوير في الموسيقى وسفراء تجديد في النغم أخذوا من الغرب وتعلموا منه دون أن يفقدوا مذاقهم وشرقيتهم، وقد

احتفظ كل منهم برأسه في طوفان الجديد الوافد لأنه كان يؤمن بأنه غنى في ذاته وأنه يملك شيئا أصيلا وأن له حضارته وجذوره وعطائه.

الإيمان بالهوية الذاتية والثراء الحضاري كان حصنهم وحمايتهم، واليوم.. الانفتاح أصبح حقيقة، ولم نعد في حاجة للسفر إلى باريس، لأن باريس تقتحم علينا غرف نومنا، وتدخل علينا لندن من تحت الباب، وتنقض علينا أمريكا من القمر الصناعي، العزلة غير ممكنة والتقوقع مستحيل والرفض غير مجد، وأيضا الاستسلام للأفكار الغازية وأخذها بالأحضان وتشربها بلا تمييز النافع فيها والضار هو انتحار حضاري.

إنما الموقف السوي هو اليقظة والوعي والإيمان العميق بالذات والإيمان بالهوية التاريخية.. فمن تلك الهوية التاريخية خرجت أنوار النبوات وأشرقت المعرفة الإلهية على العالم.. فكيف نتقازم، مفتونين أمام الدمى الإلكترونية واللعب الفضائية الوافدة علينا من الغرب، إن لهم علومهم ولكن لنا نحن أيضا علومنا..ولهم تراثهم ولنا تراثنا، ونحن نستطيع أن نضيف أكثر مما أضافوا، ومن هذا المنطلق من الندية نستطيع أن نأخذ ونعطى ومن هذا المنطلق يثمر تلاقح الثقافات نبتا جديدا ".

وفي ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافي لدول الخليج العربي التي عقدت في مسقط في أبريل ١٩٨٥م وقف الدكتور عبدالعزيز كامل[١٢٢] أمام التعابير الثلاثة: الحوار الحضاري، التحدي، التفاعل، وقال: إنه سيستخدم تعبير الحوار لأنه في نظره هو المفهوم الشامل، حتى إن الحرب ــ كما يقول ــ في أحدث تعريفاتها حوار بين القوى، ويقول: إن الحوار الحضاري لا يقف عند الحدود السياسية في عصر أصبحت فيه أجهزة الاتصال وأقمار الفضاء في حوار دائم لا يعرف الحدود، وأصبح العالم كله عند أطراف أصابع الملايين، وأمام أعينهم على شاشات التلفزيون والكمبيوتر والتلكس، ولكن مع كل هذه الأمواج والشبكات علينا أن نجد طريقنا، تماما كما يتخير الربان الماهر طريقه بين الموج والصخر والشطوط والشعاب، نحن فعلا في حاجة إلى "خرائط حضارية" نستعين بها على مسارنا ونضيف إليها الجديد، ونحذف منها ما جرفته تيارات الحياة.

---

(١٢٢) د. عبد العزيز كامل ــ وقائع ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافي ــ مرجع سابق ــ ص ٣٥

وللدكتور عبد العزيز كامل[١٢٣] دعوة في مواجهة الغزو الثقافي يسميها وقف الترف الثقافي العربي الناتج عن الصراعات السياسية.. وهو يبسط دعوته قائلا: "لا يشترط في الغزو الثقافي أن يكون من الخارج، فالتمزق الداخلي لا يقل عنه خطورة، إن لم يزد ونحن نقرأ قول الله تعالى (وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) "سورة الأنفال ــ آية ٤٦". أليس من الغريب أن نجد اثنين من المسلمين من مذاهب دينية مختلفة يتحدثان بكل الحذر، ويخشى كل منهما الآخر.. بينما إذا جلس أحدهما إلى أوروبي أو أمريكي أو ياباني كان منطلقا في الحديث والتعبير والمؤانسة؟! لاحظت ذلك في أكثر من مؤتمر دولي، وأحسست أن هناك حواجز نفسية أو أسوار نفسية تعزل قطاعات المسلمين فإذا جمعهم قطر تعاملوا بهذا الحذر والتوجس.

وكان الترف في الجهود الثقافية يقابله حصر في جهود أخرى، يفقد بها الفكر العربي والإسلامي الكثير من توازنه وكفاءته في مقابلة الحياة وتحدياتها والحوار الناجح في قضاياها.

كيف تستطيع مناهج التعليم وأجهزة الإعلام وحملات التأليف أن تقابل هذين العدوين، الترف والحصر، وأن يلتقى العرب والمسلمون على حوار سواء؟ هذا هو الإطار الذي يحمى جهودنا في اللسان والتنمية والتقدم في آفاق العلم، ومن المحتوى والإطار تتكون خطوط الدفاع أمام الغزو الثقافي ونستطيع أن نحتفظ بذاتيتنا الثقافية أو نرعى تنميتها دون انغلاق عن الحياة، ولا ذوبان في تيارها المتدفق، ويزدهر في مجتمعنا حوار بلا أسوار يكون عونا على اجتياز عقبات الطريق".

يقول الدكتور[١٢٤] عرفان عبد الحميد رئيس قسم الفلسفة بجامعة بغداد (١٩٨٥) إن الدخول في حوار فكرى مع حلقات الفكر العالمى لتحقيق المعاصرة لم يكن في عالمنا العربي المعاصر وليد تطور ذاتى وتاريخى لمنطق الأحداث في بنية الفكر العربي نفسه، بل

---

(١٢٣) المرجع السابق ــ ص ٦٣، ص ٦٤، ص ٦٥ .

(١٢٤) واقع ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافي لدول الخليج العربي ــ مسقط ــ سلطنة عمان ــ في الفترة من ١-٣ شعبان ١٤٠٥هـ الموافق ٢١-٢٣ أبريل ١٩٨٥ ــ الناشر ــ مكتب التربية العربي لدول الخليج ــ الرياض ١٩٨٧ ــ ص ٣١٩، ص ٣٣٣ .

قام تحت وطأة عوامل نفسية يمكن أن نصطلح عليها بعقدة محاكاة الغرب Westernization وفي ظل ظروف اتسمت بالتقهقر العربي، وهكذا جاءت دعوة المعاصرة مبتسرة، ولا تعبر عن حاجة طبيعية لأمتنا العربية بقدر ما كانت تمثل جنوحا فكريا وخضوعا للفكر الغربي.

ويحاول الدكتور عرفان أن يؤصل دوافع الإخفاق في الحوار الحضاري بيننا وبين الغرب في نقاط جوهرية على النحو التالي:

" * إن التاريخ في تراثنا العربي الإسلامي قد ارتبط بوثاق متين بالعقيدة والرسالة؛ لأن انتصارات العرب الخلاقة المبدعة في الحياة ممثلة ومشخصة في إقامة الدولة بمؤسساتها المعقدة، وفي انتشار القوة والسيادة، وفي ازدهار العلم والثقافة والحضارة، كل ذلك قد ارتبط في الوعي العام المشترك للأمة بالعقيدة والرسالة، وهكذا ساد تصور عام بأن الالتزام بالعقيدة ينتج عنه لزوما التقدم في ميدان الحياة العملية، وأن عدم الارتباط الأمثل بالعقيدة يؤدى إلى الإخفاق في التعامل الموضوعى مع الواقع المادى وشروطه، وهكذا تقلصت المسافة الفارقة الفاصلة بين ما هو فكر وواقع أو عقيدة وتاريخ بل إن المفهومين توحدا إلى حد التطابق، فالعقيدة والرسالة والحضارة والسلوك والثقافة والتاريخ، كل ذلك حزمة واحدة ووحدة جامعة مشتركة في بنيان الأمة العربية، يصعب فصله، ولهذا فقد تحول الواقع إلى ساحة اختبار وميدان تجربة لصدق الوفاء بالرسالة منهجا وسلوكا.

أما الغرب فالأمر على ساحته خلاف ذلك تماما، فالغرب في تقاليده الفكرية وبنيته الحضارية ثنائى النشأة والتكوين، فقد اعتمد على مقومات حضارية جذورها يونانية – رومانية خالصة، أما العقيدة الدينية ممثلة في المسيحية، فشرقية الأصل والمنبت؛ لذلك ظل خط الفصل والتمايز بين الواقع الغربى العلمانى في مفرداته وتفاصيله، والرسالة الشرقية الروحية في تعاليمها وقيمها واضحاً ومؤكداً وثابتاً ومتصلاً.

وكان التاريخ الأوروبي ــ على النقيض من التاريخ العربي الإسلامي ــ محاولة دءوبة ومستمرة، وقتالا مريرا متصلا لتأكيد هذا الفصل والانفصال حتى لا تتداخل شئون الدنيا بأمور العقيدة، وظل خط الفصل بين الأمرين واضحا ومحددا.

* إن عملية التفاعل الثقافي أو التثاقف في فهم الفكر العربي الإسلامي وفي عرفه

وتقاليده تختلف اختلافا جذريا عن فهم الغرب لها. ففي الفكر الأوروبي لا يفهم التثاقف Acculturation على أساس من الحرية في الأخذ والعطاء والمساواة في الأقدار. والاعتراف المتبادل بالمنجزات بين حلقات الحضارة الإنسانية، وبالحرية أيضا في الانتقاء والاختيار، بل فهم الغرب عملية التثاقف باستمرار في صورة الاستيلاب الحضاري In acculturation والتنكر التام لمنجزات الطرف المقابل الحضارية والثقافية وأرادها دائما أن تتحول إلى وسيلة للسيطرة والهيمنة وإلغاء للهوية الذاتية المستقلة للأمم المستقلة والشعوب والحضارات، إلى حدود اقتربت في مضامينها من الاغتيال الثقافي للآخرين، مع ما يسبق ذلك عادة من تسفيه عقول الآخرين وتجريحهم والافتئات على ثقافتهم.

والغرب في ذلك كله يصدر عن نظرية عرقية مؤداها تمايز العقل الأوروبي وسموه، فهو – كما يقولون – عقل علمي النشأة والتكوين، فلسفي النزعة والتوجه خلافا للعقل السامي (العربي) الذي هو في زعمهم غيبي التوجه، معاد للعلم وللموضوعية، يميل بطبعه إلى التجزئة والمباعدة، والفصل بين الأشياء، وهكذا برزت إلى الوجود نظرية عبء الرجل الأبيض في حمل رسالة العلم والمعرفة إلى الآخرين، وساد حكم عام ومطلق مفاده أن الغرب هو مركز الاستقطاب الفكري للإنسانية، وأن الفكر الغربي ممثلا في قواعده وأصوله اليونانية والرومانية هو وليد ذاته،جاء على غير مثال سابق، فهو من صنع وتقدير المعجزة اليونانية الخالدة، وعلى هذا فاليونان هم الذين أنشئوا المنهج الرياضي، وابتدعوا العلم التطبيقي، وابتكروا الفلسفة، والمنهج العقلي وهم الذين طوروا مناهج المعرفة العلمية حتى خلقوا بها تفسيرا متناسقا رائع التناسق للإنسان والكون والحياة.

أما الفكر العربي الإسلامي فإن التفاعل الحضاري في عرفه وفهمه وتقاليده هو التواصل الفكري والإخاء المذهبي بين حلقات الحضارة البشرية ودوائرها المتلاحقة والمتتابعة. هذه نظرية الإنسانية يلخصها حديث الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم: "إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلاموضع لبنة في زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة" بهذا التواضع وبهذه الروح الإنسانية ورحابة الصدر كان الفهم العربي للتفاعل الحضاري والحوار الثقافي.

* إن الاستقلال في الإرادة والاختيار لدى الأمة العربية من شأنه أن يفتح من جديد منافذ الاجتهاد والحوار، ويصبح التفاعل الحضاري أساسا لمعادلة متوازنة بيننا وبين الغرب، وأن يتم الجمع بين الأصول والجذور العربية وبين ما تفرزه الحضارة المادية المعاصرة لتتفاعل المحاور والمنطلقات الأصيلة في بنية الفكر العربي الإسلامي مع حقائق الحياة المعاصرة في حزمة واحدة تأبى الانسلاخ وتؤكد في إصرار على التجديد وإعادة البناء ".

ومن شروط الاتصال الثقافي القدرة على التفاعل مع الآخرين، ومن الكتاب[١٢٥] من يشبه القدرة على التفاعل مع الآخرين بامتلاك الجسور التي تمتد بين أصحاب الثقافتين "ويدلل على ذلك بأن الميزة الكبرى في الحضارة العربية الإسلامية وإبان ذروة ازدهارها هي طاقتها الخلاقة في الحوار مع الحضارات السابقة والمعاصرة لها، فالتواصل مع الآخرين يعني في خاتمة المطاف أننا نملك ما نعطيه لهم، والحوار يعني الاعتراف بالآخر، ولكن الحوار شئ، والاستراتيجيات السياسية ذات البعد الثقافي شئ آخر، فنحن مثلا لنا استراتيجيتنا في الاستنارة العقلانية والانتماء الوطني والقومي والحرية وحقوق الإنسان والعدل الاجتماعي والمساواة بين البشر، وهناك استراتيجيات في العالم تلتقي معنا وأخرى تختلف. هناك استراتيجيات تقدس مركزية الغرب وأبدية التفاوت الاجتماعي وتجزئة الديموقراطية. هذه الاستراتيجيات لا يعنيها إقناع شعوبها فقط، وإنما يعنيها في المقام الأول السيطرة على عقول العالم وذاكرته ومخيلته؛ لذلك فهي تحاول الهيمنة على الآخرين، وتحاول أن تفرض عليهم رؤاها للماضي والحاضر والمستقبل، وهي تفرض ذلك بأكثر الوسائل حداثة وتطورا، وأحيانا عبر قنوات محلية تكونت مصالحها في ظل التبعية.

هذه الاستراتيجيات شئ، والتفاعل أو اللقاء أو الحوار الثقافي بين مختلف ثقافات العالم شئ آخر، العالم ليس هو الغرب. إنه الغرب والشرق والشمال والجنوب. من شرق آسيا إلى أمريكا اللاتينية، من إفريقيا إلى أمريكا الشمالية، مرورا بأوروبا هنا وهناك،

---

(١٢٥) د. غالي شكري ـ رؤية نقدية ـ جريدة الأهرام بتاريخ ٦-٩-١٩٨٩م .

والعالم ليس هو المراكز الثقافية الرسمية ولا برامج التبادل الثقافي بين الحكومات التي تخضع أخيرا للمواصفات السياسية، وإنما هو دور النشر والمعارض التشكيلية والفرق الغنائية والمسرحية والمجلات والصحف والإذاعات وقنوات التلفزيون التي لا تخضع لاستراتيجيات الهيمنة أو استراتيجيات التبعية، وإنما تسلم قيادها لسوق المواطن العادي والحوار الثقافي المفتوح بين جميع الشعوب، هناك حواجز الرقابة والعنصرية والرواسب القديمة واختلاف النظم السياسية، ولكن المشاركة في بناء الضمير الإنساني المعاصر تستحق أن ندق من أجلها أبواب السوق، فذات يوم سوف تنفتح؛ لأن لدينا ما نعطيه.. ولأن لديهم ما نحتاج إليه.. ولأن العالم يحتاج في طريق التقدم والحرية إلى الجميع".

ومن الكتاب[١٢٦] من يحذرنا من الخلط بين التفاعل الحضاري بمعنى الأخذ والعطاء، وبين التفاعل مع المصالح الأجنبية والرضوخ لمطالبها على حساب القيم المحلية والتطلعات القومية.

والدكتور عاصم الدسوقي[١٢٧] يرى "أن التفاعل الحضاري عملية مستمرة عبر التاريخ وأن انتقال المعارف من مكان إلى آخر ومن شعب إلى آخر عبر الأزمنة والعصور يؤكد تداخل الحضارات ويثبت اشتراك الجميع في صنع الحضارة، وأن كل عصر يفرز علومه وفلسفاته وقوانينه وعلاقاته وأن هذه الأمور ليست من المتغيرات التي تتحول وتتطور حسب الظروف والأحوال، والدكتور عاصم يدعو إلى قيام جمعية عربية تتكامل بحوثها وأنشطتها لدراسة التداخل والتفاعل الحضاري بين العرب والعالم. ويرى أن دراسة التداخل الحضاري لابد وأن تقلل ــ على المدى البعيد ــ من حجم التعصب وروح التعالي بين البشر إن لم تلغه، وتغرس بدلا منه فضيلة التسامح والاعتراف المتبادل بالفضل، كما سوف تثبت أن لا حضارة تعلو على أخرى وتتفضل عليها أو تفضلها، فبقدر ما تكون حضارة ما منبعا وأساسا لبعض القيم والمعارف والإنجازات بقدر ما تكون مصبا في الوقت نفسه لحضارات أخرى، حيث تتداخل المتناقضات وتتمازج وتصنع

---

(١٢٦) أحمد أبو مطر ــ الشخصية القومية وهجوم الغزو الثقافي ــ الناقد ــ العدد ١٧ نوفمبر ١٩٨٩م .

(١٢٧) د. عاصم الدسوقي ــ التداخل الحضاري بين العرب والعالم ــ جريدة الأهرام بتاريخ ٩-٦-١٩٨٩م.

مركبا جديدا ينتقل إلى آخرين ليمر بالدورة نفسها. وهكذا يؤدى الإيمان بفكرة التداخل الحضاري إلى فهم وإدراك القيم المشتركة بين البشر جميعا وهي قيم تقفز بطبيعتها فوق حواجز اللون والجنس والعقيدة وتؤكد على أن ما يجمع الإنسانية أكثر مما يفرقها.

على أن هذا لا يعنى بالضرورة إسقاط الدور المميز من الاعتبار لأية حضارة من الحضارات أو تجاهله، فمع اعتقادنا بفكرة التداخل الحضاري تبقى خصوصية النسق الحضاري من حيث النشأة والإسهام، وهنا يأتي أحد مجالات الجمعية المشار إليها، فالجمعية بعد أن تؤكد على التداخل الحضاري بمختلف جزئياته في العلوم والآداب والفنون.. لابد وأن تسعى لاكتشاف القانون الذاتي لنسق الحضارة العربية باستخدام المنهج العلمي، وليس بتطبيق نظريات تمت صياغتها في إطار اجتماعي وزمني معين، وضرورة البحث في الفروض المناسبة للوصول إلى القانون والإشكالات المصاحبة، وأيضا اكتشاف الشروط الموضوعية للإسهام العربي في الحضارة الإنسانية ".

ولقد نظر بعض الكتاب العرب[١٢٨] إلى اهتمام مالك بن نبي المفكر الجزائري بقضية البناء الحضاري الإسلامي الجديد نظرة جديرة بالاعتبار، فحاول زكى أحمد استكشاف مكونات القوة وعناصر الإيجاب في فكر مالك بن نبي في النقاط التالية:

أولا : التركيز على القضايا الأساس في العالم الإسلامي.

ثانيا : تجاوز الحساسية الطائفية.

ثالثا : التخصص في العمل الفكري.

رابعا: الفاعلية والديناميكية.

خامسا: غلبة فكر البناء على الهدم.

سادسا: إضافة مصطلحات جديدة.

سابعا: العمق والإبداع.

---

(١٢٨) زكي أحمد ــ مكونات القوة في فكر مالك بن نبي ــ مجلة العالم ــ العدد ٣٨٨ بتاريخ ٢٠-٧-١٩٩١م.

وحقيقة الأمر أن مالك بن نبي يعد رائدا في طرح أفكار المواجهة العربية والإسلامية للقوة الغربية الحضارية المعاصرة ومحاولتها المستمرة في الهيمنة والسيطرة، وما كشف عنه زكي أحمد في مقاله عن مكونات القوة في فكر مالك بن نبي يفتح الطريق للتأمل والتفكير في استراتيجية المواجهة وأساليبها، ففي النقطة الأولى وهي التركيز على القضايا الأساس في العالم الإسلامي يسوق لنا الكاتب عبارة مالك بن نبي المشهورة "إن مشكلة أي شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية، ولا يمكن لشعب أن يفهم مشكلته ما لم يرتفع تفكيره إلى مستوى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبنى الحضارة أو تهدمها". ومن ثم نلاحظ ما لاحظه الكاتب بالأثر السلبي للصائحين الإسلاميين الذين يفتشون المشكلة الإسلامية المعاصرة، والذين يقضون عمرهم في إبراز نقاط الخلاف داخل الأمة الإسلامية والذين يصرفون جهدهم وعمرهم في المسائل الفقهية الصغيرة مثل الطهارة والمحيض والنفاس، لا تمتد أبصارهم إلى مصير الأمة وقضاياها المعاصرة، وفي النقطة الثانية وهي تجاوز الحساسية الطائفية يرى الكاتب أن مالك بن نبي لم تتلوث كتاباته بالمهاترات أو الحساسيات بين الفرق والمذاهب الإسلامية، ويوضح الكاتب مفهوم النقطة الثالثة وهي التخصص في العمل الفكري عند مالك بن نبي فيسوق عبارته القائلة "إن كل تفكير في مشكلة الإنسان هو تفكير في مشكلة الحضارة، ولو أردنا محاكاة هذه الجملة بصورة أخرى مع اعتبار ما بين الحضارة والثقافة من ربط وثيق لقلنا إن أي تفكير في مشكلة الحضارة هو في جوهره تفكير في مشكلة الثقافة، وبذلك تكون الحضارة في جوهرها عبارة عن مجموع القيم الثقافية المحققة، وإذن فمصير الإنسان رهن دائما "بثقافته"، وكانت فكرة مالك بن نبي أن مجتمعا معينا قد يفقد السيطرة على عالم الأشياء في ظروف معينة مثل الهزيمة العسكرية، ولكن احتفاظه بعالم الأفكار سليما هو القوة والقدرة على بناء عالم الأشياء من جديد، لأن القوة الخلاقة هي قوة الأفكار، ويعقب الكاتب بقوله: "ولا شك أن مالك بن نبي قد تقدم بدرجة كبيرة في حقل الاختصاص الفكري، واكتسب العديد من ميزات هذا الحقل الهام، والساحة الإسلامية ينقصها بشكل حاد المفكرون الذين يهتمون بمشكلات الحضارة وقضايا النهوض الحضاري إلى درجة الاختصاص الذي يتيح القدرة على الإبداع والطرح النوعي الشامل بالإضافة إلى

عامل الكم والكثافة، وفي النقطة الرابعة الفاعلية والديناميكية يرى الكاتب أنه من القواعد الرئيسة لمعرفة صحة الفكر وسلامته جريان روح الفاعلية والحيوية في عروق وشرايين الفكر، والفكر الذي لا يتصف بالديناميكية فكر عقيم ومشلول الإرادة والقوى، والفكر الذي لا يحمل الإنسان المسئولية ويجعله يحس بالواجب ينبغي أن نشكك في صحته، والفكرالذي يعطل طاقة الأمة ويجمد إبداعها ويكبل انطلاقها يتعارض مع الفكر الإسلامي، لأن الإسلام جاء لتحرير الإنسان من كافة القيود والأغلال التي تقف أمام نهضته وانطلاقه في البناء والإعمار والتنمية والإنتاج والإبداع والابتكار، ويسوق الكاتب قول مالك بن نبي: "إن التاريخ لا يصنع بالاندفاع في دروب سبق السير فيها، وإنما بفتح دروب جديدة، ولا يتحقق ذلك إلا بأفكار صادقة تتجاوب مع جميع المشاكل ذات الطابع الأخلاقي، وبأفكار فعالة لمواجهة مشكلات النماء في مجتمع يريد إعادة بناء نفسه". وفي النقطة الخامسة وهي غلبة فكر البناء على فكر الهدم، يلاحظ الكاتب أن معظم أعلام الفكر الإسلامي الحديث غلب على كتاباتهم من حيث الكم فكر الهدم أكثر من فكر البناء، ويضرب أمثلة بفكر جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤هـ- ١٣١٥هـ- ١٨٣٨م- ١٨٩٧م) الذي ارتكز على مواجهة الاستبداد السياسي في الداخل ومقاومة الاستعمار في الخارج، وفكر عبدالرحمن الكواكبي (١٨٤٨م - ١٩٠٢م). غلب عليه جانب الهدم الذي يبرز من خلال كتابيه "طبائع الاستبداد" و "مصارع الاستعباد"، وفي كتابات سيد قطب (١٩٠٦م - ١٩٦٦م) يغلب جانب الهدم وكذلك كتابات على شريعتي (١٩٣٣م - ١٩٧٧م) يغلب عليها جانب الهدم، وفي مقابل هؤلاء المفكرين يرى الكاتب أن من المفكرين المسلمين في العصر الحديث من كانت كتاباتهم متوازنة بين الهدم والبناء، ويضرب مثلا بكتابات الشيخ أبو الأعلى المودودى (١٩٠٣م - ١٩٧٩م)، ثم يقول الكاتب إن مالك بن نبي أشار لهذه الفكرة في أكثر من موضع أهمها في تحليله لتطور الثقافة الأوروبية الحديثة حيث يقول: " لوحظ في الثقافة الغربية في عهد النهضة، حين كان "توماس الأكويني" ينقيها - ولو عن غير قصد منه - لتكون الأساس الفكري للحضارة الغربية، ولم تكن ثورته ضد ابن رشد وضد القديس "أوغسطيس" إلا مظهرا للتجريد السلبي حتى يستطيع تصفية ثقافته مما كان يراه فكرة إسلامية أو ميراثا

"ميتافيزيقيا" للكنيسة البيزنطية، وأتى بعده "ديكارت" بالتجريد الإيجابي الـذي رسـم للثقافة الغربية طريقها الموضوعي، الطريق الذي بنى على المنهج التجريبي".

وإذا كان جانب الهدم لدى معظم المفكرين الإسلاميين في العصر الحديث قد غلـب على جانب البناء فذلك بسبب الظروف التاريخية التي مر بها العالم الإسلامي في الاستبداد والاحتلال العسكري. ومالك بن نبي عندما يبحث موضوع النهضة يقول: " وهكـذا حين نتحدث عن النهضة نحتاج إلى أن نتصورها من ناحيتين:

١- تلك التي تتصل بالماضي، أي بخلاصة التـدهور، وتـشعبها في الأنفـس وفي الأشياء.

٢- تلك التي تتصل بخمائر المصير وجذور المستقبل.

وهذا التمييز الضروري لا يتصل بمظاهر الترف العقلي لطائفة من الناس، وإنما يهتم بتكييف حالة شعب وتقرير مصيره. ومن أول واجباتنا تصفية عاداتنا وتقاليدنا وإطارنـا الخلقي والاجتماعي، مما فيه من عوامل قتالة ورمم لا فائدة منها، حـتى يـصفو الجـو للعوامل الحية والداعية إلى الحياة.

وفي النقطة السادسة وهي إضافة مصطلحات جديدة يرى الكاتب أن مالك بن نـبي أثرى الثقافة العربية بمصطلحات جديدة مثل القابلية للاستعمار، ومثل الأفكار الميتة وهي الأفكار التي خذلت أصولها وانحرفت عن نموذجها المثالي ولم يعد لها جـذور في محـيط ثقافتها الأصلي، ومثل الأفكار القاتلة وهي الأفكار التي نستعيرها من الغرب وتتنـاقض مع مكونات واقعنا الاجتماعي.

أما في النقطة السابعة وهي العمق والإبداع فإن النقاد جميعا يؤكدون الرؤية الجديدة لمالك بن نبي في الثقافة العربية والإسلامية بصورة تحفـز الفكـر العـربي والإسـلامي لاكتشاف الحقائق وتحفزه للتحليل والصواب.

عندما قدم "أحمد مختار أمبو" المدير العام لليونسكو تقرير اللجنة الدوليـة لدراسـة مشكلات الاتصال في أواخر العقد الثامن من القرن العشرين ذكر أن الاتصال قام ويقوم بإتاحة فرص التقارب بين أفراد المجتمع وفرص اندماجهم فيه، وقام الإعلام بالحـد مـن التوتر وحل النزاعات. وفي بداية الأمر كان الاتصال قائما على مجتمعات محـدودة، أو

مجموعات من الشعوب المتجاورة، ولكن مثل هذا الاتصال اكتسب في أيامنا بعدا عالميا لا تنفصم عراه، بفضل سرعة وسائل الإعلام وشبكة من العلاقات من شتى الأنواع امتدت عبر العالم كله.

ويقول "مختار أمبو": لا يمكن اليوم لأي شعب كان — إلا إذا استثنينا جماعات سكانية متفرقة في مناطق يتعذر الوصول إليها — أن يعيش بمعزل عن العالم، فقد أصبحت كل أمة تشكل جزءا من الواقع اليومي لسائر الأمم، ولئن لم يكن يتوافر للعالم وعي حقيقي بتضامنه فإنه يشهد تكافلا يزداد باطراد[١٢٩].

وعندما يتناول التقرير الدولي مشكلات الاتصال يتحدث عن التكنولوجيا الاتصالية حديث تفاؤل، وحديث مستقبل مبشر فيقول:

"هذه التكنولوجيا الجديدة التي يتركز استخدامها حاليا في عدد قليل من البلاد الصناعية أساسا، قد مهدت السبيل لعصر جديد في مجال الاتصال. فالمسافات لم تعد عقبة،والإمكانية متوافرة لإقامة نظام اتصال عالمي يربط بين أية بقعة وأخرى على كوكب الأرض إذا ما توافرت الإرادة الجماعية لذلك. وقد أصبحت المعدات أرخص ثمنا بعد أن كانت مكلفة.."[١٣٠].

ولعل أهم ظاهرة في النصف الثاني من القرن العشرين — كما يبين تقرير اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال — هي حصول أكثر من ثمانين شعب على الاستقلال، الأمر الذي أدى إلى تحرر أكثر من بليوني شخص من السيطرة الاستعمارية.

ولقد أصبحت الشعوب في كافة أنحاء العالم تعتمد على بعضها البعض بصورة لم يسبق لها مثيل في التاريخ، وذلك بفضل التقدم التكنولوجي، ويمكن أن تؤدي مجموعة الشبكات العالمية الإلكترونية المترابطة وظيفة مماثلة لوظيفة الجهاز العصبي حيث تربط بين عقول ملايين الأفراد على نحو يؤلف ذكاء جماعيا هائلا، وتهدف العوامل الاقتصادية

---

(١٢٩) أحمد مختار أمبو (المدير العام لليونسكو فيما بين عامي ١٨٧٥ — ١٩٨٧) — تصدير تقرير اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال — الذي نشر مترجماً باللغة العربية بعنوان: أصوات متعددة وعالم واحد — الشركة الوطنية للنشر والتوزيع — الجزائر — ١٩٨١م .

(١٣٠) أصوات متعددة وعالم واحد — المرجع السابق — ص ٤٦ .

والاجتماعية إلى تحقيق هذا التكافل، إن دور الاتصال في العلاقات الدولية دور هام وحاسم إذ إنه يتحكم في قدرة الرأى العام الدولى على حصار المشكلات التي تهدد الجنس البشرى مثل التلوث والأمية والتحيز العنصرى والمجاعات وغير ذلك، ومن ثم يمكن إيجاد حلول لها بعد أن يقوم الإعلام بإبراز مدى خطورتها وتغلغلها وتأثيرها وكيف أنها تهدد كافة الشعوب والأمم، إن وسائل الإعلام تقوم بدور هام في إيقاظ الرأى العام العالمى تجاه مثل هذه المشكلات بجعلها مفهومة على نحو أفضل، وفي حفز الإرادة لحل تلك المشكلات.

هذا التفاؤل التكنولوجي الصادر من قلب مثقف مسلم إفريقي، هو المدير العام لليونسكو. وهذا التفاؤل الذي أكده الخبراء الدوليون في تقريرهم يقابله واقع شديد العفن من قلوب صليبية عليها أقفالها، وعليها تراكمات من الضلال والكراهية تمتد مئات السنين وهذه القلوب العفنة هي التي تستأثر بالتقدم التكنولوجي والإعلامي وتجعل التفاؤل التكنولوجي تشاؤما شديد السواد، وتحجب بممارساتها العنصرية أية بارقة أمل في اتصال ثقافي أو إعلامي عادل أو متكافئ.

إن مجرد المقارنة بين كتابات القرنين السابع عشر والثامن عشر بكتابات العقد الأخير من القرن العشرين تبين بجلاء أن السد المانع للاتصال الثقافي بين العرب والمسلمين من جانب، والأمريكيين والأوروبيين من جانب آخر، هو الكراهية العمياء من الغرب للإسلام والعرب.

"في تاريخ الاستشراق يعد سيمون أوكلى Simon Ockley ١٦٧٨م — ١٧٠٢م من المستشرقين الذين كتبوا عن الشرق بإنصاف. هذا المستشرق عندما يصف النبي محمد — صلى الله عليه وسلم — يصفه بأنه رجل خبيث جدا وماكر، وأن ما كان يبديه من شمائل طيبة كانت مجرد أمر ظاهرى ويخفي وراءه حقيقة نفسه التي كان يحكمها الطموح والطمع، ثم يأتى المستشرق " هادريان ريلاند " المتوفي عام ١٧١٨م فيكتب عن الديانة المحمدية، كتابات توصف في الدراسات الاستشراقية بأنها مترهة عن المواقف اللاهوتية الشديدة العداء والافتراء على الإسلام فيقول: ينبغى على المرء بدلا من ذلك أن يتعلم اللغة العربية، وأن يسمع محمدا نفسه وهو يتحدث في لغته، كما ينبغى على

المرء أن يقتنى الكتب العربية وأن يرى بعينيه هو وليس بعيون الآخرين، وحينئذ سيتضح له أن المسلمين ليسوا مجانين كما نظن، فقد أعطى الله العقل لكل الناس، وقد كان في رأيي دائما أن ذلك الدين الذي انتشر انتشاراً بعيداً في آسيا وإفريقيا، وفي أوروبا أيضا ليس دينا ماجنا أو دينا سخيفا كما يتخيل كثير من المسيحيين. ثم يمضى ريلاند قائلا: "صحيح أن الدين الإسلامي دين سيء جدا وضار بالمسيحية إلى حد بعيد، ولكن، أليس من حق المرء لهذا السبب أن يبحثه؟ ألا ينبغى للمرء أن يكتشف أعماق الشيطان وحيله؟ إن الأحرى هو أن يسعى المرء للتعرف على الإسلام في حقيقته لكى يحاربه بطريقة أكثر أمانا وأشد قوة.."[١٣١].

هذا المستشرق الأخير منعت الكنيسة ــ تداول كتابه حتى بهذه الروح والمبررات...؟

وفي ديسمبر ١٩٩٠.م تنشر مجلة الأيكونوست[١٣٢] حوارا متخيلا بين محمود المسلم وبين فرنسيس المسيحي تحت عنوان: "الإسلام والغرب". ووصفت محمود وفرنسيس بأنهما مسلم مستنير ومسيحي مستنير.

الإسلام والغرب:

الأسقف والإمام يسألان: هل يجب أن نتقاتل حقيقة؟

يقولون الآن إن التعددية هزمت الشيوعية، وأن المعركة الكبرى القادمة ستكون بين الإسلام والنصرانية، أو بين القوتين الكبيرتين في العالم اللتين نحتا في ظل فكرة الله والإنسان، لهذا نظمنا مناقشة بين رجل دين مسيحي وآخر مسلم من ذوى العقول المتفتحة وأطلقنا على أحدهما فرنسيس وعلى الآخر محمود، وقد بدأ المسلم المعتدل حديثه:

محمود: يؤلمني أن كثيرا من الناس يعتقدون أن المرحلة القادمة من التاريخ ستكون معركة بيننا وبينكم.. نحن نعيش جنبا إلى جنب على امتداد المساحة بين بحر قزوين

---

(١٣١) د. محمود حمدي زقزوق ــ الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ــ الطبعة الثانية ــ كتاب الأمة ــ قطر ١٤٠٤هـ ــ ص ٣٣، ص ٣٤ .

(١٣٢) العدد الصادر من الأيكونومست بتاريخ ٢٢-٢-١٩٩٠م

وحتى الطرف النهائي للبحر المتوسط غربا، لقد حدثت احتكاكات مؤلمة حقيقة بيننا مرات عديدة في الماضي، ولكن بعد مرور نحو ألفي عام على مولد مسيحكم، وما يزيد على ١٤٠٠ عام على ميلاد محمدنا، دعوني أبدأ بالسؤال عما إذا كان يجب أن يحدث ذلك ثانية؟ إننا قبل كل شيء أهل الكتاب" إننا نؤمن ـــ مع اليهود ـــ بفكرة إله واحد، إننا نشترك أيضا في فكرة المسئولية الفردية أمام الله، فالقرآن يقول (وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى).

هذه الأشياء قد تبدو بلا معنى بالنسبة لكثير من الناس الذين لا يؤمنون هذه الأيام بأي إله على الإطلاق، ولكن هذه هي الأفكار الأولية التي تشكل كل الثقافات، وتمهد الطريق الذي نعيشه، هناك هوة كبيرة بين الطريقة التي يعيش بها كل منا، والحياة المعقدة للثقافة الهندية متعددة الآلهة، أو الحياة الأحادية للثقافة "الكونفوشيوسية" التي ليس لها إله. دعني أذكرك بأنه عندما خرج محمد من مكة في زيارته للسماء، فيما تطلقون عليه ٦٢١ بعد الميلاد، توقف في القدس ليصلي جنبا إلى جنب مع إبراهيم وموسى وعيسى، إن هذا يثير مشاعري.

فرنسيس: إنه يثيرني أيضا، ولكن يجب أن نواجه حقائق التاريخ. الحقائق تقول إننا أهل الكتاب تشاجرنا مرارا وتكرارا بصورة مخيفة. ليس هناك مشاجرات مثل مشاجرات الأسرة، دعني أذكرك في المقابل بالوقت الذي شق فيه شبابنا الكادحين من حملة الدروع في أوروبا الغربية الواثقة من نفسها طريقهم إلى القدس ليبدءوا سلسلة القتل والخداع الذى نسميه الحملات الصليبية، وما حدث في القرنين التاسع عشر والعشرين حينما ابتلعت أوروبا القوية كل العالم الإسلامي تقريبا في إمبراطورياتها المختلفة.

محمود: وطالما أن كلا منا يتذكر الأوقات التي مضى فيها فريقه بعيدا، دعني أتذكر لك أن الجيش العربي اندفع في شمالي أفريقيا إلى أسبانيا وفرنسا، متحمسا بدين جديد في قرنكم الثامن (وفي قرننا الأول) إلى أن أوقفه تشارلز مارتيل في بواتيه **Poitiers**، وكذلك فتوح ما نسميه الآن روسيا الأوروبية إلى أن صدها دوق موسكو منذ نحو ١٦٠ سنة مضت، والاندفاع التركي في أوروبا الشرقية الذى صده على أبواب فيينا منذ ٣٠٧ سنة مضت ملك بولندا.

فرنسيس: نعم كلانا لديه ذكرياته، أوروبا والإسلام لم يمرا معاً بأوقات هادئة، فمعاركهما معا من أشهر روايات التاريخ، فهل هناك مبرر للاعتقاد بأن هذه الروايات انتهت؟

محمود: هناك فارق كبير بين ما حدث في الماضي والآن في معظم تلك الصدامات المبكرة كان الطرف الذى بدأ بالهجوم مترعا بالثقة في النفس بسبب ما قد نسميه الآن أسباب أيدلوجية وتكنولوجية، وفي المقابل كان الطرف المدافع منقسما وضعيفا، إن الجيش العربى الرائع الذى حمل الهلال الوليد بعيدا عن بواتيه كان يهاجم أوروبا التي تعيش في عصورها المظلمة، كما أن الصليبيين الذين أعاد فرسانهم الصليب إلى القدس بعد٣٥٠ سنة، تقدموا بمباركة من البابا ضد عالم إسلامي غير منظم في حينه، كذلك فإن الأتراك الذين شنوا الهجوم المضاد حتى فيينا كان لديهم أفضل الإمبراطوريات تنظيما في ذلك الوقت، كما أن بناة إمبراطوريتكم الذين ربطوا في القرن العشرين بين الحماس الدينى والكفاءة العلمية، كلاهما واجه معارضة ضعيفة.

إن ما حدث في الماضي لا يشبه الوضع الراهن، إنني أوافق على أن إسلامي الآن يحظى بحماس ديني أكبر من نصرانيتكم أو نصرانيتكم السابقة، غالبيتنا مازال مؤمنا، معظمكم ليسوا متأكدين إن كانوا مؤمنين أم لا، ولكن باقي المعادلة لا ينطبق، إنكم مازلتم الجانب الذي له التفوق التكنولوجي والاقتصادي، والذي نختطف من على مائدته فتات الحياة الحديثة، إن أوروباكم تتجمع معا في وحدة جديدة، بينما المسلمون وخصوصا العرب مازالوا منقسمين.

فرنسيس: إنني أقبل هذا الفارق ولكنى لست مرتاحا تماما لسببين، أحدهما، أن العالم العربى أظهر في هذا القرن لأول مرة في التاريخ علامات جادة لمحاولة توحيد نفسه، ولو فاز صدام حسين العراق في المواجهة في الخليج، فإنه كان قد استطاع أن يوحد بالفعل جزءا كبيرا منه تحت قيادته.

محمود: إنني شخصيا أعتقد أن ذلك كان سيكون كارثة، فصدام حسين سوف يوحده تحت نوع خاطئ من النظام السياسى ــ إنه ديكتاتورية قميئة ــ ولأهداف خاطئة هى نشر أفكاره الخاصة عن القوة العربية في العالم الحديث، ولكن يجب أن أقول لك –

وأن أحذرك – إن كثيرين من رفاقي المسلمين معجبون به كثيرا.

فرنسيس: حسن وهذا يقودني إلى السبب الثاني لعدم اطمئناني لمقارنتك التاريخية، إنك ربما أغفلت أهم شيء، فمعظم هذه الموجات التوسعية المبكرة للإسلام في أوروبا وبالعكس كان سببها الاقتصاد، إن العرب الذين اندفعوا من الصحراء العربية في القرن الذى أعقب وفاة محمد كان يحركهم الحماس الديني، ولكن كان يحركهم في الحقيقة أيضا أنه لا توجد واحات كافية في الصحراء للحفاظ على حياتهم، وقد هاجر الأتراك وقبائل أخرى من وسط آسيا لأسباب مشابهة، من ناحية أخرى فإن أبناء الطبقة الأوروبية الجديدة التي ظهرت مع استقرار الاقتصاد الريفي في مرحلة ما بعد العصور الوسطى لم يكن لديهم ما يفعلونه، وكانوا يبحثون عن الإثارة، إن بناة إمبراطورية القرن التاسع عشر كانوا أمثال هؤلاء أيضا، إن ما يقلقني الآن هو أن العالم الإسلامي في جنوب وشرق أوروبا لديه شبان كثيرون، وليس لديه في الوقت نفسه ما يطعمهم به، أو ما يشغلهم به، أربعة دول فقط من بين تسعة عشر دولة بها كثافة سكانية عالية تقع بين المغرب وإيران — وهي المغرب وتونس واليمن وتركيا — لديها اقتصاديات تنمو أسرع من زيادة عدد الأفواه التي يجب أن تطعمها، أما الخمسة عشر دولة الأخرى فإن الشعوب تزداد فقراً، وفي أربعة من هؤلاء الخمسة عشرة دولة فإن ما يزيد على نصف السكان تحت سن ٢٥ سنة، وفي تسعة ما يزيد على٦٠ % تحت هذه السن، إن هذه الأوضاع تؤدى بالفعل إلى فيضان من اللاجئين اقتصاديا، وإذا أدى البؤس الاقتصادي إلى قمع سياسي أكثر فسينجم عند ذلك فيضان من اللاجئين السياسيين أيضا، يكون من بينهم عدد كبير من الثوريين الغاضبين، إن هذا سوف يتسبب في مناقشات بين أوروبا — التي ستقول إنها لا تستطيع أن تأوى كل هؤلاء اللاجئين – وبين الحكومات التي تريد أن تتخلص منهم، إن هذه المناقشات يمكن أن تتداخل مع أشياء أخرى منها حرية الحركة بين جزئينا من العالم، وإيجاد مدخل لأوروبا إلى البترول العربي، وطموحات الجيل التالي لصدام حسين، إن هذا النوع الخاطئ من قيادة عربية جديدة سوف يخلق نوعا خاطئا جديدا من الثقة العربية بالنفس في عالم من الأسلحة الكيماوية والصواريخ النووية، إنني لا أستطيع الادعاء بأنني أتنبأ بالنتيجة، ولكن هناك ما يصنع الاضطراب.

محمود: هناك حقا بعض الاضطراب وحتى إذا كنا نختلف بشأن التفاصيل، فلنقل إننا قلقان بشأن كيفية مرور واجتياز الإسلام وأوروبا الخمسين عاما القادمة بدون صدام، ماذا يستطيع الرجال ذوى النوايا الطيبة في كلا الجانبين أن يفعلوا للحد من الخطر؟

فرنسيس: أعتقد أن هذا يعتمد على ما إذا كنا نستطيع الاتفاق على الطبيعة الأساسية للعالم الذى سنعيش فيه في القرن الحادى والعشرين، وإذا استطعنا، فيجب أن نكون قادرين إذن على أن نسأل أنفسنا كيف ستستطيع تقاليدنا المختلفة المسيحية والإسلامية أن تتكيف مع هذا النوع من العالم.

إن العامين ١٩٧٩ و١٩٩٠ ــ قد أوضحا كثيرا الطريقة التي ينظم بها الإنسان حياته اليومية هنا على الأرض، بعد هزيمة الشيوعية أصبح ممكنا الاعتقاد بأنه يمكن ترك السياسة والاقتصاد تحت سيطرة حفنة من الناس الذين يدعون بأنهم "يعرفون" كيف يديرون هذه الأشياء.

لقد عدنا إلى المسئولية الفردية، وإلى الاعتقاد بأن كل إنسان يحمل عبء حياته الخاصة، وهى فكرة يشترك فيها المسلمون والمسيحيون كما تقول. ويبدو واضحا لىّ أنه في المستقبل سوف يريد كل فرد في العالم الديموقراطية للجانب السياسى من الحياة، وحرية اختيار السوق كأساس للحياة الاقتصادية.

محمود: إن تصوري للديمقراطية قد يختلف قليلا عن تصورك، ولكن عموما فإنني أوافقك، وإذا كانت تعوزنى اللباقة فإنني سأشير إلى أن إسلامي كان أفضل كثيرا من مسيحيتكم خلال السبعين عاما الماضية فيما يتعلق بالشيوعية، ففي الجزء المسيحى من العالم وصل كثير من الحكومات الشيوعية إلى السلطة، أما في الجزء المسلم فإن ذلك لم يحدث أبدا إلا إذا كان قد تم فرضه من الخارج.

بعض الحمقى من المسيحيين اعتادوا القول بأن الشيوعية كانت " هرطقة مسيحية أخرى " في حين أن كل مسلم رآها ــ كما كانت ــ عدوة لكل منا، ومع ذلك دع هذا يمر إننا نتفق أنه في المستقبل سوف يأمل الناس في كل مكان أن يكون لهم رأى أكثر في كيفية تنظيم حياتهم على الأرض.

فرنسيس: إذن دعنا ننطلق من هنا، إنني أدعى أن الأفكار التي قدمتها المسيحية في

جزء من العالم هي أساس أفضل لمسيرة الديمقراطية من الأفكار التي قدمها الإسلام ففي المسيحية تكلمنا عن الفكرة الجوهرية للفصل بين الكنيسة والدولة.

وفي إدارة حياتنا اليومية على الأرض – إذا كنا نريد أن نجعلها بطريقة ديمقراطية فإننا يجب أن نقبل أن رأى الإنسان الآخر جيد مثل رأينا، هذا هو عالم النسبية والشك الأمين، لقد قيل ذلك للمسيحيين منذ البداية: "أعط قيصر ما لقيصر، وأعط الله ما لله". القرآن – أرجو أن تسامحني – ليس به شئ من هذا يقوله للمسلمين، على العكس من ذلك قيل لكم إن مثل هذا الفصل خطيئة.

محمود: لقد احتاج ذلك من المسيحيين وقتا طويلا كي يضعوا هذا المبدأ موضع التنفيذ، أباطرتكم الرومان المقدسون وباباواتكم في العصور الوسطى توصلوا إلى كثير من الترتيبات السياسية مع بعضهم البعض، بصفة عامة، وبغض النظر عن التجربة المبكرة المثيرة للإعجاب التي قامت بها سويسرا، فإن الأمر تطلب منكم ١٦٠٠ أو ١٧٠٠ سنة – وهي فترة أطول من التي عاشها الإسلام حتى الآن – قبل أن تبدءوا في تطوير الديمقراطية التي تقول إن الفصل بين الكنيسة والدولة شرطها الأساس.

إنك يجب أن تعطينا الوقت أيضا، حقيقة أنه على الرغم من أنه ليس لدينا عبارة عظيمة للاستشهاد بها مثل الاقتباس الذى أوردته عن المسيح من الإنجيل، فإن معظم الدول الإسلامية تمارس بالفعل فصلا بين الدولة والدين، إننا نسير ببطء كبير لعمل ذلك بطريقة ديمقراطية، وأنتم كنتم كذلك.

فرنسيس: ومع ذلك فإن الديمقراطية تمضى بعمق أكثر من الفصل بين الدولة والدين، إن ممارسة الديمقراطية يتطلب موقفا خاصا تجاه الآخرين، من الضروري أن نتقبل عقلا وقلبا أن الإنسان الآخر مهم أيضا مثلنا، إن مظهره قد لا يبدو جيدا أو ماهرا وقد لا يكون قارئا جيدا لأرسطو وآدم سميث، ولكنه مهم كذلك، هذا شئ لا يشعر به الرجال بشكل طبيعي، ولا يمكن تعلمه في دروس الاجتماع في المدرسة، إن الوسيلة الوحيدة لتعلمه تدريجيا هو داخل مناخ الأفكار التي نتربى فيها، وثقافتنا هي هيكل الأفكار التي تشكل حياتنا، إنني سأضغط عليك بشدة. "أحب جارك كما تحب نفسك" قالها مؤسس المسيحية مضيفا إياها بعد حب الله، مما جعل ذلك أهم القواعد على

الإطلاق، إنني لا أستطيع ان أجد شيئا مشابها في القرآن، فالقرآن قال الكثير عن حب الله، وهذا رائع ولكنه غير كاف.

إن العهد الجديد ملئ بالمواعظ التي تدعونا إلى أن ننظر إلى رفقاءنا باحترام وبدون تأكيد للذات، إن فهرس النسخة التي معى من القرآن ليس به شيء عن "الشفقة" و "الرحمة"، ولكن به مدخل واحد عن "السلام" ككلمة تقولها عندما تقابل أحدا، هناك بعض الآيات الصغيرة عن الصبر في سورة ١٦ وعن التواضع في سورة ٣١ ولكن ذلك ليس هو الشيء نفسه.

تعليق: (انظر كيف يحكمون على القرآن من ترجمة فهرس بأرقام السور؟ وهذه هي موضوعية الأيكونومست التي هى موضوعية الغرب).

وبدون الدخول في علم اللاهوت أقول باختصار أن ما أعتقده لكمية في جذور ذلك بالنسبة لأى شخص يعيش في العالم المسيحى – حتى إذا لم يكن مؤمنا – يبدو واضحا أن النظرة المسيحية عن كيف يجب أن يفكر الإنسان في إنسان آخر مرتبط بفكرة الثالوث المقدس – الأب والابن والروح القدس – فإذا قيل لك إن الله فصل جزء الابن عن نفسه كي يصبح بشرا ـــ كما حدث وصُلِبَ ـــ فإنك ستكون عرضة لأن تبدأ الإحساس باحترام أكثر تجاه جميع البشر، إن الإسلام بإنكاره الثالوث ينكر عن نفسه هذه الفرصة.

تعليق: (انظر كيف يجعلون من الشرك بالله أساسا للرحمة بين البشر.. هكذا زين لهم شيطان استكبارهم سوء الفكر والاستنتاج).

محمود: إنني إن لم أقبل بفكرة الثالوث فستفهم أن ذلك لصالح السلام، هذا ليس نكتة ولكنه الحقيقة.

دعنى أكرر: يجب أن تعطينا وقتا. إن العهد الجديد به إشاراته القوية بما فيها ما يقوله عن حب الجار، وكذلك القرآن، خصوصا بالنسبة لمعجزة الله.

ولكن منذ ٦٠٠ عاما مضت، عندما كانت المسيحية في مثل عمر الإسلام الآن، فإن سياسات النصرانية لم تكن تحظى بإعجاب أكثر مما تحظى به سياسات الإسلام الآن، في عامكم ١٣٩٠هـ كانت أوروبا المسيحية فاشستية وحشية لها بابا وبابا معادى، وكانت

تساءل عما إذا كانت في القرن الحادي عشر أم في القرن الثالث عشر؟ إن التغيير الكبير لأوروبا الصليبية للأفضل كان لا يزال بعيدا، لقد أثرت الاقتصاديات في المناقشة مبكرا لتسجيل نقطة ضدي، دعني استخدم الاقتصاد الآن، إن هذا التغيير الأوروبي الكبير للأفضل ـــ بما فيه نمو الديمقراطية ـــ تم جزئيا؛ لأن أوروبا ازدادت ثراء، إن نمو الثروة ووقت الفراغ والتفكير ساعد على تحرير قوى الروح التي أحدثت النهضة والإصلاح، والتي قادت بدورها إلى مجيء الديمقراطية، لقد كانت قوى الروح هذه هناك تنتظر، ولم يكن النمو الاقتصادي أكثر من مفتاح ضمن مفاتيح أخرى تفتح لهم الباب، ولكنها قامت بدورها، إنني واثق من أنه إذا استطاع العالم العربي الحصول على اقتصادياته، فإن بابا مشابها يمكن أن يفتح أمامنا، وإذا حدث ذلك فإن ديمقراطيتنا قد يكون لها ميزة خاصة أو ميزتان.

فرنسيس: إذا كنت على حق فإننا يمكن أن نتنفس ثانية، فما كان يمثل خطرا رئيسا بالنسبة لسلام القرن الحادى والعشرين قد خفت حدته.

إنني أقبل رأيك فيما يتعلق بأهمية الاقتصاد، حقا إنني أعترف بامتنان، أن أوروبا اليانعة في عصر النهضة والإصلاح الديني ساعدها كثيرا من الناحية الاقتصادية والعلمية ما استوردته من العرب منذ ٦٠٠ عاما أو يزيد، لقد تعلمنا منكم من جديد العلوم الطبيعية والأشياء الأخرى التي تعلمتموها من اليونان، لقد كان هذا أحد أسباب يقظة أوروبا، فشكرا لكم.

ولكن ماذا تقصدون بقولكم أن نسختكم من الديمقراطية سوف تكون أفضل من نسختنا إذا جاءت؟.

محمود: لقد قدمتم ما تعتقدون أنه مزايا دينكم كأساس للديموقراطية، إنني سأقدم الآن ميزتين أعتقد أنهما توجدان في ديني. إحداها أننا نحن المسلمين أفضل في مسألة الجنس التي ستؤثر كثيرا في القرن القادم. إن القرآن واضح في ذلك منذ البداية، إنه يقول بأن البشر أمة واحدة، ثم يقول: (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) ويمنعنا أن يحقر بعضنا بعضا، وإذا نظرت حول العالم ستجد أننا طبقنا المبدأ جيدا.

فرنسيس: لقد كان لديكم في شرق أوروبا حتى وقت قريب تجارة العبيد البغيضة

كما كان عندنا في غرب أوروبا.

محمود: حقا يجب أن نعترف نحن وأنتم بفشلنا. ولكن على وجه الإجمال فإن سجل الإسلام في هذا الشأن ليس سيئا.. إن أحد تعاليم محمد الأخيرة إلى العرب هي عدم معاملة غير العرب على أنهم أدنى منزلة، إن هذا سيكون مناسبا على ما أعتقد في القرن القادم.

أما الميزة الأخرى فإنها قد تكون صعبة الفهم بالنسبة للناس في الغرب الحديث، ولكنها أكثر أهمية على المدى البعيد، وأعتقد أن الإسلام يمكن أن يشير إلى الخطر الكامن في انتصار الغرب، والضعف الكامن في قوته.

وكما قلت فإن مولد الديمقراطية والرأسمالية أصبح ممكنا بإزالة جزء من عالم المطلق، في عملية التعددية ليس هناك خطأ دائم أو صحيح دائم، وحكم الإنسان يعتمد على حكم إنسان آخر، فعندما تقرر الأغلبية شيئا سوف يتم عمله، وإذا غيرت رأيها فلن يتم عمله، وسواء احتل قطيع من الغنم أو مصنع للكمبيوتر حقلا من الحقول، فإن ذلك يتوقف على تفضيل ملايين الأفراد لخروف مشوى أو مطبوعات، إنه نظام فعال مثير للإعجاب، وفي عامي ١٩٨٩و١٩٩٠ زعمتم أن ذلك ما يريده العالم كله، ولكن هذا ليس صحيحاً تماماً.

إن قرارات الأغلبية تؤدى أحيانا إلى نتائج يرى كثير من الناس أنها ليست مناسبة مؤقتا فقط، ولكنها خاطئة أيضا، وهذه يمكن تصحيحها إذا تغيرت الأغلبية، ولكن ليس هناك ضمان أنه سيتم تصحيحها.

من ناحية أخرى فإنه في أى نظام يقوم على اختيارات فردية، فإن بعض الأفراد سوف يظلون عند القاع ربما بصفة دائمة. فهذا النظام ليس هناك من يراقب من خارجه وكلما أصبح النظام أكثر عالمية فإن قلقى يزداد بشأن نقص مجموعة من القواعد الإرشادية.

وإذا كانت الديمقراطية الرأسمالية هي النظام العالمي في المستقبل فإن كثيرا من الناس سوف يبدءون في الإحساس بأنهم يعيشون داخل آلة لا أخلاقية.

إن الإسلام الذي يصر على أن الحياة اليومية هى جزء من كل أوسع، وأن هناك

دائما حقائق موضوعية يجب احترامها يكون تذكرة لكل هذه النقائص. إنني لا أعرف بالضبط كيف سيتم إصلاح هذه العيوب، ولكن أحدا لم يكن يعرف منذ ٦٠٠ سنة كيف سيتم إنقاذ النهضة والإصلاح الديني، إنني لا أطلب منكم أن تكونوا مسلمين، ولكني أقترح فقط أن تقدموا أنفسكم بطريقتكم الخاصة إلى العمل الذى لم يتم بالنسبة للتعددية.

فرنسيس: كمسيحي فإنني أوافقك بالطبع على الرغم من أن الكثيرين في العالم الغربي قد يرون أننا نجرى "دردشة" بمناسبة الكريسماس، كم سيكون رائعا لو أن الإسلام الذي ساعد في إيقاظ المسيحية في نهاية العصور الوسطى أن يساعد الغرب الحديث في تشكيل قرونه القليلة القادمة.

هكذا عرضت الإيكونومست في أواخر أيام عام ١٩٩٠م تصورها للجدل بين الغرب والإسلام. وبرغم محاولتها في الالتزام بالموضوعية فإن جذور الفهم الخاطئ للإسلام، وعقدة استعلاء كل ما هو غربي وعصمته من الخطأ بدت ظاهرة واضحة.

ويظل العداء الغربي للإسلام أشد السدود أمام الاتصال الثقافي:

ففي احتفالات عيد الثورة الفرنسية، عام ١٩٩٣م وقعت مشاجرات ومصادمات بين العنصريين الفرنسيين والمهاجرين الأجانب، خاصة العرب والزنوج، ويعلق أحمد عبد المعطى حجازي[١٣٣] على ذلك قائلا: " كيف يمكن للمرء في هذا الجو الموبوء بالكراهية أن يحتفل بانتصار الحرية، وكيف يتمثل روح الإخاء والمساواة، هذا الشر الذى يعصف بالعالم كله، وقد تتغير سحنته وتتعدد ألوانه وشعاراته، لكنه هو الكراهية.. كراهية الآخر، لأنه يحمل لونا آخر، أو لسانا آخر، أو دينا آخر، أو فكرا آخر.. كراهية الآخر هى كراهية كل ما صنعه الإنسان طوال تاريخه ليخرج من التوحش إلى التحضر، ومن الكهف إلى المدينة، فليست الحضارة إلا أن نعيش مع الآخرين، والكلاب وحدها هى التي تنبح الغرباء..".

---

(١٣٣) أحمد عبد المعطي حجازي ــ الكتابة نزال دائم ــ جريدة الأهرام بتاريخ ٢٧-٨-١٩٩٣م .

"كذلك من معوقات الاتصال الثقافي سطحية فهم الغرب، واستخفافه بالشرق بصفة عامة، فكثيرا ما يرسل المحرر الصحفي إلى بلد غريب دون أي إعداد أو خبرة تؤهله لذلك بل يكمن المؤهل الوحيد في براعته في التقاط الأشياء بسرعة، أو بمجرد وجوده في مكان ملائم قريب من المكان الذى تجرى فيه الأحداث التي تحتل الصدارة في الأخبار. وهكذا نجد هذا المحرر بدل أن يحاول أن يعرف المزيد عن ذلك البلد، يلتقط أقرب الأمور منالا، وهى في العادة جمل " كليشيهية " معينة، أو حكمة صحفية لا يحتمل أن يتحداها القراء في وطن الصحفي. ومن هنا لا غرابة أن نجد أنه، مع وجود ما يقرب من ثلاثمائة مراسل صحفي في طهران خلال الأيام الأولى لأزمة الرهائن (عام ١٩٧٩م) دون أن يكون بين هؤلاء من يتكلم الفارسية.!!"[١٣٤].

وهكذا يمكننا أن نتبين معوقات الاتصال الثقافي على الساحتين المحلية والعالمية ومنها على سبيل المثال ما يلى:

* من معوقات الاتصال الحضاري غيبة الديمقراطية في الحياة الوطنية لجماعة من الجماعات إذا كان الفرد في بيته لم يتعود الحوار، وفي مجتمعه لم يشارك في الاختيار الوطني، فكيف نتصور أن عقله يتسع لحوار الحضارات وللاتصال الثقافي العالمي؟! وتمثل المجتمعات العشائرية وبعض بلدان العالم الثالث نموذجا لذلك.

* من استمع إلى خطاب رئيس وزراء إسرائيل في أول نوفمبر ١٩٩١م في مؤتمر السلام في مدريد يستطيع أن يتصور أن الأيدلوجية المغلقة تمثل سدا أمام الاتصال الحضاري.

* من أسباب فشل الاتصال الحضاري غيبة الندية، فإذا كان الطرف الغنى اقتصاديا يتحاور من موقف الاستعلاء، والطرف الفقير يتحاور من موقف الاستجداء والاستخذاء، فشل الحوار ثقافيا وإعلاميا.

---

(١٣٤) د. إدوارد سعيد ــ تغطية الإسلام، كيف تتحكم وسائل الإعلام الغربي في تشكيل إدراك الآخرين وفهمهم (ترجمة – سميرة نعيم خوري) الطبعة الأولى ــ مؤسسة الأبحاث العربية ــ بيروت ــ ١٩٨٣م ص١١.

ولعل فشل الحوار بين الشمال والجنوب وفشل النظام الإعلامي العالمي الجديد في الربع الأخير من القرن العشرين نموذج على ذلك.

* تراكم التشويه يمثل حاجزا، ولنضرب مثلا بصورة العربي في الإنتاج الثقافي والإعلامي الغربي خلال القرن العشرين،إنها صورة تهدم كافة محاولات الحوار والتفاعل الثقافي.

* إن نجاح القيم الثقافية في اختراق ثقافة أخرى ليس بالضرورة دليلا على صحتها، وقد أصبح من المسلم به في علم التنمية أن انتقال القيم يجلب معه أنماط استهلاك لا تعبر بالضرورة عن التقدم الإنساني أو الحضاري بقدر ماتعكس عادات الدولة الأعظم، وربما مثل ذلك العقبة الأساس أمام صوغ استراتيجية تنمية ناجحة كما يقول "فورتادو"، وكان ابن خلدون قد عبر عن هذه الفكرة أحسن تعبير عندما ذكر أن المغلوب مولع دائما بتقليد الغالب اعتقادا منه أنه لولا صحة العوائد والقيم التي يملكها لما غلب وسيطر، بينما الصحيح أن أسباب القوة والغلبة ليست موجودة كلها في الثقافة أو مستمدة منها، "والواقع أن الفرق بين التبعية الثقافية والتبادل الثقافي ناجم هو نفسه من طبيعة العلاقة القائمة بين الثقافات، فالتبادل يقتضي الحد الأدنى من التكافؤ بين الثقافتين المتبادلتين، سواء أكان ذلك على مستوى الإمكانيات أو على مستوى التمكن الحضاري، أما الغزو أو الامبريالية الثقافية فهي الناتج الطبيعي لكل تبادل بين ثقافات غير متكافئة، وإذا كان من الصحيح عن إعاقة التبادل الحر للأفكار من الأمور المفقرة للثقافة والتي لا يمكن أن تقود على المدى الطويل إلا إلى التخلف الثقافي، ومن ثم التخلي المتزايد عن الهوية، فإن من الصحيح أيضا أن هذا التبادل ليس متساويا ولا متكافئا، ولا يمكن أن يكون في أي حال بين ثقافات ليست على درجة واحدة من النضج الحضاري ولا تتمتع بالوسائل والإمكانات والقدرات التقنية والمادية والسياسية نفسها، والمشكلة التي تواجهها الثقافات النامية هي إذن مشكلة حقيقية، فالانفتاح يهدد بالاستيلاب والانغلاق على الذات يهدد بالإفقار والانحطاط والتقهقر الحضاري، وأمام هذه المشكلة المعقدة لا يمكن للمسئولين السياسيين استسهال الحلول بفرض الرقابة الثقافية أو بالعكس، وفي اعتقادنا أنه إذا كان من الضروري التأكيد على عدم جدوى الانغلاق ومخاطره فإن تبني

نظام التبادل الفكري والثقافي الحر لا يمكن أن يعطى نتائجه الإيجابية في العالم النامي إذا أصر على عدم إدراك مخاطر الانفتاح وسلبياته، ومن هنا فإن الصراع بين أنصار مفهوم التبعية الثقافية، وأنصار مفهوم الحرية الثقافية لا يمكن أن يجد علاجه إلا في تطوير مفهوم جديد هو السياسة الثقافية، وتعنى السياسة الثقافية مجمل الاستراتيجيات التي تصوغها جماعة ما من أجل تنظيم علاقاتها الثقافية مع الثقافات الأخرى بحيث تستطيع أن تنمي التبادل الثقافي بقدر ما تستطيع، مع العناية في الوقت نفسه بتطوير كل الوسائل الممكنة لمقاومة الآثار السلبية التي يبعثها عدم التكافؤ الحضاري بين الثقافات بحيث تكون الثقافة الوطنية هي المستفيدة الرئيسة من التبادل وليس العكس، فلابد إذن من مرافقة الانفتاح بسياسات إضافية يكون في مقدمتها دعم الإبداع الثقافي الوطني وتوسيع دائرة الإنتاج المحلي بالتعاون مع الثقافات القريبة في الوطن العربي، من خلال صوغ استراتيجية تنشيط وتنمية ثقافية شاملة ومشتركة، فليس الحل إذن في غلق الباب أمام الأفكار ولكنه لا يمكن أيضا في تجاهل علاقات السيطرة التي تميز التبادل الثقافي، ومن ثم الاستسلام إلى فكرة العالمية الثقافية التي كثيرا ما تخفي تخلي الدولة عن مسئولياتها الأساس في حماية الثقافة القومية ودعم الإنتاج المحلي.

وهذا يعنى أن التبادل هو شرط البقاء الأول لكل الثقافات الإنسانية التي لا تريد أن تسقط في القدم والجمود والتحجر، ولكن مقاومة روح الاستسلام والتسليم التي تقود إلى قتل ملكة الإبداع والإنجاز لدى الثقافات الأضعف، هي شرط تحقيق هذا التبادل المثمر ومكافحة نزعة الانمحاء الثقافي والاغتراب ونزع الشخصية وهذا لا يعنى تحديد حرية الثقافة بقدر ما يعنى خلق الحوافز ووضع الإمكانيات التي تنظم هذا التبادل وتسمح له أن يتحقق فعلا بما هو أخذ وعطاء، وليس استسلاما واستهلاك، ويتعلق الأمر هنا إذن بصوغ خطط التنمية الثقافية عامة وتشجيع الإبداع المحلي وتحرير المجال الثقافي الداخلي وتوسيع التبادل بين الأقطار النامية نفسها"[١٣٥].

---

(١٣٥) د. برهان غليون ـ الثقافة العربية بين التبعية والتبادل ـ جريدة الخليج ـ بتاريخ ٢٠-١٢-١٩٨٩م

كان الأمل معقودا بالتقدم التكنولوجي لزيادة الاتصال الثقافي ولكن هـذا التقـدم أصبح موضعا للتشاؤم في ذلك الشأن، والكاتب المصري محمد سيد أحمد[١٣٦] يـرى أن التقدم التكنولوجي له نتائج سلبية على الديموقراطية ويقول:

"في الندوة التي عقدها مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بـالأهرام حـول "انهيار الاتحاد السوفيتي وتأثيراته على الوطن العربي" جادلني الدكتور سعد الدين إبراهيم حول صحة ادعائي بأن التكنولوجيا المعاصرة تتعارض مع الديمقراطية.. وهذه إشـكالية أعتقد أنها جديرة بأن نمعن النظر فيها.. فقد يقال ـ وهذا ما قاله الدكتور سعد الـدين إبراهيم بالفعل – إن أحد أهم منجزات الثورة التكنولوجية هـو مـا يـسمى بثـورة المعلومات والاتصالات.. أي ثورة انتشار المعلومات على نحو غير مـسبوق.. بفـضل الكمبيوتر، والإذاعة والتلفزيون، وغير ذلك من تكنولوجيات الاتصال الفوري بالطرق المرئية السماعية.. ومعنى ذلك هو تنمية وعي الجماهير على نحو غير مسبوق هو الآخر.. وأن انتشار الوعي هو أحد أهم مقومات الديموقراطية.

غير أن الإشكالية التي أطرحها هي أن التكنولوجيا العصرية تحمل في طياتها تعميـق أوجه عدم التكافؤ في نمو المجتمعات، وقابلية المجتمعات المتفوقة تكنولوجيا على تعظـيم شأن تفوقها باستمرار، وزيادة البون اتساعا على الدوام بينها وبين المجتمعـات الأقـل تقدما، مما يعني خلق مجتمع دولي "هرمي" تتعزز فيه التباينات لا المساواة بين أطرافه.. وفي ذلك إهدار للديمقراطية لا ترسيخ لمقوماتها، ووقوف التكنولوجيا عقبة في وجه "دمقرطة" Demo-Cratization الحياة الدولية.. ولذلك أسأل: لأي من وجهي التكنولوجيا العصرية الأسبقية، وجهها "الديمقراطي" الناجم عن خاصية أنها قد ابتدعت فرصا عظيمة "لنشر الوعي"، أم وجهها "المناهض للديمقراطية" الناجم عن أن قرص المتفوق تكنولوجيا لتعظيم شأن تفوقه أمر لا يقاوم.. ومن هنا كان اللحاق به متعذر المنال؟ وأزعم أن وجه التكنولوجيا المناهض للديمقراطية هو الأكثر بروزا.. وأسوق في ذلك ثلاث حجج أعتقد أنها لا تحتمل الإغفال:

---

(١٣٦) محمد سيد أحمد ـ هل تكنولوجيا العصر ضد الديمقراطية ـ جريدة الأهرام بتاريخ ٥-٣-١٩٩٢م

* حجتي الأولى هي أن انتشار الوعي بفضل ثورة الإعلام والمواصلات العصرية ينطوى على خطر نشر "وعى مزيف" مهدر لاستقلالية الرأي وبالتالي للديمقراطية، لا العكس، ذلك أن ما تذيعه أدوات الإعلام المرئية السماعية هي معلومات يجرى انتقاؤها، وتصنيفها، وتفسيرها، وفق رؤية ـــ وبالتالي مصالح ـــ المجتمعات المتقدمة المتفوقة تكنولوجيا.. وليس هناك انتقاء للمعلومات، ولا تصنيف وتفسير لها مبرّه عن كل غرض.. ويحمل ذلك خطر إضفاء صفة "العمومية" و "الموضوعية" و "الإطلاق" على رؤى هى في حقيقتها "خاصة" و "ذاتية" و "نسبية" ومعبرة في النهاية عن المجتمعات صاحبة القدرة على بث هذه المعلومات.. وهنا مصدر "تزييف الوعى"..

* حجتي الثانية: هي أن التكنولوجيا المتقدمة قد أصبحت تخوض في مجالات تحمل بحكم طبيعتها إمكانية "تحريف" الوعي وتوجيهه وفق مشيئة رواد استكشاف هذه المجالات..فإن هناك إنجازات خطيرة تجرى الآن فيما يعرف بمجال "الذكاء الاصطناعى" ثم في مجال "الهندسة الوراثية"، وهذه بعض علوم العصر التي تنطوى على فرص خارقة للتلاعب بمقدرات المخلوقات، على نحو لا سابقة له عبر التاريخ كله.. فعندما تصطدم المصالح بين دول متفاوتة القدرة التكنولوجية، ألا تتيح هذه العلوم الجديدة للدول مالكة هذه التكنولوجيات فرصة " التدخل " في شئون المجتمعات المتخلفة، ولو بطرق " التحكم عن بعد " Remote Control؟.. وأين ذلك من "دمقرطة" الحياة الدولية؟

* وحجتي الثالثة هي أن إحساس المجتمعات المتخلفة بأنها عرضة لأن يتلاعب الغير بمقدراتها إنما يعزز لديها ردود أفعال تزيدها عجزا ـــ لا العكس ـــ عن مجاراة المجتمعات المتفوقة تكنولوجيا، ناهيك عن اللحاق بها.. فإن الإحباط يفرز الإحساس بالغربة نحو الغير، وبالدونية الجريحة، والانكفاء على الذات والهروب من المستقبل المجهول إلى ماض معروف أو مفترض أنه معروف، وبالتالى تعاظم شأن "السلفية".. وتنطوي السلفية ـــ بشكل أو آخر ـــ على حرمات لا تمس ومحاذير يتوجب عدم التصدي لها، وهذه آلية من شأنها الحد من فرصها في ملاحقة المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا وخوض حلبة منافستها ومزاحمتها..ذلك أن هناك تخليا ـــ ابتداء ـــ من مجالات عديدة أصبحت تخوضها هذه المجتمعات المتقدمة دون شعور بالحرج، وفي أحوال كثيرة بعمل إبداعي خارق، ونتائج باهرة..

هل من سبيل لجعل تكنولوجيا العصر تخدم ولا تهدر الديمقراطية؟ هل من سبيل لاكتشاف قاسم مشترك بين "التكنولوجيا والديمقراطية" يحقق تكاملهما لا تعارضهما؟

هناك بالطبع العامل البشرى "الإنسان".. "أغن رأسمال"! فإن التكنولوجيا، مهما تقدمت فإنها لم تنجح ــ على الأقل حتى الآن ــ في اختراع "إنسان آلي" Robot يملك مواهب وخواص تتخطى قدرات عقل الإنسان.. ومازالت الأسبقية "للبشر" لا "للآلة".

كذلك فإن الديمقراطية لا تقوم أصلا بدون مشاركة "بشرية" فعالة.. ومن هنا كانت التنمية البشرية عنصرا جوهريا في كل جهد تنموي عصري.. إن ملكات الإنسان وقدراته هي العنصر التنموي الوحيد الذي لا يتوقف على الموارد الطبيعية وتباينها مع اختلاف الموقع الجغرافي، ولا على مدى التقدم الاجتماعي وتباينه من جراء نمو المجتمعات نموا غير متكافئ، بالذات في عصر التكنولوجيات المتقدمة.

غير أن عملية "التنمية البشرية" تطرح بدورها معضلات عويصة، منها إرساء أسس ونهج التعليم العصرى القائم على الإبداع لا التلقين، في مجتمعات مازالت أسيرة التخلف ويستبد بالكثير منها إحساس عارم بالإحباط وانعدام الثقة في النفس.. إن التكنولوجيا، كي يصبح التحكم فيها ممكنا، لا يكفي اقتناؤها بل لا مناص من الإسهام في صنعها، ويقتضى ذلك بدوره توفير الفكر العلمي العصري المستنير، حتى يصبح هذا الإسهام واردا أصلا.. فهل هذا متاح؟ ".

هذه الحيثيات للآثار السلبية للتقدم التكنولوجى يزيدها سيطرة الاحتكارات على سوق الإعلام سيطرة تتضاءل أمامها الاحتكارات الإعلامية في منتصف القرن العشرين. فهذه صحيفة الجارديان تحدثنا عن امبراطورية ميردوخ الإعلامية (١٩٩٣) بما يجعل احتكارات منتصف القرن العشرين الإعلامية أقزاما أمام العملاق الجديد بفضل التقدم التكنولوجي. تقول الجارديان:

" روبرت ميردوخ ظهر في الأفق من جديد ليحتل اسمه المانشيتات الرئيسة للصحف بعد أن وقع اتفاقا تاريخيا مع شركة الأقمار الصناعية للأخبار والدعاية الآسيوية يحصل بمقتضاه على حق امتياز البث الفضائي المباشر إلى دول آسيا والشرق الأوسط وهو ما

يحوله إلى صاحب أضخم وأخطر إمبراطورية إعلامية في العالم.

فقد أصبح صاحب سيطرة ونفوذ على آسيا أو بالأحرى العالم الصناعي الآسيوي المذهل الذي حقق ويحقق إنجازات وطفرات تكنولوجية ضخمة بسببها أطلق على القرن القادم قرن آسيا العملاقة، وبهذا الاتفاق تنظم آسيا إلى المستقبلين لبث امبراطورية ميردوخ الإعلامية التي تغطي بالفعل الولايات المتحدة وأوروبا واستراليا، ليصبح عدد المستقبلين لإعلام هذه الإمبراطورية أكثر من ثلثي سكان العالم.

بوصول ميردوخ إلى آسيا بالبث المباشر يحقق معادلة التخاطب والاتصال بعقول الآسيويين الجبارة في محاولة وصفت بأنها تهدف إلى التأثير المباشر عليهم وعلى أنماط حياتهم ومفاهيمهم حول العالم، وذلك في وقت فشلت فيه السياسات في الحد من الانطلاق الآسيوي الضخم، فلم تنجح الإجراءات الحمائية والعراقيل والاتفاقات التي سرعان ما تنهار ولا تؤتي ثمارها في وقف هذا الزحف الآسيوي والطوفان الهائل المذهل لتقدم هذا العملاق الأصفر، وعلى ما يبدو أن استقبال ثلاثة مليارات للبث المباشر المكثف والملح أصبح بديلا مطروحا وقابلا لتحقيق ما عجزت عنه السياسات والإجراءات الاقتصادية.

إن التغطية الفضائية قد أصبحت سوقا رائجة للتدخل وإحداث تغييرات أكبر وأخطر من التدخلات العسكرية والحصارات الاقتصادية أو سياسات المنح والمنع. فعن طريق الضغط على مجموعة مفاتيح ينتقل العالم إلى شاشات التلفزيونات، لتستمع الأرض إلى محطات الفضاء التي سوف تستقي وتتلاعب بكل فنون التكنولوجيا الحديثة في تقديم الأخبار والأحداث والوقائع والأفلام، شبكة ضخمة من المعلومات هدفها العقول والاختراق، وفي رأى آرثر سيسكيند نائب رئيس الشركة الجديدة، أن العالم لن يحارب بالرصاص والذخيرة الحية، وإنما الحرب ستكون بالإعلام والدعاية، فالعالم أصبح في متناول اليد بفضل هذا البث المباشر والقوى ذي التأثير المذهل.

لقد تخصصت معاهد ودراسات في دراسة التأثير على البشر وأنماطهم وبناء على هذه الدراسات توجه البرامج والأفلام والأخبار لتحدث التأثير المطلوب والاستجابة المرجوة.

إن الإنسان ــ وفقا لتصور مثل هذه الشركات العملاقة ــ سوف يعاد برمجته،

وبالرغم من الإطار العريض لما يسمى بحرية تواصل المعلومات والأفكار والخبرات، فإن الحرية بمفهومها الكلاسيكي ستكون موضع شك!! تظهر الصورة واضحة في كل من الصين والهند والهند الصينية التي ظلت لفترات طويلة تحت سيطرة الدولة على مستوى الإذاعة والتلفزيون والصحف، بمعنى آخر احتكار الدولة لمصادر الأخبار والمعلومات.. إن هذه المناطق حديثة العهد بالانفتاح الإعلامي، ستكون متشوقة وغير قادرة على التمييز بين التحيز أو الميل، والموضوعية.. وبالتالى تتحول إلى ثلاث أسواق يمكن إثبات قدرة البث الفضائي المباشرعلى التأثير فيها ووقوعها في متناول يد الزحف الإعلامي الخارجي الذي سوف يتجاوز مجرد نقل المعلومات أو الأفكار إلى إلحاح مكثف مدروس من أجل إحداث انقلابات عقائدية وفكرية ويكون لها ما يسمى " بالفيدباك " أو مردود الرسالة الاتصالية..إن لغة الاتصال وما صاحبها من تقدم تكنولوجي مذهل من فنون التصوير والتورية والمونتاج والتقديم والتأخير، أصبحت لغة لا تقاوم خاصة مع وضع الشعوب التي كانت تحت سيطرة الدولة فترة طويلة لم يكن فيها التخاطب إلا من مستوى فوقى إلى مستوى تحتى.

ولذلك فإن نجاح هذه الشركات اقتصاديا وماليا، يصبح عاملا من ضمن عوامل النجاح الحقيقى، فإن هذه الشركات تصبح شركات نفوذ وسيطرة وتحكم تتحول إلى مؤسسات للهيمنة السياسية والاقتصادية على مستوى عال، مما يجعلها تتحرك وسط أهداف مدروسة وموجهة.

ميردوخ عاد من جديد ليصبح المسيطر على أكبر إمبراطورية إعلامية توجه أفكار العالم.."[١٣٧].

أمام هذه السدود من معوقات الاتصال الثقافي هل نقف عربا ومسلمين مكتوفي الأيدى؟ الجواب: ينبغى أن نحاول، وإذا كنا نتحدث عن ترشيد الفكر الإسلامي فإن الترويج له لا يقل أهمية عن ترشيده "برغم أنه من غير المشكوك فيه أن السيطرة على

---

(١٣٧) العالم في قبضة ميردوخ ــ ترجمة عن صحيفة الجارديان الإنجليزية ــ جريدة الأهرام بتاريخ ١٤-٨-١٩٩٣م.

"الأخبار" و"الصورة" في الغرب ليست في أيدي المسلمين، إلا أنه من غير المشكوك فيه أيضا أن ما يحول دون قيامهم بأى عمل في هذا الخصوص لا يعدو أن يكون التأخر الإجمالي للمسلمين في فهم أسباب اعتمادهم واتكالهم، فلا تستطيع الدول الغنية بالنفط، مثلا، أن تشكو من نقص الموارد، إن ما ينقصهم هو قرار سياسي منسق لاقتحام العالم جديا، وهو نقص يثبت أن الدول المسلمة ليست معبأة أو متماسكة سياسيا بعد، ناهيك عن أن تكون قوة موحدة، فهناك الكثير عن المواهب التي يجب تشجيعها أولا، وليس أقلها شأنا القدرة على إنتاج صورة ذاتية واعية قوية وصياغتها، ثم تقويم جدى للقيم الإيجابية التي يدافع عنها المسلمون بطرق مختلفة، ثم إيصال ذلك إلى بقية العالم.

ولا عذر لمن يندبون عداء " الغرب " تجاه العرب والإسلام، ثم يتقاعسون في تقوى غاضبة، حين يتم التحليل الجرىء لأسباب هذا العداء ولتلك المظاهر في الغرب التي تثيره، فإن خطوات واسعة في سبيل تغييره قد اتخذت"[١٣٨].

ب- وسائل الاتصال الثقافي:

أكثر ما يكون الخلط عند الحديث عن الاتصال الثقافي أو الاتصال الحضاري في الوسائل فكثير من الباحثين يخلط وسائل الإعلام بوسائل الاتصال الثقافي، وإذا كان من الطبيعي أن تشترك بعض الوسائل في الحقلين إلا أن للاتصال الثقافي وسائل يختص بها ولوسائله ملامحها الخاصة وسماتها المحددة، ويمكن حصر أهم وسائل الاتصال الثقافي والحضاري فيما يلي:

١- السياحة:

مع تقدم وسائل النقل برا وبحرا وجوا، ومع ازدياد الرغبة الإنسانية في المعرفة والمشاهدة ومع توفر الوقت لدى الناس بسبب الاعتماد الجزئي على الآلات في الإنتاج والخدمات، مع كل ذلك أصبحت السياحة في عالمنا المعاصر وسيلة من وسائل الاتصال الثقافي والحضاري، ولقد بينت الإحصائيات أن حركة السياحة العالمية في ازدياد مستمر وأن توقعات الخبراء تؤكد الزيادة الكبيرة في المستقبل، وبرغم ما تبرزه الإحصائيات

---

(١٣٨) د. إدوارد سعيد ــ تغطية الإسلام ــ مرجع سابق ــ ص ٨٩ .

الدولية من أن حركة السياحة عالميا تتجه إلى أماكن الاستجمام والراحة والتسلية، بعد أن كانت من قبل تتجه إلى الآثار.. برغم ذلك فإن الاتصال الثقافي والحضاري يجد طريقه في أوجه النشاط الإنساني المختلفة بين السائحين والبلدان التي يزورونها، ومن الجدير بالملاحظة أن الدول المتقدمة تحظى بنصيب الأسد من حركة السياحة العالمية.

٢ـ الحج:

في كثير من الديانات يعد الحج منسكا من مناسكها، وفي واقعنا الإسلامي يعد الحج ركنا من أركان الإسلام، والحج في الإسلام حجان، بضعة أيام في الشهر الأخير من العام القمرى، ويسمى الحج الأكبر، وله مناسك محددة في أماكن معينة داخل مكة وعلى أطرافها، ثم حج طوال الأيام الأخرى من العام وعلى مدار الليل والنهار ويسمى العمرة أو الحج الأصغر، هذان الحجان في الإسلام يمثلان مؤتمرا سنويا عالميا في الحج الأكبر ولقاء مفتوحا مستمرا طوال العام في العمرة، وفي صور الحج المختلفة نجد وسيلة اتصال ثقافي متميزة؛ لأن جموع الحجاج تكون عادة في حالة من الشعور بالانتماء لعقيدة واحدة مما ييسر التقارب، ويزيد من فاعلية الاتصال إن وجد.

٣ـ الحروب:

ليست كل الحروب بطبيعة الحال وسائل اتصال ثقافي وحضارى، فحروب القبائل العربية في الجاهلية مثل حرب "داحس والغبرا" ليست وسيلة اتصال ثقافي، ولكن الفتوحات الإسلامية، والحروب الصليبية برغم ما بين كل منهما من اختلاف شديد في الأهداف إلا أنهما كانتا من الحروب التي تعد من وسائل الاتصال الثقافي، والحملة الفرنسية على مصر التي استمرت نحو ثلاث سنوات تعد أيضا من وسائل الاتصال الثقافي، في حين أن الاستعمار الفرنسى للشمال الإفريقى لم يكن كذلك، إنما كان غزوا فكريا أو بمعنى أدق نموذجا للغزو الفكرى في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، والفرق بين الحروب التي تعد من وسائل الاتصال الثقافي والحروب التي لا تعد من وسائل الاتصال الثقافي لا يكمن في أهدافها، وإنما يكمن في الظروف الموضوعية وفي الفترة التاريخية وفي نمو حضارة أو اضمحلالها، تلك الأحوال مجتمعة هى التي تجعل من حروب وسيلة اتصال ثقافي ومن حروب أخرى ليست وسيلة اتصال ثقافي.

فإذا نظرنا إلى الفتوحات الإسلامية نجد أن الجزيرة العربية أصبحت في أواخر عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تدين بالإسلام، وجاء بعده الصديق ينفذ ما كان قد اعتزمه النبي في تسيير الجيش الإسلامي إلى الشام بقيادة أسامة بن زيد، ليرفع عن أهلها طاغوت حكم الروم، وجاء عمر بن الخطاب ليكمل مسيرة الفتوحات التي تتابعت كماء السيل، ففي سنة ١٧هـ أصبحت فلسطين والأردن وسوريا ولبنان والعراق تحت اللواء الإسلامي وفي سنة ٢٠هـ أصبحت مصر في حوزة الإسلام وفي سنة ٢١هـ دخلت فارس تحت مظلة الفتح الإسلامي وفي سنة ٣٥هـ بلغت الفتوحات الإسلامية الشمال الأفريقي وفي سنة ٥٦هـ أصبحت سمرقند تحت اللواء الإسلامي، في سنة ٩٦هـ وصل اللواء الإسلامي الأندلس حتى جبال البرانس، ووصل اللواء حتى حدود الصين، وكان في طليعة الجيوش الإسلامية صحابة رسول الله ﷺ وكانوا كلما دخلوا بلدا أقاموا مسجدا، ومكث بعض الصحابة والتابعين ينشرون الإسلام، وكان الخلفاء يمدون البلدان المفتوحة بالعلماء، وبسرعة أصبحت في تلك الأقاليم مراكز علمية مزدهرة، ففي الكوفة مثلا هبط ثلاثمائة ممن كانوا مع النبي في الحديبية، وسبعون من أهل بدر، وفي البصرة كان الصحابي أنس بن مالك والصحابي عبد الله بن عباس وغيرهم كثير.

ويروى الحسن البصري أنه أدرك ٥٠٠ من الصحابة في الشام، وقد كتب "يزيد بن أبي سفيان" الوالي إلى عمر بن الخطاب ليعينه بالعلماء ليفقهوا أهل الشام، فأرسل إليه معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبا الدرداء، فأقام عبادة في حمص، وأبو الدرداء في دمشق، ومعاذ في فلسطين، وإلى جانب هؤلاء أعلام من الصحابة مثل بلال بن رباح وخالد بن الوليد والفضل بن العباس بن عبد المطلب المدفون بالأردن، وفي مصر كان الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت والمقداد بن الأسود وعبد الله بن عمر وعبد الله بن أبي السرح، وهكذا كان الشأن في شمال أفريقيا، والأندلس، واليمن، وخراسان، وسمرقند.

وفي حديثنا عن الحروب باعتبارها وسيلة اتصال ثقافي وحضاري لا ندرس المنتصر أو المهزوم، وإنما ندرس الاتصال الثقافي من بيئة متحضرة إلى أخرى في مرحلة التقبل الحضاري أو الاستعداد الحضاري أو التهيؤ الحضاري، ويحدثنا التاريخ عن سريان

الاتصال الثقافي والحضاري من المهزوم إلى المنتصر في بعض الظروف، لقد استولى المغول على بغداد سنة (٦٥٦هـ ـ ١٢٥٨م) وضربوها تماماً، وخنقوا آخر العباسيين المعتصم بالله بأمر رئيس الغالبين (هولاكو)، ونهبوا ما في بغداد من أموال وحرقوا كتبها التي جمعها قبل هذه الكارثة الهائلة محبو العلم، وألقوها في نهر دجلة، فتألف منها جسر كان يمكن للناس أن يمروا عليه رجالاً وركباناً، وأصبح ماء دجلة أسود من مدادها، كما روى قطب الدين الحنفي، ولكن أولئك (الوحوش الضارية) الذين أضرموا النار في المباني ودمروا الكتب وخربوا كل شيء نالته أيديهم، خضعوا لسلطان حضارة المغلوبين بدورهم، حتى أن هولاكو الذي خرب بغداد وأمر بجر جثة آخر العباسيين تحت أسوارها بهرته عجائب حضارة العرب الجديدة في نظره، فلم يلبث أن صار من حماتها. وفي المدرسة العربية تمدن المغول، واعتنقوا دين العرب وحضارتهم وشملوا متفنني العرب وعلماءهم برعايتهم، وأقاموا في بلاد الهند دولة قوية عربية وذلك لأنهم أحلوا حضارة العرب محل الحضارة القديمة[١٣٩].

وإذا كان سريان الاتصال الثقافي والحضاري في الحروب يتم أحياناً من المنتصر وأحياناً من المهزوم كذلك، فإن حروباً تمتد إلى أكثر من قرنين وأخرى لا تتجاوز أعواماً ثلاثة يحقق كل منهما الاتصال الثقافي والحضاري. ومثال الأولى الحروب الصليبية ومثال الثانية الحملة الفرنسية على مصر.

ولطالما ذكرت الحروب الصليبية كلما ذكر تاريخ الحضارات، ولطالما اختلف الباحثون حول دورها في نقل الحضارة العربية إلى أوروبا. وقد رأى البعض أن للحروب الصليبية الفضل الأول في نقل الحضارة العربية إلى أوروبا، ولكن مؤرخاً مشهوراً مثل: "جوستاف لوبون" لم ير للحروب الصليبية فضلاً كبيراً في تمدين أوروبا، وهو يذهب إلى القول بأن ما اقتبسه الأوروبيون أثناء الحروب الصليبية هو وسائل ترف الشرقيين، وطراز العمارة والصناعة. وهو يخالف كثيراً من المؤرخين في استفادة الصليبين من علوم

---

(١٣٩) جوستاف لوبون ـ حضارة العرب ـ (ترجمة عادل زعيتر) ـ الطبعة الرابعة ـ مطبعة عيسى البابي ـ القاهرة ـ ١٩٦٤م ـ ص ١٧٨ .

العرب الخالصة، ويقول: إنها كانت قليلة جداً بسبب عدم إدراك الجيوش الصليبية للمعارف وأصولها. وقد يكون هذا الرأي مناسباً لأول العهد في الحروب الصليبية، ولكنه لا يناسب الحال بعد مرور قرنين على دخول الصليبين بيت المقدس في ١٥ يوليو عام ١٠٩٩م. غير أن "لوبون" يعترف بأن تضعضع النظام الإقطاعي في فرنسا وإيطاليا كان نتيجة للحروب الصليبية، ويؤكد على تأثير الحروب الصليبية في الصناعة والفنون "فقد استوقفت نفائس الشرق الباهرة أنظار "السنيورات والنبلاء" الصليبيين مع جَلفهم وغلظتهم فوجدوا في التجارة وسيلة تقليدها، فنرى اقتباس نفائس الشرق في أسلحة الغرب وثيابه ومساكنه في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر على الخصوص وكلما نمت النفائس أدت إلى تقدم الصناعة بحكم الضرورة، وتبحث الصناعة عن المنتجات التي تتطلبها التجارة منها بطبيعة الحال فتحفزها الضرورة إلى القيام بذلك من فورها. وإذا كانت صناعة الخشب والمعادن والزجاج تتطلب معارف كثيرة فقد اقتبسها الأوربيون من آسيا مع جهلهم لها قبل دور الحروب الصليبية، وعم أمرها بذلك في أوروبا فعن "صور" أخذت "البندقية" نماذج صناعة الزجاج، وعن المسلمين أخذت أوروبا صناعة النسائج الحريرية والصباغة المتقنة، وعن "سورية" أخذ عمال الحملات الصليبية التي دام أمرها قرنين وصانعو أسلحتها ومهندسوها وتجارها ومن إليهم ما كانوا يجهلون من المعارف الصناعية. وذلك في أثناء إقامتهم الطويلة بها. وكان تأثير فنون الشرق في الغرب عظيماً أيضاً فقد نشأ عن إيلاف الصليبين ضروب منتجات الشرق الممتد من القسطنطينية إلى مصر تهذيب أذواقهم الغليظة، ولم يلبث فن العمارة أن تحول في أوروبا تحولاً تاماً".

ومثلما كثر الجدل والنقاش حول الحروب الصليبية ودورها في نقل الحضارة، كذلك كثر الجدل حول دور الحملة الفرنسية في النهضة المصرية الحديثة، فيذهب بعض المؤرخين إلى اعتبار أن الحملة الفرنسية على مصر هي التي فتحت عيون المصريين على الحضارة الغربية المعاصرة. والبعض الآخر ينكر دورها ويذهب إلى أن فترة الحملة التي تقل عن ثلاثة أعوام لا يمكن أن يكون لها دور تاريخي في أعمار الشعوب، ولكن الدكتور حسين

نصار[١٤٠]، يوائم بين فترة الحملة ودورها الحضاري بالنظر إلى حالة التهيؤ للشعب المصري في ذلك الوقت، فهو ينظر إلى الأمر من موضع آخر، فالنهضة ــ من وجهة نظره ــ علامة على السخط على الموجود والسعي إلى تغييره، وعلى ذلك فإنه يجد هذه الظاهرة واضحة كل الوضوح في ولاية على بك الكبير في عام١٧٦٠ الذي يعد عهده بداية حقبة جديدة، والدليل على ذلك تلك الحركة الشعبية التي جاءت مواكبة لحركته ضد الدولة العثمانية، ومتأثرة بها، وكذلك ما قامت به جماهير مصر في أثناء الحملة الفرنسية، وبعدها، إلى أن نصبوا محمد على والياً عليهم.

ويؤكد الدكتور حسين نصار على أهمية التأثير الفرنسي في إشعال النهضة، ولكنه يرفض أن يكون هذا التأثير هو الباعث الأول لهذه النهضة، ويرى أن مجيء الحملة الفرنسية المبكر بعد ثورة على بك كان له أثره في توجيه النهضة الوجهة التي أخذتها. فقد جعل ذلك مصر أول دولة عربية –أغلبية شعبها – مسلمة تقع تحت التأثير المباشر للتفكير الغربي، أو تتصل به اتصالات مباشرة ومتعددة، مما أدى إلى تغير الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية فيها تغيراً هاماً، وكانت بذلك أول دولة عربية مسلمة تستجيب لهذا التغيير.

ويرد الدكتور حسين نصار على ادعاء البعض بأن لبنان سبقت مصر في الاتصال والتأثر بالفكر الفرنسي وعمقه، قائلاً بأنه يعترف بأن ذلك حق، ولكن في بعض المجالات، كما أن هذا التأثير اقتصر على لبنان في غالبه لوجود الأكثرية المسيحية وخاصة المارونية. أما التأثر المصري فكان في خصوبة أرض مصر، فنقل ثماره إلى بقية الأقطار العربية وعرفها بها، وأتاح لها التأثير فيها، ويرجع ذلك إلى عدم وجود فروق أو حساسيات بين شعوب هذه الأقطار والشعب المصري، بالإضافة إلى أن مصر لم تكن تأخذ الظاهرة الأوروبية على علاتها، بل تنتقي منها ما يلائمها، أو تخضعها لتحوير، يجعلها مناسبة للمجتمع المصري العربي، في كثير من الأحيان مما يجعلها مقبولة عند الآخرين.

---

(١٤٠) د. حسين نصار ــ دور مصر الثقافي ــ العصر الحديث ــ جريدة الأهرام بتاريخ ٢٣-٥-١٩٨٢م.

والسؤال الجدير بالاهتمام هو: هل تظل بعض الحروب وسيلة اتصال حضاري؟ إن حروب اليوم اختلفت عن حروب الأمس في عنصر الاتصال ففي أيامنا هذه تدور الحروب دون أن يرى الجنود وجوه أعدائهم. ولكن الحروب ستظل، بل ربما تبقى القاعدة هي الحروب والاستثناء هو السلام، لقد أحصى "ويل ديورانت" مؤلف قصة الحضارة سنوات السلم خلال أربعين قرنا فوجدها أقل من ثلاثة قرون. لذلك نستطيع أن نقرر بأن بعض الحروب أدت دوراً في الاتصال الحضاري دون جدال وأن حروب الغد قد تقضي على كل الحضارات دون تمييز. وذلك بسبب التقدم المذهل في أسلحة الدمار الشامل.

٤ـ الكتاب:

ليس كل كتاب بطبيعة الحال وسيلة اتصال ثقافي وحضاري. كذلك لا نذهب مع القائلين بأن الكتب السماوية وعلى وجه الخصوص (القرآن الكريم) وسائل اتصال حضاري أو ثقافي أو ما شابه ذلك. إن الكتب السماوية لها مواقعها الخاصة في هداية البشر، وتنظيم حياتهم لكسب الدنيا والآخرة. وما نقصده بالكتاب باعتباره وسيلة اتصال حضاري وثقافي هو الكتاب البشري الذي يؤلفه فرد أو جماعة سواء كان المؤلف معلوماً أو مجهولاً. الكتاب الذي ينتقل من حضارة إلى أخرى، ومن بيئة إلى أخرى مؤثراً وحياً، ومثال ذلك كتاب (أقوال الآباء) الفرعوني الأصل والمجهول المؤلف والذي فقد أصله الهيروغليفي، وترجم من اللغة اليونانية إلى اللاتينية في القرن الخامس الميلادي، ثم إلى عدد من اللغات القديمة في ظل الكنيسة، وكتاب وصف مصر الذي وضعه علماء الحملة الفرنسية، وكتاب الأمير لمكيافلي، وكتاب ألف ليلة وليلة، وكتاب الإلياذة، وكتاب رأس المال لكارل ماركس، وكتاب كليلة ودمنة.

والكتاب بصفة عامة لابد وأن يعكس الثقافة التي ينتمي إليها، إن الاطلاع على كتاب مدرسي في قواعد اللغة العربية والتعبير في الأزهر المعاصر. أو في مركز من مراكز تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها يختلف ثقافياً عن كتاب مدرسي في قواعد اللغة الفرنسية والتعبير في مدرسة فرنسية، أو في مركز ثقافي فرنسي في قارات العالم.

وتمثل الترجمة ـــ كما سبق القول ـــ الجانب الأساس في مجال الكتاب باعتباره وسيلة

اتصال حضاري.

كذلك من الكتب التي تذكر في وسائل الاتصال الحضاري إنتاج المستشرقين والمعاجم المزدوجة اللغة.

٥ـ الفيلم السينمائي:

إذا كان من واجب الإعلام في أي مجتمع أن يقدم للمجتمع الدولي الشخصية الوطنية فإن (الفيلم) يقوم بهذا كله. وبصورة أكثر شمولاً وأوقع أثراً، لأنه يستخدم عناصر الدراما ولا يقتصر على عناصر الخبر. إن كل شعب من خلال أفلامه يريد أن يكون له صوت في الساحة العالمية سواء بقصد أو بغير قصد. وعندما اجتمعت اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الإعلام التابعة من منظمة اليونسكو عام ١٩٧٩ في باريس جاء في تقريرها عن مشكلات الإعلام في المجتمع الحديث ما يتعلق بالسينما على وجه الخصوص في أربع نقاط رئيسة:

النقطة الأولى: يختلف التنظيم العالمي لصناعة الأفلام اختلافاً كلياً عن تنظيم وسائل الإعلام الأخرى، وتأتي القارة الآسيوية في مقدمة البلاد المنتجة للأفلام، ففي عام ١٩٧٥م أنتجت هذه القارة (١٩٦٠ فيلماً طويلاً من مجموع (٣٨٠٠ فيلم في العالم أجمع وتعتبر الهند على رأس المنتجين في العالم (٥١٠) تليها اليابان (٣٣٠) وتأتي أوروبا في المرتبة الثانية من ناحية الإنتاج (١٢٢٠) حيث تتبوأ إيطاليا المرتبة الأولى (٢٣٠) تليها فرنسا (٢٢٠) أما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي فقد أنتج كل منهما في عام ١٩٧٥ مائة وثمانين فيلماً، ويتضح من ذلك أن أمريكا الشمالية وأوروبا لا تسيطران على سوق الإنتاج كما هو الحال بالنسبة لبقية وسائل الإعلام.

النقطة الثانية: تتلخص في أن كمية الأفلام المنتجة في كل بلد لا تشكل العامل الأساسي لتداولها أو للتأثير الذي تتركه على الأنماط الثقافية على الصعيد الدولي. إن تداول الأفلام تسوده المصالح التجارية وأحياناً المصالح الثقافية. وتأتي الولايات المتحدة في مقدمة الدول المصدرة للأفلام، تليها إيطاليا، ففرنسا، فالمملكة المتحدة، فالهند، فالاتحاد السوفيتي، ويعود الخلل هنا إلى أن البلاد الصناعية تتبوأ المرتبة الأولى في مجال التصدير بينما لا تحتل مثل هذه المكانة في مجال الإنتاج. كما أن توزيع الأفلام في العالم يخضع إلى

حد كبير لعامل اللغة والثقافة. والأفلام الصينية خير مثل على ذلك حيث توزع على نطاق واسع في البلاد التي تضم بين سكانها عدداً كبيراً من السكان الصينيين، بينما تبقى الأفلام المنتجة في لغات آسيوية أخرى ضمن حدود بلادها.

النقطة الثالثة: تتولى الشركات الخاصة إنتاج الأفلام الطويلة باستثناء ما كان سائداً في الدول الاشتراكية، وعدد صغير من الدول الأخرى في مختلف أنحاء العالم. ولكن يزداد اهتمام الحكومات يوماً بعد يوم بهذه الصناعة بحيث تعتبر اليوم أن المصلحة العامة تقتضي مساهمة الدولة في بعض حقول إنتاج الأفلام. وتحظى موضوعات معينة بالتشجيع على شكل مساعدات. ولوحظ في السنين الأخيرة أن حوالي اثنتي عشرة حكومة أكثرها في أوروبا الغربية قد منحت المنتجين التجاريين إعانات لأسباب ثقافية أو اقتصادية. وفي أكثر البلاد يقتصر تدخل الدولة على تطبيق الرقابة على الأفلام أو تقييمها حسب فئات الجمهور الذي يتاح لفئاته مشاهدتها.

النقطة الرابعة: تهتم هذه الصناعة إلى جانب إنتاج الأفلام الطويلة بإنتاج أنواع أخرى من الأفلام. كالأفلام القصيرة عن أحداث الساعة، والأفلام والصور المتحركة والأفلام الثقافية والأفلام التعليمية وما شابه ذلك. فإذا كانت الأنواع الثلاثة الأولى تصادف صعوبة للوصول إلى جمهور كبير فإن الأفلام الثقافية والتعليمية تسجل تقدماً ملموساً بفضل التليفزيون والحفلات السينمائية التي تنظمها المدارس. ويقوم بإنتاج مثل هذه الأفلام إلى جانب الشركات التجارية أجهزة الدولة ومجالس السينما وشركات الإذاعة التي قد تقتصر مساهمتها على العون المالي فقط.

٦ـ تبادل الوفود والبعثات:

بدءاً من السفارات إلى فرق الفنون الوطنية تعد كل أشكال تبادل الوفود والبعثات وسائل اتصال ثقافي. وهي وسيلة موغلة في القدم من وسائل الاتصال الثقافي. ولكن ظهور ما سمي بالدبلوماسية الشعبية في القرن العشرين الميلادي جعل هذه الوسيلة أكثر فاعلية مما سبق من عصور، وتتمثل الدبلوماسية الشعبية في تبادل الزيارات وعقد الندوات والمؤتمرات بين اتحادات العمال والشباب وما إلى ذلك من منظمات شعبية.

وتحظى البعثات التعليمية بأهمية خاصة في هذا المجال من مجالات الاتصال الثقافي

والحضاري. إن المدرسين الذين يتوجهون إلى بلدان صديقة للتدريس في مدارسها ينقلون إلى طلابهم مع المعارف والدروس أنماطاً ثقافية وحضارية. وفي بعثات طلب العلم تتحقق ميزتان رئيستان الأولى: حالة التهيؤ النفسي للمسافرون، حيث إنهم يذهبون إلى موطن العلم قاصدين التعليم والثانية، أن طلاب العلم المسافرون للتعليم يمثلون نخبة من أوطانهم. وتطالعنا دائماً أسماء المفكرين والأدباء المصريين الذي عادوا من البعثات في أوروبا (منذ عصر محمد علي إلى ثورة ١٩٥٢م) فأسهموا إسهاماً كبيراً في الحياة الفكرية، وتتكرر الظاهرة نفسها في حلقات سلسلة الحضارة... يقول جوستاف لوبون: "عرب الأندلس وحدهم هو الذين صانوا في القرن العاشر من الميلاد العلوم والآداب التي أهملت في كل مكان حتى في القسطنطينية، ولم يكن في العالم في ذلك الزمن بلاد يمكن الدرس فيها غير الأندلس العربية وذلك خلاف الشرق الإسلامي طبعا، وإلى بلاد الأندلس كان يذهب أولئك النصارى القليلون لطلب العلوم في الحقيقة، ونذكر منهم على حسب بعض الروايات: جربرت الذي صار بابا عام ٩٩٩م باسم سلفستر الثاني والذي أراد أن ينشر في أوروبا ما تعلمه، فعد الناس ما علمه من الخوارج واتهموه بأنه باع نفسه للشيطان.

٧ـ الإذاعات الموجهة:

وهي وسيلة فرضتها روح العصر. وأول المشاكل التي تنحرف بها عن هويتها كوسيلة اتصال ثقافي وحضاري هي أنها لا تقدم للمستمع صورة تلقائية أو صحيحة عن مجتمعها، وإنما تتوجه للمستمع بصفة مباشرة بغية جذبه دعائياً إلى ما تريد وبرغم ذلك فإن طبيعة العصر جعلت منها وسيلة اتصال ثقافي حضاري لا يمكن إغفالها وذلك بسبب خصائص الراديو في اجتياز الحدود الجغرافية. وبسبب هذه الخصائص ذاتها نشب ما أطلق عليه حرب الأثير، أو ما يطلق عليه أحياناً حرب طواحين الهواء، ولقد كانت ظروف الحرب العالمية الثانية العامل الرئيس في بروز هذه الحروب الإذاعية ثم ساعدت ظروف الحروب الباردة بعد ذلك وظروف حدة الصراع العقائدي بين الشرق والغرب على استمرار حروب الإذاعات، وأصبح في هذا المجال ما يمكن أن نسميه بالهجوم الإذاعي ثم الهجوم المضاد أو الرد، ففي أغسطس ١٩٨٢م توترت العلاقات بين كوبا

والولايات المتحدة بسبب الإذاعات الموجهة أو ما يطلق عليه حرب طواحين الهواء نسبة إلى (الهوائيات) الخاصة بالإذاعة. لقد بدأت إدارة ريجان تبتكر وسائل جديدة في الكاريبي طبقتها في مناطق أخرى من العالم من قبل في حرب طواحين الهواء، فقد بدأت تزرع بين الأشجار الاستوائية في جزيرة (كاى وست) المطلة على شاطئ فلوريدا هوائى (ايريال) إذاعة طوله٢٥٠ قدما، وأطلقت عليه اسم (راديو هوزيه مارتى) وهو شاعر كوبى ثائر في القرن التاسع عشر وهذه الإذاعة تكمل الإذاعات الموجهة التي كانت تبثها أمريكا إلى الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية قبل تفكك الاتحاد السوفيتى. وإلى الشرق الأوسط (صوت أمريكا). وعندما أحست كوبا بالخطر أعلنت أنها ستقوم وفي اللحظة التي تبدأ فيها الإذاعة الجديدة بثها بالتشويش على مائتى محطة تجارية تبث من ٣٢ ولاية أمريكية ورد البنتاجون (وزارة الدفاع الأمريكية) بأنه سيعتبر التشويش عملا عدوانيا.

ثم جاء التلفزيون في العقد الأخير من القرن العشرين بتكنولوجيا البث المباشر عبر الأقمار الصناعية لينقل للمجتمعات البشرية صورا حية لحياة هذه المجتمعات وثقافاتها ومعظم جوانب حياتها.

٨ـ التجارة:

ومن صورها المعاصرة، المعارض الدولية، بل إن الحوانيت في عواصم العالم الصناعى بل عواصم العالم بصفة عامة ومدنه الرئيسة هى أظهر ما يلقاه المسافر.

وتاريخ الصحافة يحدثنا عن مدينة البندقية باعتبارها مركزا تجاريا في عصر النهضة ومركزا إخباريا بسبب قدوم التجار من الشرق فيحدثون الصحفيين بما شاهدوا وسمعوا. فيكتب الصحفيون من أفواه التجار ومن مكان تجمعهم. ولقد كانت رحلة الشتاء ورحلة الصيف قبيل ظهور الإسلام رحلتا التجارة إلى اليمن وإلى الشام من وسائل الاتصال الحضاري، ولقد دخل الإسلام بعض بقاع الهند مع التجار المسلمين الذين وجد أهل هذه البقاع فيهم قدوة إنسانية وحضارية.

وفي أيامنا هذه تحمل السلعة نحات من الشخصية الحضارية للمنتجين. إن الدقة والنظام أو صفر الحجم مثلا يكاد يتعرف عليها المستهلك العادى في البضائع اليابانية أو الألمانية أو ما شابه ذلك دون أن يقرأ عليها اسم البلد المنتج.

ومن هذه المساحة العريضة للتجارة باعتبارها سلعة، وللتجارة باعتبارها نشاطا اقتصاديا وللتجارة باعتبارها نظاما عالميا للأسواق ولاعتبارات عديدة متشابكة أدت التجارة وما تزال تؤدى دورا في الاتصال الحضاري والثقافي.

٩ـ اللغة:

يرى بعض الباحثين أن اللغة وسيلة إعلام. وعندي أن اللغة ليست وسيلة إعلام وإنما هي وسيلة للتعبير عن أفكار الأفراد وتسجيلها، وهي ليست وسيلة تخاطب وحسب وإنما هي تحمل ملامح وسمات من يتكلمون بها.. تحمل صورتهم الثقافية، وهذا ما يجعلها وسيلة اتصال حضارى وثقافي، وعلى ضوء هذا المفهوم نفسر جانبا من قول الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ (من عرف لغة قوم أمن مكرهم) بأن تعلم الإنسان للغة قوم يمكنه من معرفة طريقة تفكيرهم.

وليست كل لغة بطبيعة الحال. تعد وسيلة اتصال حضارى وثقافي. فالشروط الضرورية لكي تصبح لغة ما وسيلة اتصال حضارى هي بصورة أو بأخرى الشروط الضرورية للنمو الحضاري أو الازدهار الثقافي، وجملة القول: إن العلاقة بين اللغة وبين الحضارة هي علاقة اطراد، وبعض الباحثين يرى[١٤١] أن اللغة هي العامل الرئيس في العلاقات الحضارية، فالتوسع الثقافي ـــ في نظرهم ـــ هو توسع لغوى قبل كل شئ، وأن معرفة لغة تسمح لمن يعرفها بالتأثر الثقافي، وأنه إذا نمت حضارة وازدهرت أقبلت الأمم الأخرى على تعلم لغتها للانتفاع من معطيات تلك الحضارة ونقلها إلى لغتها.

ونحن نرى أن الرأيين لا يتعارضان. وإنما يعبران عن حقيقة واحدة. وهي العلاقة العضوية بين ازدهار وثقافة وحضارة وانتشار لغتها.

واللغة كائن حي يعتريها ما يعتري الكائن الحي من ميلاد ومن شباب ومرض وموت، بل ما يعتري الكائن الحي نفسيا من قوة وإرادة أو ذبول ويأس، لقد استوقفني في تاريخ الشعر العربى أن الغساسنة والمناذرة دولتان عربيتان لما يقرب من خمسة قرون على

---

(١٤١) د. علي محمد القاسمي ـــ اتجاهات حديثة في تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى ـــ جامعة الرياض ـــ ١٩٧٩م ـــ ص ٣١ .

اتصال مباشر بالقوتين العظميين في الجاهلية وعند ظهور الإسلام، وهما الروم والفرس.. هاتان الدولتان العربيتان لم يظهر في أى منهما شاعر، وكان الشعراء ينبغون في الجزيرة العربية بدوا وحضرا ويذهبون لمدح ملوك الغساسنة والمناذرة، ويروى ابن سلام الجمحى أنه كان عند النعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح هو وأهل بيته به، وان هذا الديوان آل إلى بنى أمية، لقد استوقفتنى هذه الظاهرة وهى انه لم يظهر شاعر واحد من الغساسنة أو المناذرة برغم أنهما كانا من حيث المظهر الحضاري واستخدام الوسائل الحضارية المعاصرة ووسائل الترف أكثر من بقية أهل الجزيرة بأشواط بعيدة، ولقد ألح على السؤال: لماذا لم يظهر شاعر أو لم يظهر شعر في أى من الدولتين على مدار خمسة قرون؟

وكانت الإجابة – في رأيي – تتلخص في فقدان الذات، ماذا كان مَثَلُهم الأعلى؟ التبعية..؟ وهل التبعية وفقدان الذات الثقافية تجعل قلبا ينبض؟ إن التبعية لا تنتج فنا ولا فكرا. ولابد لازدهار الفكر والفن من شيء ينبع من داخل النفس، واللغات والشعوب والحضارات ككل كائن حى لابد من شيء نبيل يحركها.

وتتعرض اللغات لمحاولات القتل أو السجن في الصراعات البشرية، وذلك ضمن الغزو الفكرى في التاريخ الحديث، ونضرب مثلا بمحاولات سجن اللغة، ومثلا بمحاولات قتلها بما تعرضت له اللغة العربية في مصر والشام من جانب، وما تعرضت له في الشمال الإفريقي من جانب آخر، وذلك خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادي والنصف الأول من القرن العشرين، لقد تعرضت اللغة العربية في الشمال الإفريقي للقتل والوأد، بينما تعرضت في مصر والشام للسجن والتقييد، وبمقارنة الإنتاج الأدبي والثقافي للأدباء والكتاب الصحفيين في مصر والشام بإنتاج إخوانهم في الشمال الإفريقي تتضح لنا درجات التأثر، ويتبين لنا مدى الضرر.

وتقول الإحصائيات الدولية أن عدد اللغات المستخدمة شفويا في الكرة الأرضية نحو ٣٥٠٠لغة بينما يبلغ عدد اللغات المكتوبة ٥٠٠لغة. ويقول علماء اللغة أن كل لغة تموت يولد مقابلها لغتان أو لغة ونصف. ومن هذه الإحصائيات يتبين لنا الموقع الممتاز الذي تتمتع به اللغة العربية في عالمنا المعاصر،فهي واحدة من ١٦لغة يتحدث بكل منها

٥٠ مليون نسمة على الأقل في العالم. ومزيد من الإحصائيات يدعم صورة الموقع الممتاز للغة العربية على خريطة لغات العالم، تقول الإحصائيات إن عدد اللغات في إفريقيا يصل إلى ١٢٥٠ لغة، وفي أوروبا ٢٨ لغة وطنية رسمية. وكانت مشكلة تعدد اللغات في أوروبا عائقا أمام تبادل البرامج الإذاعية (راديو وتلفزيون) ولكن الخبراء واستخدام التكنولوجيا والترجمة مكنتهم من إيجاد حلول حاسمة لهذه المشكلة. نضيف إلى تلك الإحصائيات الحقيقة التاريخية والحضارية وهى ما نسميه بالمجال الحيوى للغة من اللغات. ومن ثم نجد اللغة العربية على أساس أنها لغة القرآن تتبوأ مركزا ممتازا في دائرة الاتصال الثقافي والحضاري لو ازدهرت لأصحابها حضارة وثقافة.

١ـ الهجرات:

تمثل الهجرات منذ فجر التاريخ وسيلة من وسائل الاتصال الثقافي والحضاري، ويذهب مؤرخو الحضارات إلى حدود تثير الدهشة في حديثهم عن الهجرات القديمة وهم يقتفون آثارها، ويرى عباس العقاد[١٤٢] أن من سلالة العرب نزحت أقوام إلى أواسط أوروبا منذ خمسة آلاف سنة على أقل تقدير، ويقول أن كل ما استفاده الأوروبيون من هذه البقاع في هذه العصور، هو تراث عربي أو تراث انتشر في العالم بعد امتزاج العرب بأبناء تلك البلاد، ويؤكد بأن هذا التراث يشمل كل ما هو أصيل عريق عند الأوروبيين في شئون العقل والروح وأسباب العمارة والحضارة وهى:

١- العقائد السماوية.

٢- آداب الحياة والسلوك.

٣- فنون التدوين والتعليم.

٤- صناعات السلم والحرب وتبادل الخبرات والثمرات.

ويتتبع العقاد كل ذلك بالتدليل والبرهان. فهو يقرر بأن الأوروبيين تلقوا على الأقوام العربية الأولى في هجرتها عقائدهم عن الأسبوع وأرباب الأيام وسلطانها على الأحياء. ولا تزال أسماء الأيام الإفرنجية تحمل طابع العقائد السماوية كما كان يعتقدها

---

(١٤٢) عباس محمود العقاد ـ أثر العرب في الحضارة الأوروبية ـ الطبعة الرابعة ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٦٥م ـ ص ١٤ إلى ص ١٦ .

أسلاف العرب المغرقون في القدم. والعقاد يسوق نصا عن الجزء الأول من إخوان الصفا عن أوائل ساعات الأيام جاء فيه (اعلم أن الليل والنهار وساعاتهما مقسومة بين الكواكب السيارة، فأول ساعة من يوم الأحد للشمس، وأول ساعة من يوم الاثنين للقمر. وأول ساعة من يوم الثلاثاء للمريخ، وأول ساعة من يوم الأربعاء لعطارد، وأول ساعة من يوم الخميس للمشترى، وأول ساعة من يوم الجمعة للزهرة، وأول ساعة من يوم السبت لزحل)، ثم يسوق العقاد قرائن الاتصال الحضاري والثقافي في تأثر الأوروبيين بالهجرات العربية الأولى فيذكر أن يوم الأحد يعرف في الإنجليزية باسم (سنداى Sunday) أو يوم الشمس. ويوم الاثنين يعرف فيها باسم (منداى Monday) أو يوم القمر، ويوم الثلاثاء يعرف فيها باسم (تيوزداى **Tuesday**) أي يوم تيوز إله الحرب عند أمم الشمال الأولى، وتوضحه التسمية الفرنسية لهذا اليوم؛ لأن يوم الثلاثاء يعرف فيها باسم Mardi أو يوم "مارس" وهو المريخ، ويوم الأربعاء يعرف في الإنجليزية باسم (ونزداى Wednesday) أو يوم "ودين" إله المعارف والفنون عند قدماء (التيوتون) وتوضحه التسمية الفرنسية أيضا لأن يوم الأربعاء يعرف فيها باسم Mercredi أي يوم عطارد وهو بالفرنسية Mercure وبالإنجليزية Mercay ويوم الخميس يعرف في الإنجليزية باسم (ثورزداى Thursday) أو يوم (ثو) إله الرعد عند قدماء "التيوتون" وتوضحه التسمية الفرنسية لأن يوم الخميس يعرف فيها باسم Jeudi أي يوم المشترى أو الإله "جوبيتر"، ويرجع هذا الاسم إلى اسم ياهو Jehova الذى يشير به أبناء الأمم السامية إلى الله، ويوم الجمعة يعرف في الإنجليزية باسم (فرايداى Friday) أو يوم الربة فريج Frig زوجة عطارد، ومقابلة الزهرة في صفاتها، وتوضحه التسمية الفرنسية لأن يوم الجمعة فيها يعرف باسم يوم الزهرة Vendredi أو يوم فينوس، ويوم السبت يعرف في الإنجليزية باسم (ستارداى Saturday) أو يوم زحل Saturn في تلك اللغة إلى اليوم، ويمضى العقاد معقبا بأنه يتبين لنا من معانى أيام الأسبوع عندهم أن عقائد التنجيم التي أخذوها عن السلالات العربية قد تغلغلت في شعوبهم الأوروبية من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ومن أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، وهى العقائد التي ترتبط بالمعيشة اليومية، وطوالع الأوقات وسلطان الأفلاك العليا على الأحياء وحوادث الأيام، وهكذا يمضى العقاد في القرائن والبراهين التي تؤكد لنا أهمية الهجرات في الاتصال الحضاري.

ويحدثنا التاريخ أنه عندما قامت دولة البطالمة في مصر استقدموا إلى الإسكندرية العلماء من جميع أرجاء بلاد الإغريق مثل إقليدس وارستوفانيس وكاليما خوس وزودوهم بكل وسائل الراحة من متحف شهير ومكتبة عظيمة ومدارس كثيرة ورواتب مجزية ليبدع كل في عمله وفنه، وجاءت الثمرة عظيمة لا تنسى، فقد صانوا هم ومن جاء بعدهم في العهد الروماني أعمال الإغريق والغنوسطيين والمانويين التي ضاعت أصولها، وتركت معارفهم الرياضية بصماتها في الرياضيات الهندية، ثم انتقلت عن طريقها إلى الفارسية فالعربية.

وهكذا كان المد الحضاري في مصر وكانت وسيلته الهجرات، ويروى لنا التاريخ صورة للجذر الحضاري ووسيلته أيضا الهجرات. كان ذلك عند فتح العثمانيين لمصر، فقد جمع سليم الأول العمال والصناع المهرة من مصر وأرغمهم على السفر إلى الأستانة لمزاولة فنون الصناعات والحرف هناك ونشرها في بلاده.

وفي عالمنا المعاصر تمثل هجرة العقول والأيدي العاملة وسيلة من وسائل الاتصال الثقافي والحضاري إذا كانت الهجرة مؤقتة، وإذا ظل المهاجر مرتبطا بوطنه الأم ولو بقضاء العطلات فيه.

١١ـ الأوجه الاتصالية للنشاط الدولي:

ومن أمثلتها الإعلام الدولي والمنظمات الدولية والألعاب الأوليمبية وكأس العالم وما شابه ذلك. وتعد اليونسكو (UNESCO) أبرز وأهم المنظمات في هذا المجال، ومنذ ١٩٤٦م ــ تاريخ إنشاء هذه المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم باعتبارها إحدى المنظمات التابعة للأمم المتحدة ــ قدمت أعمالا باهرة في مجال الاتصال الثقافي والحضاري بين معظم شعوب العالم، وتنظم المؤتمرات العديدة التي تعقدها اليونسكو صفوة المفكرين والخبراء في الدول الأعضاء، وتعد مؤتمرات اليونسكو ساحة فسيحة لاختلاف الآراء وتعددها حول المفاهيم الثقافية في عالمنا المعاصر. ويشمل النشاط اليومي (الروتيني) للمنظمة مجالات متسعة للاتصال الحضاري بين شعوب العالم. ومن هذه العناصر وغيرها تسهم اليونسكو إسهاماً كبيراً وفعالاً في الاتصال الثقافي والحضاري مما جعلها وسيلة ضمن الأوجه الاتصالية للنشاط الدولي. تلك الأوجه التي مكن لها الإعلام المعاصر بأن جعل الكرة الأرضية قرية اتصالية.

المقارنة بين الوسائل

ومما لا شك فيه أن لكل وسيلة من وسائل الاتصال الحضاري أبعادها المتعددة التي تكشف جوانبها الإيجابية والسلبية. ولكننا في هذا المجال نقتصر على تحديد وسائل الاتصال الحضاري عسى أن يفتح هذا التحديد بابا للباحثين في علوم الإعلام وتاريخ الحضارات وغيرهم للدراسة والبحث. وعلى سبيل المثال ليس ما يراه السائح في معظم الأحيان هو الصورة الحقيقية لحضارة البلدان التي يزورها، إن ولع السائح "بالفولكلور" مثلا وبأماكن المجون واللهو يحجب عنه أشياء كثيرة من صلب الحضارة والثقافة التي يتصل بمواطنها وأهلها، فهل مصارعة الثيران مثلا تعبر عن الدور الحضاري لأسبانيا؟ وهل ملاهي شارع الهرم تعبر عن مصر وعاء الثقافة العربية الإسلامية؟

ولاشك أيضا إن درجة التأثير في الاتصال الحضاري تختلف من وسيلة لأخرى. يقول اجنس جولد تسهر[١٤٣] "أن التأثيرات الروحية أقل تجاوبا إذا صدرت عن كتاب إلى كتاب مما إذا حصلت عن طريق اعتناق الآراء التي تملأ البيئة، وتنتقل بواسطة الاتصال الحي ولاسيما إذا كانت موضوع اختلاف قوى الحيوية في الأفكار وبرزت إلى الصف الأول من الاهتمام، ولابد أن الجدال قد حصل بين أطراف النقاش ".

كذلك يمثل مضمون الاتصال عاملا حاسما في عملية الاتصال الحضاري من حيث الأثر ورد الفعل ــ يقول جوستاف لوبون[١٤٤]:

"ويجب على من يرغب في الحكم بفائدة كتاب ديني ألا ينظر إلى قواعده الفلسفية بل إلى مدى تأثير عقائده، والإسلام إذا نظر إليه من هذه الناحية وجد من أكثر الأديان تأثيرا في الناس، مع مماثلته لأكثر الأديان في الأمر بالعدل والإحسان والصلاة.. إلخ، يعلم هذه الأمور بسهولة يستمرئها الجميع، وهو يعرف فضلا عن ذلك، أنه يصب في النفوس إيمانا ثاقبا لا تزعزعه الشبهات ".

إن المقارنة بين وسيلة وأخرى من وسائل الاتصال الثقافي لا يفسد مبدأ التكامل بينها. أو كما نقول في مستويات الإعلام بأن الاتصال الشخصي ليس نقيضا للاتصال الجماهيري. وإنما يدعم كل منها أهداف الآخر.

---

(١٤٣) د. عبد الحليم النجار ــ مذاهب التفسير الإسلامي للعالم المستشرق أجنس جولد تسهر ــ مكتبة الخانجي ــ القاهرة ــ ١٩٥٥م ــ ص ١٧٣ .

(١٤٤) جوستاف لوبون ــ حضارة العرب ــ مرجع سابق ــ ص ١٢٥ .